دميتري ستريشنيف

الفتاة البيضاء

دار نشر
أنباء روسيا
Russia News
russiannewsar.com

ترجمة
ميشال يمين

ترجمة لكتاب
الفتاة اليزيدية
Перевод по книге
Езидка

الناشر
أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com
رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعى
secertary_ert@yahoo.com
المراسلات
القاهرة – مدينة العبور
44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي ـ ص. ب. 72
Tel. & Fax: + (202) 24698170 & 071

رئيس التحرير التنفيذي
خالد بيومي

الإخراج الفني/ أحمد عثمان

أسرة التحرير / شيماء محمد ـ منى فرج

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. & Fax: +(202) 44789644 & 46

الطبعة الأولى 2017
دار نشر أنباء روسيا

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب إلكترونيا أو ضوئيا دونما إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع
22365 / 2016

المؤسسة المصرية الروسية
للثقافة و العلوم

При содействии
Египетско-Российского
Фонда культуры и наук

رئيس مجلس الأمناء
ا.د فيتالى ناؤمكين
رئيس مجلس الإدارة
د.حسين الشافعى

obeikandl.com

دميتري ستريشنيف

الفتاة اليزيدية

ترجمة
ميشال يمّين

2016

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة المؤلف

عندما كنت شاباً أدرس اللغة العربية في جامعة موسكو، لم يكن من الصعب العثور في المكتبات في بلدي (وكان اسمه آنذاك الاتحاد السوفياتي) على روايات وقصص قصيرة ومسرحيات وقصائد مترجمة عن اللغة العربية- من حكايات «ألف ليلة وليلة» إلى مؤلفات الكتاب المعاصرين الذين كانوا يحظون بالشعبية. وفي أوائل سبعينيات القرن الماضي، جئت لأول مرة إلى بلد عربي وهو مصر، فوجدت أنه لم تكن هناك أيضا مشكلة في العثور على كتب لمؤلفين روس باللغة العربية، ولو في شكل إصدارات «شعبية» رخيصة. أما اليوم فقد تغير الوضع تغيراً جذرياً؛ فحكايات «ألف ليلة وليلة» لا تزال- بطبيعة الحال- موجودة على الرفوف الروسية، ، كما كان الوضع من قبل، ولكن بات من غير الممكن التواصل عن كثب مع مؤلفات الأدب العربي المعاصر. اللهم إلا أن ترمق بعينٍ ولو للحظة عالم الأدب هذا، فتعثر بصعوبة بالغة على عدد قليل من أسماءِ الكتب.

أما في البلدان العربية، فالوضع أفضل قليلا ؛ إذ لا يزال الكتاب الكلاسيكيون الروس حتى الآن موضع احترام وتقدير لدى عدد من الناشرين، ولكن ما ظهر منذ حوالي ١٠٠ سنة ، غرق هو أيضا في أضابير

كثيفة من الإهمال والنسيان. فكأن شعوبنا دخلت ـ للأسف ـ في مرحلةٍ "جاهليةٍ" جديدة. وأملنا ألا تستمر هذه المرحلة لفترة طويلة.

وهنا أود أن أعرب عن امتناني العميق للدكتور العزيز حسين الشافعي، والذي ملأ بنشاطاته، وترجماته، وإصداراته فراغا كبيرا، كان مخيما على العلاقات الثقافية العربية الروسية في مجملها، فبعث فيها روحا جديدة، وشكر خاص له أيضا؛ لاقتراحه نشر واحد من كتبي. فمن خلال صفحاته سيحاول صوت روسيا الحديثة أن يختصر المسافات ليصل مرة أخرى إلى مسامع القراء العرب. خصوصا أن هذا الكتاب خطّه شخص أصبح العالم العربي بالنسبة له بمثابة وطنه الثاني.

ولربما كان صحيحا أن وقع اختيار الدكتور الشافعي على هذا العمل بالذات؛ لأن المؤلف حَدتهُ الرغبة ليس فقط في أن يتكلم عن أحداث جرت في أحد البلدان العربية، ولكن أيضا أن يعمل ولو بعض الشيء على حلحلة مجموعة متشابكة معقدة من العلاقات، تلك التي تنشأ ـ حتماً ـ عندما يجمع القدر في مشهد درامي واحد شخصيات من الشرق والغرب ومن تلك القارة غير المفهومة التي تُسمى «روسيا»، والتي لا يمكن، إلى حد بعيد، أن تعزى لا إلى هذا الجانب ولا إلى ذاك (وربما حتى للمزيد من تعقيد هذه العلاقات).

أما تلك النكهة الحرَيفة التي يضفيها على كل هذا التخبط والارتباك اللغزُ الأبدي السرمدي، لغز العلاقة بين الرجل والمرأة، فمن دونها لن يصير الأدب إبداعاً. وإني لأدعو القارئ العربي إلى التأكد بنفسه من أن الأدب الروسي المعاصر ليس موجوداً وحسب، بل يحاول أحيانا أن يتحدث ـ ربما على طريقته الخاصة – عن منطقة ربطها ببلادنا منطق مسيرة التاريخ الذي لا يقاوَم.

ولكم مني خالص العرفان والتقدير
ديمتري ستريشنيف

الفتاة اليزيدية

اليزيديـة طائفـة دينيـة منغلقة على نفسـها مرجعيتهـا المعتقدات الدينيـة الإيرانية القديمة. وفقا للتقاليـد اليزيدية، خلق اللّه العالم المرئي ووضعـه تحت تصرف الملاك الذي طرده من السـماء. وقد صـوره اليزيديون على شكل طاووس، ودعوه «الملك الطاووس» «من القاموس الموسوعي» .

يرن دائما على غير توقع، حتى عندما تكون على أهبة توقع أن يرن بين لحظة وأخرى.

وهـذا مثلـه مثـل حـال الرسـائل الـتي تنتظرهـا وتنتظـر، تنتظـر وتنتظر . ثم ما تلبث أن تنسى «ليوم واحد» أنك تنتظرها، وإذ هي.... تأتي!

أو كمـا هو الأمر عندما تسـتدعى إلى خدمة العلـم في الجيش: تخال أنهم سـيؤجلون ولو بعض الوقت اسـتدعاءك، لأن الخريف نزع عن الشـجر أوراقها، ولأن فرقة عسكرية ما من ليبيا أو من اليمن ربما تكون قد جاءت إلى رمال «كراسنوفودسـك» لتحسن من قدراتها القتالية والتكتيكية. تبـدأ تفكـر في ذلـك طوال الوقـت، ولا تكاد ننسـى حتـى يأتيك الخبر اللعين، فتفقد سـتة أشـهر من عمـرك بعيداً عـن الحياة السـوية. وهناك تسـمع عربـاً يتكلمون بعبارات روسـية ولكن بلكنـة عربية لا تميز بين الـ p الروسية والباء العربية..".

ـ ألو ! أيوه (أي الـ "ألو" ذاتها، ولكن باللهجة المصرية).

ـ مسـتر زا..... (مـع تهجيـة وبصعوبـة) مـور... مورسـي... هـل طلبـت موسكـو، حضرتك؟

ـ نعم ـ نعم! أنا هو السيد زامورتسيف. حضرتي طلبت!

كأن الزمان والمكان ينحشـران وينضغطان كاللبّاد في رأسك، في سماعـة، و يجـف الريق في فيك. كـم هناك من الأشـياء تَنمعِك، تحتك، تتضاغط في ذهنك، فتبدأ تشـرَحها وتقسَـمها لتحصل على هباءٍ ولا شيء

سوى الهباء!

رنين هاتف حزين من موسكو.

صوت يقول لك:

ـ ألو...

صوتها دائما كذلك، كأنها تعد نفسها بشيء ما، وتعدك بشيء ما. وفيه دائما قليل من الصبر... والأسى أيضا.

ـ مرحبا. هل عرفتِني؟

كلام مبتذل تقريبا كمثل قولك "مرحبا، ها أنا ذا". لعله كان من الضروري أن آتي بشيء جديد، شيء غير عادي، منذ زمن بعيد... شيء يجاري ويباري قواميس المستقبل.

ـ عرفتكَ. مرحبا.

ـ هل بإمكانكِ أن تتكلمي؟

عندما يكون زوجها "يو. ڤ". قريباً منها تجيب "بين بين".

ـ يمكنني.

ـ كيف حالكِ؟

ـ عادي.

ـ هل تلقيتِ رسائلي؟ كانت هناك اثنتان.

ـ نعم... يبدو كذلك.

كيف هي تقول "يبدو"؟ لا أفهم ما هذه الـ"يبدو"؟

ـ وأين هي رسائلكِ؟ منذ شهرين وأنا لم أتسلم منكِ شيئا.

ـ أعذرني. هكذا. جاء في خاطري ألا أكتب لك. لعلك ستقول: يا لها من وقِحَة!

ـ لربما كذلك.

ماذا يقول لها بعد؟ ليس بها من قحة بقدر ما بها من أنانية فارغة. كما لو أنها ستتعب إذا ما أرسلت له رسالة. كان سيتفهَم الأمر لو أنها كانت

openkandil.com

تعمل مثل باقي النساء السوفياتيات. ولكنها تعتمد على زوجها يو. ف. الذي يكدح ليل نهار من أجل إراحتها.

ـ ولماذا صوتك هكذا؟ هل حدث شيء ما؟ أمرضتِ؟

ـ نعم، على العموم... توعكت قليلاً.

ماذا بوسعه أن يقول لها بعد؟ ربما كان عليه أن يُعِدّ الكلمات على الورق مسبقاً... في ذهنه جملة من الصور، ولكن الكلمات لا تسعفه الآن. كما لو أنه يصف بالكلمات لوحة فنية أو زُخرُفاً. هكذا هي حياتك إذاً، يا صاح!

ـ أنتِ.. هناك.. تصبّري قليلاً. هل تسمعينني؟

ـ أي نعم...

كأن فراغاً حل في السمّاعة على غير العادة... فقد راح أحدهم يكذب وينافق من داخل السماعة ويتكلف التأسف قائلا: «انقطع الخط... يا لها من تقنية تعيسة!».

ولكن موسكو كانت لا تزال في مخيلته: منطقة ياسينيفو، جدران زرق وبيض، مصعد ذو ضجيج وقرقعة، باب مثقّب، مدخل إلى الشقة خانق للهواء، لا تنظر إلى أي نعال أخرى... «مرحبا، كيف حالك.. كم أنت مضحك... أنا أرتاح معك... اتّصلْ».

هذا كل شيء؟

كأن الأثير كله راح ينساب و يجلجل تحت أذنيه. وكأن كل شيء بات واضحاً، ولكنه لا يدري لماذا كان يجب أن يمضي قدما في إطلاق بعض الكلمات عبر هذا الأثير بصوت غير طبيعي ـ عن الطقس، وحتى عن الحرب في الخليج، وعن الصواريخ المحلقة في مكان ما فوق الرؤوس تقريبا ناحية تل أبيب. وليس إلا بعد دقيقة واحدة فقط عاد إلى رشده وقال بصوت خافت، كما تقول لأحد الأقارب الأبعدين وهو يتصل لإبلاغك أنه يوم الثلاثاء سيذهب في رحلة إلى كوكب المريخ :

ـ حسنا، ليلة سعيدة.

obeikandl.com

وردد الصدى من الطرف الآخر:

ـ ليلة سعيدة.

وهل ثمة ما هو أكثر سعادة!!! بعد تلك المكالمة؟

صمت في الطرف الآخر من الخط. إنه الآن الفراغ الفراغ حقاً.

وضع سماعة الهاتف ؛ لئلا يسمع صوت مشغّلة البارد والجاف: "دمشق! انتهيت من المكالمة؟"، واستمر يمور ويدور في رأسه حوار صامت: حوار أكثر واقعية من ذاك الذي دار عبر خط لخمس دقائق خلت. فكما لو أن الحديث بات الآن يدور عبر خط اتصال لا يُدرَك، محلق في سماء دمشق المبللة بمطر كانون الثاني الخفيف الذي يقطر في الخارج على شجر السنط. أو ربما انعكس عن القمر الشارد متخفياً في مكان ما أو عن نجم "المئزر" ("زيتا الدب الأكبر") أو نجمة «ألفا ذات الكرسي» ومن هناك هبط عبر هُلام السحب المبلدة سماء موسكو فوق منطقة «ياسينيفو» .

«لماذا لا تكتبين منذ ثلاثة أشهر..؟».

وأنت ألم تحزر لماذا؟»

«أيعني هذا نهاية الحكاية؟»

«أخشى أن يكون كذلك».

«بهذه السرعة..».

«أتعرف، لقد مللت من إرسال الرسائل على اسم شخص آخر. هل هو موجود فعلاً في الطبيعة «بوكاسيوك» هذا؟» وتنفس الصعداء.

علّقت نجمة «ألفا ذات الكرسي» الاتصال ؛ نظراً لعدم الحاجة إليه له. وفي المكان حيث كانت النقطة الحساسة المضبوطة وجهتها صوب موسكو، لم يكن ليبقى سوى بعض من لحن غير مسموع، شبيه بلحن التشيلّو بعض الشيء. ثم ما لبث أن لصقَ بالأسنان لحن آخر كحبة الحلوى المائعة. هي، بالطبع، أغنية إشبيليا «No te vayas» أي «لا ترحل». ابتسم ابتسامة ساخرة، ولكنه استمر يدندن لحن:

«Y el barco se hace pequenoQuando se aleja en el mar..».[1]

ثم سمع كيف انفتح الباب، فناداها متسائلاً:

ـ ميمي، هذا أنتِ؟ ـ مع أنه كان يدرك أصلاً أنها زوجته وقد عادت من جولة على المتاجر.

ميمي، وهي نفسها ڤيرا، وهي نفسها أيضا ڤيرونيكا، دخلت الباب وهي تحمل في يدها كيس أبيض من البلاستيك يعود لمحلات "Reddies". رأى عينين هادئتين متواريتين تحت شعر مسرّح رُشّ عليه لكُ الشعرِ الأسودَ، فداخلته فكرة أن عليه أن يقول شيئا ما.

ـ كيف كانت جولتك؟ هل كانت موفقة؟

ـ لا بأس، ـ أجابت زوجته بشيء من التحفظ.

يا لها من امرأة ذكية حقاً، فهي لن تفعل أموراً يخالطها غباء: كأن تبدأ مثلاً قصة غرامية وتسافر إلى سوريا.

أخذت الكيس الأبيض إلى المطبخ، ومن هناك نادته:

ـ أندريه، تعال، هيّا ساعدني.

نهض صوبها وراح يفرغ الكيس ويودع ما في داخله بالثلاجة.

ـ لقد اشتريت لك وشاحاً، لن تخرج إلى الشارع إلا والوشاح فوق عنقك، فاليومَ صقيع. كادت بركة الماء على شرفتنا أن تتجمد.

اقترب منها وضم جسدها إلى جسده، وكأنه مصدر سحر ينهل منه القدرة على العيش.

ـ ميمي، هل تحبينني؟

ـ أوه، دعني، اخترتَ اللحظة غير المناسبة، أنا لم أحضرَ بعدُ الغداء.

١ «وها هو القارب أبحر || فأصبح أصغر فأصغر»

فابتسم ابتسامة الممتعض معتقداً أنه عثر أخيراً على مبرر لكل شيء قد يقوم به، على ذريعة ليظهر بمظهر من طُعن في رجولته.

ـ ميمي، أنا أحبك.

راح يستمع إلى ذاته، إلى الصوت الذي في داخله، ليجد أنه "حقا يحبها".

ـ هل سمعتَ ما قلته لك عن الوشاح؟ أنت لم تعد في سن تسمح لك بالاستغناء عنه، أفهمت؟

ـ نعم، بتُّ في عمر... العمر مضى ـ قال هذا بشيء من الأسى.

ولم يع لماذا اَطرب قلبه فجأة عندما رن جرس. ولكنه مكث في مكانه. فلم يعد يسترعي اهتمامه.

ـ يطلبونك أنت، ـ قالت له فيرونيكا ـ هذا صاحبك... بترونيا سوسلو باروف.

ـ أريد أن أعرف.. لماذا لم يكن يعجبك يوماً سوسلو باروف هذا؟ ـ سألها بهمس مثير، وهو يشد على الميكروفون بيده.

ـ وهل أنا قلت لك إنه لا يعجبني؟

مرة أخرى تقبّل أندريه على مضض حقيقة أن زوجته كانت أكثر ذكاء منه، وأخذ سماعة . ـ ألو، كيف حالك؟

فجأة بدا هذا الصوت الصفيق وكأنه فسحة أمل في عيش ضاق، مسحة من لون زاهٍ في عالم رمادي لا خير يرتجى منه.

ـ أأقول لكَ الحقيقة أم أكذب عليك؟

ـ فهمت، كفى. ولكن لا داعي لليأس. أتعلم ماذا يُكتب الآن في الصحف؟ «أخصائي ذو خبرة واسعة في التواصل الحميم يقترح علاجاً لمتعاطي المخدرات بدون الخروج من المنزل».

ـ لا ـ قال أندريه بسأم. ـ لا داعي أن يتم ذلك في المنزل.

ـ واضح. ولكني أشعر من نبرة صوتك أن المرء لا يمكن أن يعيش في حالة مثل حالتك أنت. إنه وضع محفوف بعواقب وخيمة. ولذلك أقترح عليك خياراً... خيار البانيو، الحمام الشعبي.

ـ أي بانيو؟ أمن جديد بانيو «محي الدين»؟

ـ كما يحلو لكم، يا صاحب الجلالة. يمكننا أن نذهب إلى حمامات البزورية. يقولون إنها جميلة جدا وممتعة، ولكن حتى الآن من دوننا وإياك.

فوجئ أندريه زامورتسيف ودهش حين وجد أنه نفث من أنفه دفعة من ضحك مكتوم. ومرة أخرى أضحت الحياة مفعمة بأصوات وببعض من أمل مجنون بأن يكون لها معنى ما. ربما كان جيداً ـ في بعض الأحيان – أن يصادف المرء على وجه هذه الأرض مدمناً على تناول الكحول مثل بترونيا، ولكنه غير مؤذ البتة. كما أنه لأمر جيد أن تكون هناك حمامات شعبية.

ـ أقنعتني. ليكن لنا اليوم وقت لطيف نقضيه معاً هناك.

السماء فاتحة الزرقة، فسيحة الأرجاء فوق دمشق، وقطع السحب الرمادية فيها كالطين المتناثر فوق بلاط نظيف. هي المناظر الطبيعية الأخاذة في هذا البلد تهبط على القلب هبوط الموسيقى في بعض الأحيان. واليوم، أيضا، يبدو الأمر وكأن شيئا ما مأساوياً يُسمع له حفيف في القبة الزرقاء الصافية والمتعالية عكرت صفوها بقع رمادية خفيفة. وعلى الرغم من أن هذا لم تكن له على الأرجح أية صلة بالزرقة السماوية، بل إنها النفس كانت تتصاعد فيها ألحانُ سيمفونية تحمل طابع الإشفاق على الذات. ولكن كان أمراً لطيفا الاستماع إلى تلك الموسيقى الخافتة تحت قبة هذه القاعة الضخمة على وقع هدير سيارة الـ "فولفو" المغطّي على النوتات النشاز.

هو سار خصيصاً عبر حي المزة القديم. فكل هذه المناطق الشعبية الكالحة المظهر كانت تبدو له بمثابة شيفرة سرية لحياة غريبة وغير مفهومة تمام الفهم. وكل بيت هنا في هذه الكتلة المتلاصقة بقي، بطريقة أو بأخرى، متميزا عن غيره وكأنه يكاد لا يضبط نفسه عن التفوه بشيء حميم ومثير. أما سيارة الـ "فولفو" فراحت تنهب الطرقات الملأى بالبرك بعجلاتها الصاخبة متجهة نحو البنايات المتعددة الطوابق الأشبه بالعلب أو الصناديق، تلك التي يبرز من خلالها منحدر جبل قاسيون. واختفت الشمس في قطعة من الشاش متسخة وصار لون الجبل كدراً كما لو أن قوة خارقة من عالم الغيب راحت تنظر باستنكار إلى كل هذا المشهد. غير أن أندريه ما كان ليولي هذا التحذير اهتماما.

ها نحن في المزة القديمة. المسجد هنا مثير فعلاً للاهتمام ولا يترك المرء غير مكترث. فمئذنته ذات القبعة الحادة الرأس تشبه شخصيات حكاية "ساحر المدينة الزمرّدية"[٢]...

ثم نهبط عبر جسر تشرين و نجتاز بولفار المالكي ذا البنايات والمحالّ الفاخرة، الشبيه لسبب ما (خاصة في المساء) بطاولة كبيرة وضعت عليها سفرة العيد، ثم نحاذي قناة ضيقة يشرئب فوقها الصفصاف (سماها المواطنون السوفيات المقيمين دمشق فيما بينهم بـ"كورنيش ياوزا" تيمناً بمثيلها على رافد من روافد نهر موسكو)، ونهبط إلى أسفل أيضا أكثر فأكثر على طول شبكة معدنية تحيط بحديقة من الزهور، إلى أن يظهر سياج طويل من ألواح معدنية، ويأتي بَعده في العمق مبنى متوازي المستطيلات ذو شكل "كئيب" (هذا النعت ينقل بدقة في الحقيقة الانطباع المعماري!) هو مبنى المكاتب الإدارية للسفارة السوفياتية ("الأهراءات" في لغة المواطنين السوفيات المحليين).

كان بترونيا واقفاً عند البوابة والريح تلفح وجهه. فدخل صالون السيارة ، وأومأ بصوت كأنه تجمد من شدة البرد :

ـ الآن عبر النفق، ثم تابع قدماً لا يمين ولا يسار.

٢ حكاية كتبها القاصّ الروسي ألكسندر فولكوف عام ١٩٣٩ متأثراً بحكاية لفرانك باوم هي «The Wonderful Wizard of Oz»

كان أندريه يخشى أن يذوب الجليد عن لسان سوسلوفاروف في صالون سيارة الـ "فولفو" الدافئة فيبدأ يتحرك أكثر من اللزوم. لكن بترونيا بقي أصلاً صامتاً على امتعاض، فأدرك أندريه فجأة في اندهاش أن من تجمعك بهم الصحبة في ارتياد البانيو قد يكونون في بعض الأحيان لطفاء ومتفهمين.

فطوال الطريق أبدى بترونيا لطفاً غير متوقع، ولم ينطق إلا مرة واحدة قال فيها :

ـ عرّج ناحية جامع الأمويين، وهناك يمكننا أن نكمل طريقنا سيراً على الأقدام.

اندسّت سيارة الـ "فولفو" الزيتية اللون تحت حاجز الطريق المعدني بعد رفعه قليلاً وانزلقت مثل سمكة طويلة عبر البوابة القديمة.

وعندما دارت بنا السيارة حول القلعة وتباطئت في "عجقة" المدينة القديمة وصخبها، حيث ازدحمت سيارات الشحن الصغيرة لدى الاقتراب من السوق، وراح يسعى جيئة وذهاباً بائعو العربات، إذ بدرّاج يمر فجأة مسرعاً كالسهم بتهور من أمام السيارة، فسأل بترونيا:

ـ أندروشا[٣]، وهل ورد ذكر دمشق في الكتاب المقدس؟

ـ بالطبع.

ـ وكم مرة؟

ـ لا أعرف، ربما عشر مرات.

ـ يجب علي أن أقرأه. من أيام طوفان نوح وحتى يومنا هذا.

ـ يقال طُوفان نوح.

ـ إي واللّه، العلمُ نورٌ!!!!... وبالمناسبة، أمس اكتشفت أمراً جديداً... أن الكلدان، كما تبين لي، كانوا أمة عريقة.

ـ وماذا في ذلك؟

٣ أي «أندريه» بصيغة التصغير للتحبب .

ـ كل حياتي كنت أعتقد أنهم فقط نُدل في المطاعم!

نظر زامورتسيف إلى راكب السيارة هذا نظرة تساؤل مريب

ـ هل تعتقد أنك بهذا تسلّيني؟

إلا أن وجه بترونيا (الوجه "الناشف" بحسب تصنيف أم الحكمة ميمي) نادراً ما عبر عن شيء سوى الاستسلام للقدر، ولم يتسنّ إتهامه بأن لديه قدر من مشاعر الشفقة.

ـ عن أية تسلية تتحدث؟! إنها الحقيقة بعينها. من الأفضل لك أن لا تنظر إلي، بل إلى حيث يلزم. كدت أدهس بائع العتقيّ.

لم تكن هناك تقريبا سيارات في الساحة. عادة ما تكون هنا سيارات ذات أرقام بيضاء وزرقاء يملكها سياح ودبلوماسيون، ولكن الطقس الآن ليس مناسباً. فأعمدة جوبيتر المحاطة بالمقاعد الطويلة صار لونها رمادياً في غياب أشعة الشمس. ولعل من الصواب أن لا يكون أحد هنا، فاليوم ليس بيوم سياحة البتة.

خرج بترونيا من سيارة الـ "فولفو" وقال بإعتزاز مشيراً بإصبعه إلى الأعمدة الحجرية الرومانية التي تحاول أن تحافظ على شموخها وتطاولها بين هذا الجمع الدافق في أرجاء السوق:

ـ لقد كان المعبد أوسع عند أولئك الأقدمين!

ليس واضحاً لماذا هذا الاهتمام من جانبه لكونه كان أوسع عند "أولئك". وقد تركا السيارة، وسارا في الممر حيث الريح والمطر الخفيف يسرحان على الجدران الحجرية الخشنة الضخمة. هذه الحجارة التي كانت قد نُحتت على شرف الإله الوثني "هَدَد" الذي كان الآراميون يعبدونه، باتت فيما بعد تمجد الإله الروماني "جوبيتر"، ثم قدسها البيزنطيون، وها هي الآن تخفي خلفها الجامع الأموي الفسيح الأرجاء كمحطة قطار. ليس ثمة ما يكفي هنا ـ بالتأكيد ـ من تماثيل الحيوانات الخرافية كما في كاتدرائية نوتردام في باريس. وأندريه يعتقد أنها كانت ستزين المكان.

قال بترونيا ناظراً إلى الجسم الحجري المشرئب في الأعالي وفي رأسه فكرة ما:

ـ أتعلم، يا أندريه. أنني قرأت أن اللّه هو كائن أتى إلينا من الفضاء الكوني، ذلك أن المآذن تبنى تكريماً له في شكل صواريخ.

ـ أوه، كفاك اعتقاداً بمثل هذه الحماقات!

ـ ولكنها كذبة جميلة، أليس كذلك؟ لماذا لا نؤمن بها ما دامت جميلة؟ وإلا لن يبقى لنا سوى الإيمان بقانون أوم وأشباهه من قوانين العلوم البحتة.

فقال أندريه:

ـ كفاك ثرثرة وهُراء. ربما قد أدرك، وإن لم يعترف لنفسه بذلك، أن صدق مشاعره تجاه بترونيا مرده أيضاً إلى قدرة هذا على ترك الزعامة الفكرية لشريكه، ولكن على التحدث مع ذلك في مواضيع متنوعة وعديدة.

ـ وماذا قلتُ، يا ترى، من خارج الموضوع، يا أندروشا؟ في الماضي كنتُ مثل كل الشعب السوفييتي مولعاً بالشيوعية، والآن بتّ مولعاً بالزهور والأطباق الطائرة!

ها قد بدأت تتصاعد الروائح شبه المخدرة لسوق البزورية، سوق التوابل والأفاوية حيث الأكشاك كأنها من أيام "ألف ليلة وليلة"، تسحر الأوروبي البدائي ذا المطبخ الخالي من التوابل الحرّيفة، فيمضي هنا حياته بين الملح والفلفل، وربما زاد عليهما أيضا القرنفل والقرفة. هكذا سوف يموت "الخواجة" الأوروبي المحروم من لذةَ الأطايب من دون أن يتذوق السمّاق الحامض ذا اللون الأحمر البني أو البهارات الذهبية اللون. هذا الذي لا يعرف لماذا سعر الزعفران الأصفر ٥٠٠ ليرة فقط ، ولماذا الزعفران الفارسي، والذي هو نفسه تقريبا، ولكن ذو اللون الداكن بشدة ، سعره أكثر من عشرة آلاف ليرة. مسكين! إنه لا يعرف في خلال حياته كلها ما الحِلتيت؛ ولا يحرق فمَه طعمُ الزنجبيل، ولا يسبّح الحجر الأحمر الذي يطرد دخانه

الشيطان، ولا يريح رأسه المترع بأباطيل الحياة المعاصرة بشيء من عطر القهوة المعَدَّة من البن المحروق مع الهال. يكفي أن تميل بنظرك نحو شيء منها حتى تُلتقط الإشارة على الفور، ويدعوك صوت البائع بجميع لغات الأرض اللازمة:

"مسيو، بونجور!"

"مستر، هالو!"

"توفاريش، كاك ديلا؟"[٤]...

وها هي متاجر الحلوى تتألق مثل مداخل المسارح الصغيرة، والبانيو أيضا، كمثل قطعة الحلوى: شرائح برتقال ملونة بدلا من النوافذ، وخلفها أوراق منحوتة لنبات قريب من الفيكس وأوراق زجاجية تعود لثريا. ولكم كان كل شيء رائعاً، متنوعاً وسهلاً، لو لم يكن العالم منذ أمد بعيد منقسماً إلى عالمين اثنين: عالم كان هنا، مثلما كان الأمر دائماً، مع زوجته ميمي وبترونيا والحمَامات، ومع "أكواريوم" من أعين الأقربين والأبعدين، ومع جوقة الأفواه وجملة المصافحات ورائحة النعناع تارة، وتارة أخرى الويسكي أو السمك، أو معجون الأسنان، أو الزيت المحترق، أو الملابس، أو أبخرة البنزين. وعالم آخر هناك حيث "هي"، حيث «بها» أمر ما، كان يُستشَف غموضاً عبر السماء والسطوح والمآذن ومراوح النخيل وعناقيد السلع المعلقة والكلام «المغلوط»، والشعور الكثيفة والطويلة، والبصقات، وعبر الضحك يخدش الجو خدشاً. هذا العالم الثاني أبحر كقنديل بحر بعيداً وقد غلفته أمواه المسافات، وإذا به فجأة يكشف النقاب عن نفسه قريباً منه كوهجٍ مزعج ومألوف.

قال أندريه في نفسه: «بترونيا، أرجِعني».

فأرجعه بترونيا:

ـ أندريه، ما هذه التماسيح التي تباع مجففة، لقد رأيتها هناك في الزاوية؟

ـ إنها السقنقور، سحليّة الماء.

٤ يا رفيق، كيف حالك؟ (بالروسية)

- لأجل ماذا؟ لكي تسمم حماتك؟
- لتقوية الباه عند الذكور: تسحق وتؤكل مع العسل.
- ما أصبت الهدف... أنا خجول مع النساء، مثل صنبور ماء.

وهكذا، كانت لأندريه قبل أن يدخل الحمام فرصة أخرى ليُعجَب بدقة الملاحظة عند بترونيا، وفي هذه الحالة، ملاحظته هو نفسه.

ما أعجب الحمامات! الشخص العاري ليس به العيب الرئيسي لجميع بني البشر، عيب حياة التململ و"العجقة". فهو يسحب من جيوبه سمات ما يسمى بالحضارة: تذكرة الهوية، المفاتيح، النقود، والجد المهذب يخفيها عادة في كيس ويدخلها في جارور يزلجه، وينزع عنه قشرة اللباس، وخادم البانيو المرتدي سترة سوداء وقميصاً بلون ورق الشجر الطري في ريعان ربيعه يرمي عليها غطاء باهتاً. فالحمامات يجب أن يسود فيها وهمُ المساواة بين الجميع. وهنا في دوائر البخار يمتع نفسه ويدللها صبي ماكر اسمه "الحرية"، يقرَص جسده ويدلكه، يضحك مستسلماً لسجيته، يشد النفس المعاندة المعتلة بالتهاب المفاصل إلى الركض معاً وهو يلوح بين الفينة والفينة بعجزه الوردي الطري. في الحمامات كانت تتدبر سيدات القوم الرومانيات شؤونهن. وفي الحمامات كانت تُقتَل السلاطين.

تذكر أندريه فجأة أنها "هي" أيضا كانت ذات حين مدمنة على ارتياد الحمام الشعبي. لا الحمامات العربية طبعاً. بل حماماتُ السونا الرخيصة في موسكو التي تكون قد ابتنتها لنفسها مافيا تجارية صغيرة. وكانت وهي تتكئ على كتفه تستذكر أحياناً على حين غرة هذا المكان الرائع، وكانت في صلب هذه الذكريات زجاجات النبيذ وقطع اللحم المشوي على النار، وكان في صلبها أيضاً حتى أحدهم ويسمى فولوديا، هذا الذي حاول أن ينزع عنها منشفتها... كانت تتحدث إلى أندريه وتلقي بين الحين والحين نظرة عليه، وهو ما كان يعني على الأرجح: شيء ممتع، أليس كذلك؟ بينما راح هو يبتسم ابتسامة فوقية، ويسعى سعياً محموماً لمعرفة ما إذا كانت عشيقته بسيطة بساطة القديسين أم أنها فاجرة فجوراً لا رجعة فيه إلى جادة الصواب؟ لكن هذه الوصمة على الجدار... وصمة الصورة التي حفظها عن ظهر قلب: صورة صاحب الشاربين المتأبيين

يـو. ف.، ونظرتـه المقيّمة أرجاء المـكان كأنه المالك المتجـبر، وبالقرب من هـذا تُرى «هـي» في طرحة العروس، هي التي في تلـك اللحظة تتكئ على يـده من دون الطرحة، بل من دون الباقي أيضـا. آنذاك بدأت صورة العلاقة بينهما تتشـوش وتغرق في فلسفة وضيعة، وكان من الحكمة بمكان الآن أن يحلقا معاً بعيداً مع دورة الأرض لا يلويان على شيء ولا يفكران في شيء في محاولة منهما ليعيشا أقل ما أمكن من المعاناة...

همس بترونيا في أذني بعد أن تعرى ولف جسده بمنشفة مخططة:

ـ أنا أمس أدخلت على نمط عيشي شيئا من التنوع، لذلك سيكون من الجيد إرسال أحد الصبيان لشراء بيرة.

ـ هل بك مس من جنون؟ أية بيرة؟ كأنك دخلت كنيسة ورحت تغازل الصبايـا بنظراتـك! يمكـن أن نقول إن الحمام الشـعبي معقل الإسـلام، والحمام الشـعبي في وسط السوق هو هذا المعقل بامتياز! ـ ثم أضاف أندريه فجأة عفو الخاطر:

ـ هنا لست في بانيو شعبي ما في موسكو لا يعرف ما العيب وما الحرام!

أجاب بترونيا متراجعاً عن طلبه :

ـ كنت أمزحُ... جاءتني الفكرة على حين غرة .

في القاعـة الأولى، المسـتديرة والمقوسـة السـقف تجمع هـواة الحمام الشعبي شـيوخاً وأطفالاً، وكانت تتداعى من صوبهم جلبة لا تطاق. أجل، نبـلاء وسـلاطين... أما في الحمـام التالي، حيث السـخونة أشـد، فكانت المناشـف المخططة، والحمـد للّه، أقل. سـار أندريه وبترونيـا وهما ينقران على الأرض بنعالهما الخشبية، نحو ـ اللّه يعلم ماذا يمكن أن نسميها – نحو ما يشبه المغسـلة، وراحا يغرفان بطاسات حديدية بعض الماء العكر المتبقي من بعد أحد الأشخاص. قال بترونيا:

ـ ومـا بهـم لا يجعلون عنـد كل حفرة من هـذه الحفر مصرفـاً عادياً للمـاء المبتـذل؟ أنـا أفهم أن لا يتم فعل ذلك في العصور الوسـطى بسـبب من التعقيدات التكنولوجية وغيرها. ولكن الآن! الآن تغيرت الأمور!

ـ لأن هذا لن يكون عندئذ حماماً شعبياً عربياً.

أدرك بترونيا أنه خسر الجولة هذه المرة، فحرك عينيه بسرعة يمنة ويسرة في غمز ولمز، وراح يحاول تلطيف آثار الهزيمة متمتماً:

ـ هه! اخترعوا لأنفسهم عملاً لا فائدة ترجى منه.

كان البخار يتصاعد موجات موجات من كوة ضيقة ليترسب على ترابيع غطت الأرض وكأنها أشبعت بتكاثف القطر كالدموع. ذهب بترونيا إلى هناك ؛ ليتوقف قليلاً ويبتلّ كما يجب، ثم عاد وقال:

ـ مهما يقال، لا تزال غرفة البخار أفضل عندنا.

ومع ذلك، أزاح بشئ من الخجل طرف المنشفة، وكمثل عربي أصيل راح يطبطب الأجزاء الحساسة من جسده بطاسة الماء. وقال وهو يفعل هذا:

ـ بالطبع، الحمام عربي، وأنا أفهم هذا، ولكن أين السيوف، والطرابيش، واليَطقانات؟ أين سيجارة الحشيشة تدخّنها وأنت في العمامة.. ثم أضاف وهو يصب على شعره الشامبو: ـ لماذا يتم السماح هنا بهذه الكيمياء الضارة بالبيئة ذات الاسم الفرنسي؟ كان ينبغي بدلا من ذلك أن يكون هناك تدليك مثلاً، أن يقفز الزنجي علي مثل القرد يدلّكني... لقد فقد الشرق عاداته المجيدة.. إنه بات يهلك مثلما هلكنا نحن... دهش أندريه وقد فوجئ حقا، وهو يقف تعلو جسمه الرغوة، وقال وعينيه مغمضتين وكأن الحديث يجري على :

ـ لماذا تقول إننا هلكنا؟

ـ أنا لا أقصد هذا بالمعنى الحرفي، يا صديقي. لقد هلكنا من حيث طباعنا. هلكنا كفكرة. الأمر واضح وضوح عين الشمس.

ـ أنت تخيفني، يا بترونيا.

ـ لا تبالغ. هذا الأمر لا يعنيك كثيراً، فأنت أقرب إلى جيل مسابقات الجمال التلفزيونية... هذا على الرغم من أن الطبيعة البشرية لا يُعرف لها مآل. اليوم سيسألونك: ماذا تريد في هذه الدنيا أكثر من أي شيء آخر ؟

وستقول لهم: أن يجيء بي حُطام سفينة مع تلك "القمَورة" إلى جزيرة غير مأهولة. وبعد أيام قليلة سيتضح لك أن حلمك الأكبر هو العثور في تلك الجزيرة إياها على مقص أظافر تقص به أظافر رجليك.

قال أندريه معجباً:

ـ أصغ! ألا إنك حقا تصلح لأن تكون فيلسوفاً من نطاسي الفلاسفة. فدوغماتي داهية مثلك هو دائما في رواج.

ولدهشته، قال سوسلوباروف بجدية تامة:

ـ لقد فكرت في ذلك الأمر. ولكن، كما ترى، تبين أن كل شيء سبق أن اخترعوه قبلي، لألفي سنة خلت. لقد كان لديهم حينذاك حيز للتفكير أكثر اتساعا. لو عشت قبل ألفي سنة مثلا، لكنت حسب ما أعتقد واحداً منهم.

ـ كما يقول الشاعر: "ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!"

ـ أترى، حتى هذا البيت اخترعوه قبلي.

لسان سوسلوباروف الذي رق من رطوبة الحمام البخاري راح يطلق الثرثرة تلو الثرثرة مثيراً شفقته حتى على نفسه:

ـ من ذا الذي في عصرنا هذا بحاجة إلى فلاسفة وأنبياء؟ فهل ستصدق مثلاً أحدهم إذا ما جاءك غداً حاملاً براءة اختراع بأنه بالفطرة يحسن التنبؤ بما سيحصل بعد مائة سنة قادمة، وقال لك، على سبيل المثال، إنك سوف تقوم بعد سنة بتنظيف حذاء إمبراطور ما في القطب الشمالي؟ من ذا الذي سيصدقه؟.. هيا بنا، يا رجل، نأخذ استراحة قصيرة من الأحلام المرّة لأوروبي على سجاد رثّ في شرق ذاهب إلى هلاك ...

ها قد أتى وقت الفعل الأكثر متعة من ضمن الطقوس الخاصة بالحمامات. فقد وقف ثلاثة من خدم الحمام ينتظرون في تململ، متى سيمكنهم أن يبدلوا المنشفة المبللة على أفخاذ الزوار بمنشفة جديدة جافة، وبحيث لا يشعر الزبون، ولو للحظة، أنه بات عارياً، فيرموا المنشفة

الرطبة بصخب في يدي صبي، ويسحبوا من عند كوع ساعده منشفة أخرى جافة يلفون بها كتفي المستجِمَ .

همهم بترونيا بتذمر عندما راحوا يلفون رأسه بمنشفة زرقاء:

ـ لقد حوّلونا إلى ما يشبه القراصنة.

فاعترضه أندريه بتمهل قائلا :

ـ صرنا نشبه إلى حد كبير الأطفال حديثي الولادة .

بعد ذلك انتقلنا إلى القاعة ، حيث ذاك السجاد الرثّ جدا، والذي تحدث عنه بترونيا وهو قد فُرش على المنصة. تصعد إليها يعتريك الشعور بالتعب والعظمة، ومرة أخرى يظهر ذوو القمصان الخضر تحت سترة سوداء ؛ ليساعدوك على الجلوس على السرير ، ويضعوا بمهارة قربك مائدة صغيرة ـ حقيرة ككل ملذات هذه الحياة. غير أنهم قبل ذلك يلفون جسمك ببطّانية تقتل فيك الرغبة ، ليس فقط في التنقل والحركة، بل أيضا في التفكير، لأن الديباج الثقيل سبق أن امتص ما يكفي من حلوى راحة الحلقوم ومن أحلام الشرق العاجزة الخلَب، ومن الكثير من الكفر غير الممكن تصديقه بقوانين الوجود الإنساني... لا، يا عزيزي بترونيا، الشرق لا يزال حيا يرزق. أنت حكيم، يا بترونيا، ولكن حكمتك أوروبية، أو تقريبا أوروبية، تتذكر بقوة حقيقة كروية الأرض ، ودوران الإلكترونات. حكمتك تنقسم إلى فصول، وهي تعرف جيدا أن جزَيء السكر، مثل جزيء الصفراء، يتكون من ذرات الكربون والهيدروجين نفسها. وبطبيعة الحال، يا بترونيا، أنت على حق في أنه من الصعب أن نرى عمامة حقيقية الآن، وأن مرشّات الحديد في غرف الاستحمام العائدة للحمام الشعبي العربي ، هي مجرد سمة مثيرة للاشمئزاز من سمات قرننا ، قرن التقنيات الحديثة. ولكنك قررت باكراً دفن الشرق بما فيه من روح متعددة الطبقات متقلبة الأهواء، حيث يتعايش من دون تناقضات التوق إلى رغد العيش ، وسعة النعمة ، والشغف المعذِّب بالملذات الغريزية الوضيعة، وحيث تختبئ كالثعبان تحت قشور الخرافات والأساطير في

شأن الحرية رغبة التمتع بالعبودية، وحيث الخنوع الوجِل محشو بلامبالاة قاتلة بالمسار والمصير. ولكن الروح هي الأهم، يا عزيزي بترونيا، وليست السيوف والحريم، الروح لا تقبل التدمير، مثل تلك التي تختبئ في جسدك، والتي لن أحاول وصفها ؛ لأنها مشابهة جدا لروحي أنا أيضاً...

تقترب منك الشوارب المعقوفة لذوي البزّات السود ويعدك أصحابها همساً تقريباً الوعد اللطيف بالجنة :

ـ أتريد شاياً؟

الشاي.. أجل، أريد الشاي وبأقصى السرعة، ذلك أن فضاء العزلة البارد يعود إلى التسرب مجدداً من فوق، من تحت القبة. ووجده كوب الشاي، ونافورة الماء المتدفقة الخرّارة، وزخارف الذهب "المشربكة" عمداً على خلفية سوداء من شأنها أن تحمي هذا البيت الشرقي المصنوع من الكرتون والشبيه بلعبة ملونة بكل الألوان وجميع من فيه، بدءاً بالعالم الكبير الماكر، الكثير التطلب أيضا، كمعلم فن الخط والكتابة الجميلة.

هنا اللوحة الشعبية الرخيصة لعنترة بن شداد ذي العينين المستديرتين وهو راكب حصاناً أسود ينطلق بعناد في رمال الصحراء ذات اللون الضارب إلى الخضرة. أثارت اللوحة اهتمام بترونيا فقال:

ـ من هذا، يا أندروشا؟

ـ إنه عنترة بن شداد، إيليا مورومتس العرب، عاش في اليمن.

ـ اليمن، إنها بلد ناء، أليس كذلك؟

ـ ناء كفاية.

ـ ولماذا بطلهم ذاك البعيد من هنا كل هذا البعد مرسوم على جدار حمام سوري ؟

ـ لأن الخلافة الإسلامية كانت تشمل هذه المناطق .

ـ آ... مثل ما عندنا. واضح. وماذا بعد ذلك ؟

ـ انهارت الخلافة .

ـ مفهوم. كما انهارت وتفككت فرقة "البيتلز".

وهنا لوحة الأميرة عبلة، حبيبة عنترة ذات العينين الحزينتين على صهوة حصان أحمر، معلقة على حائط آخر. سيكون عليهما أن يمتطيا صهوتي حصانيهما دائما وأبداً ، فيتبع أحدهما الآخر...

حين اقترب مرة أخرى ذو السترة السوداء، سأله أندريه :

ـ هذه اللوحة عندكم هي لوحة أصلية للتيناوي أم هي نسخة عنها؟

ـ أصلية، مسيو. لأبو صبحي. أصلية.

هكذا. عاش الرجل في الفاقة، مارس الرسم طوال حياته، وقد علا الغبار لوحاته المودعة على "التتختة"، وما إن توفي حتى صار رساماً كلاسيكياً لا يُعلى عليه. البشرية في كل مكان تأتي بأشخاص يقدمون أعمالا تتسم بالارتجال ولا تنم عن كبير موهبة واحتراف. ليتك تعرف فقط، عزيزي بترونيا، كم يبلغ ثمن مثل هذه اللوحات العادية الآن.

غير أن دماغ بترونيا كان قد بدأ يجول في غير مكان.

ـ بعد هذا الحمام، أندروشا، انخفض ضغط البيرة في الجسم.
كان ذلك صورة معبرة عن براعته غير العادية.
ـ ليست البيرة هي ما يدور في خلدي الآن، يا بترونيا.
ـ بادئ ذي بدء ، يبدو الأمر دائما كذلك. إرم من رأسك دودة الشك!

قالت العرب : "في الصيف ضيعت اللبن"، يا عزيزي بترونيا! الشاي شربناه، وخيوط ماء النافورة المثمنة الأضلاع المحاطة بأواني الزهور تهتز أمام عيني عازفة أنغاماً أندلسية، وهنا نافورة أخرى مختلفة تمام الاختلاف عن تلك، بدون أواني زهور، وخلفها تنبثق نافذة كبيرة في قفص زجاجي على طريقة مونبارناس، بل إن بقية زاوية الشارع المسمى شارع "النوفرة" ذات الفانوس الغريب، الموباسَاني، هي نسخة مقلدة بل ممسوخة عن شارع باريسي، علماً أن صالح أحمد الرباط يخرج من مقهاه وهو فقط مقلماً تحت المطر، لا على الطريقة الباريسية، ليلبي طلبات ضيوفه الأكثر استحقاقا،

وأن أبا محمود، وربما حتى أبا علي شاهين، إن لم يكونا ضمن عالم الأموات، هم آخر الحكواتية رواة القصص في دمشق، الذين يجلسون في مكان مشرف يطل على الجميع، ويمطّون في إخبار قصةٍ مغناة لا تنتهي فصولاً، قصة عن الفعال التي لا نهاية لها قام بها عنترة نفسه ومثله البطل الشعبي الكبير أبو زيد الهلالي، أي يخبرون الجمهور كيف كان هذان البطلان يقتلعان الممالك من جذورها، ويمزقان بنبالهما أجساد الأسود، ويخطفان برموشهما الحسناوات. وقلّ من يستمع إليهم، هؤلاء الحكواتية، ولكن صوتهم ينزلق على الأوجه كوهج الشمس المضيئة، أوجه الرجال حصراً، فقط الرجال؛ لأنه لا أحد هنا غير الرجال، بطبيعة الحال...

قال بترونيا فيما كان يجلس في شرنقته كمومياء فرعونية، وفي صوته مكر صوت الكلارنيت:

ـ أنا أعرف ما تفكر به. لا تظننَ أن أفكارك هي بالنسبة لي من أسرار قصر مدريد الخفيّة. تريد المزيد من أخذي إلى حجارة التاريخ الناطقة وإلى الأمكنة الأخاذة في حكايات الشرق العريق!..

وراح بترونيا يترنم همساً بعد ثانية متجهاً صوب أندريه من ناحية أخرى فيقول:

ـ أنت في اللغات ملك، وهذا بالنسبة لي، أنا ابن العامة، بل كل فقه اللغة هذا، لا يعني شيئا... قل لي بربك، كم من اللغات تعرف، يا صديقي أندريه؟

ثم تنهد، وأرتسمت علامات الغضب على محيّاه:

ـ نيقةً أنت لا يعجبك العجب، مثل بينوكيو. أما أنا، فأدخلت أمس، بالمناسبة،...

لم يتحمل أندريه وراح يعدد مستبقاً ما كان يريد بترونيا أن يقوله:

ـ أعرف، أعرف كل شيء! أدخلت في الحياة قليلا من التنوع، طرحت القنينة التي تسع أقل من ليتر من الشراب وأودعت معدتك نصف برطمان يسع خمسة ليترات...

ـ أودعتها بعناية وانتباه .

قال بترونيا هذا وتنهد مصححاً الخيار الأخير، ومع تنهده انهار عالم الكرتون المريح جدا والهنيّ، ولم يعد عنترة راكباً الخيل، فتجمد في اللوحة الملونة ذات اليدين المرسومتين وكأنهما أضيفتا خطأً. وانكمشت الثريا والأواني البلاستيكية ؛إذ أدركت فجأة بؤسها، وانكسرت الزاوية عند النافورة، وخفقت قدما شخص ماض بالقرب منه عاكستين بقعاً حمراء لمسامير جلدية من خلال ثقوب في الصنادل.

ـ أنت شخص ميؤوس منه، يا بترونيا.

فكرر الكلمة مبتسما ابتسامة ماكرة:

ـ إذاً أنا.. ميؤوس مني... انظر، يا أندريه، كيف وضعت عليَّ ختماً بالشمع الأحمر!!! ذلك هو كلام طائر طليق مثلك، على غير غرار من عندنا في السفارة، إذ تعيش خارج الجدار الحامي والحجاب الحاجز. أما أنا فأجلس وأفكر: لا سمح الله، أن يقرر صدام غدا إطلاق صاروخ في اتجاهنا. أو إذا أطلق صاروخاً في اتجاه اليهود ولم يصل، فيسقط على رؤوسنا هنا. أتعرف لماذا أنا أكثر منك أنت أفكر في ذلك؟ لأن أياً منا نحن العاملين التقنيين في السفارة لم يعد يسمح له بمغادرتها على الإطلاق. لأسباب أمنية. وسوف تكدح حينئذ من الفجر إلى النجر ولن ترى في غير هذا الكدح اللعين متنفساً.

ـ حسنا. سأذهب إلى حيث تريد، حتى إلى الجحيم سأذهب معك!

ـ شكرا لك على هذه الجرعة من طعم الحرية. فما دمت قد قدّر لك أن تعاشر شخصاً مثلي، فما لك إلا أن تتصبّر وتقبض على زمام الأمور بكلتا يديك. وعلى أية حال...

بدت عينا بترونيا الزرقاوان متقاربتين جداً، ولم يكن يسرّ النظر إليهما لكونهما تشبهان الزاج الأزرق المتغير لونه كالسحر، كالحرباء. وبشكل عام... ـ يبدو لي أن هذا لن يضر بك اليوم أنت أيضاً.

عندما خرجا من البانيو، كان المطر يتساقط على دمشق رذاذاً تقريباً. ولعل بترونيا كان سيسخر على الأرجح في هذا الصدد لو لم يكن مثقلا بحلمه بالبيرة، وسيقول إن المحجبات هن أكثر من يرتاح لمثل هذا المطر بالتأكيد. ولتحاشي المطر كان عليهما أن يدورا حول صفوف بيع الأزرار المسقوفة وسوق ثياب الأعراس. بيد أن المطر راح ينهمر بقطرات كبيرة ككحبات الرصاص، وبات الظلام يرخي سدوله من السماء سريعاً. وانطلقت الـ «فولفو» الزيتونية اللون عائدة بهما من حيث أتت. وضع أندريه شريط كاسيت في فتحة المسجّل، وبدت المدينة على وقع موسيقى جان ميشال جارّ من وراء الزجاج كما في فيلم جميل.

ـ إلى أي بار نذهب، يا بترونيا؟

ـ الأسعار في البارات مرتفعة، فهي لأهلها، يا أندروشا، الأفضل لنا أن نذهب إلى محل اللبناني و نجلس هناك نشرب.

ـ ما بك؟ إن هذا لنصيب أبناء الجارية. الآن سيعود خبراؤنا السوفيات من عملهم زرافات ووحدانا ، ويهرعون كلهم إلى هنا. وهل تريد أن يرهقك المواطنون المحليون بأسئلة من مثل: «كاك ديلا، يا صديق..؟»

ـ حسنا، ولكن ليس إلى حانة «الحصان الأبيض» («وايت هورس») نذهب، فقد كنت هناك مرة واحدة فـ «جمركوني» بخمسمائة ليرة على لا شيء، على شيء تافه.

ـ هذا أمر طبيعي. فـ «الحصان الأبيض» ليس ببارٍ، إنه حانة كباقي الحانات الغالية. سنذهب إلى «البطريق» إذاً.

ـ أين يعيش هذا «البطريق» ؟

ـ بمحاذاة ساحة العرنوس.

ـ لا أدري... ـ قال بترونيا ممتعضاً. ـ أنا لا أعرف ما هو هذا «العرنوس» وهذا «البطريق»...يلا!

ـ ليذهب كل شيء إلى الجحيم! ولتكن لنا اليوم وليمة الأمراء!

عـبر قطرات المطر على الزجـاج باتت أنوار السـيارات وهياكلها تتألق مثل قنديل البحر. وشعر أندريه بأن العالم - ذاك العالم الثاني - راح يتسلل مرة أخرى ليقترب منه اقتراباً شـديداً ينـذر بالخطر. حركة واحدة خاطئة في داخلـك، كأن تهـب ريح نزقة متهـورة في الرأس، وهـذا المقود الخفيف لسـيارة ضخمة، وهـذه الموجة الحارة تنبعـث من مكيَف السـيارة، وهذه الأحذية المريحة المشـتراة من لبنان بسـعر ٣٥ دولاراً، وتلك الأضواء المتناثرة الخافتـة من متجر أبي روماني، سـتبدأ كلها تتوارد فجأة كهذيان مزعج، وسـتبدأ الأفكار تنسـلُ كما ينسـل وينهار القماش البالي المهترئ الذي حاولوا بحماقةٍ تقويمه ؛ لينظروا جيداً أي زخرف رسِم عليه..

ـ انظـر، يا لهـا من «مرسـيدس!»..ـ هتف بترونيا بحمـاس جعل أندريه يجفل. - انظر، فضية اللون... يشبه سمكة النازلي الفضية. هي موديل العام ١٩٣٤، سـت أسـطوانات، ٤٠ حصاناً، تبلغ سـرعتها حتى مائة كلم في السـاعة... وانظر هناك، «هدسون»، موديل العام ١٩٤٦... لا، ٤٧. ليست هذه بمدينـة، إنها متحف للسـيارات القديمة يناهز عمر الخبز ، شـيء مضحك فعلاً إلى يوم الضحك!

ـ لعله كان أجدر بك أن تتاجر بالسيارات، أيها الخبير المجرّب.

ـ هـل أنت غبي؟ هل أحمق أنت؟ لعلك تعرف كم هي الأسـعار مرتفعة في بلادنا! ما عليك إلا أن تبقى حيث شاء لك القدر. تارة تريدني أن أشتغل في الفلسـفة، وتـارة... أين تريدني أن أشـتغل الآن؟... كمـا لو أني ولدت لأجل أن أتاجر ، ربك أعلم بماذا في البعثة تجارية...

لم ينبـس أندريه ببنت شـفة ؛ لأن بترونيا هذه المـرة أصابها بدقة، هذا عدا أنهما قد وصلا تقريباً من مكان إقامتهما، وراح يحدق جيداً في المشهد الطبيعـي المضبب بفعل الرطوبة العالية ليعثر بين مؤخرات السـيارات التي راحت تلمع تحت أضواء السـيارات الأخرى على مكان يركن فيه سـيارة الـ «فولفو».

جعل فانوسا بار «البطريق» المتواضعان زاوية الشارع مريحة هادئة، وكانت الشجرة فوق المدخل تحرك بعصبية أصابعها العارية، وتتساقط منها قطرات المطر. وكانت الشرفة المكشوفة على الهواء الطلق ذات الشكل نصف الدائري فارغة، بطبيعة الحال، ولم تكن الريح تلوّح بغير الزعانف الحمر للمظلة الرطبة فوق مدخل البار. البطريق نفسه المرسوم على الأرومة الداكنة اللون تحت الفانوسين ذاب تماما في الظل، غير أن طيوراً ثلاثة من التنك في ثوب المساء كانت تشع عاكسة نور مصباح النيون فوق الباب المؤدي إلى مكان ما كأنه عنبر. هبط أندريه وبترونيا عبر الدرج الشديد الإنحدار إلى الداخل الضيق ذي اللون البني الضارب إلى الحمرة لهذا العنبر، ليجدا أنفسهما وجها لوجه أمام شاب غير أنيق، شكله هدأ بالتأكيد من مخاوف بترونيا في شأن المبلغ الذي سيتوجب دفعه هنا، وقد بدأ على الفور يناديهما بحمية: «مسيو». وواضح حتى للغبي أن أيا من الـ «مسيو» لن يأتي إلى هنا، بل لن يقترب من هذا المكان حتى على بعد كيلومتر، وأن الوافدين هما من «الأصدقاء» الروس (يا بؤسهم، إن لهما مشية خاصة تميزهما عن الباقين!)، وأن «الأصدقاء» يعجبهم، طبعاً، أن يناديهم أحد ما بـ «مسيو».

ـ هل هناك بيرة؟

هو السؤال المعتاد الذي يطرحه الروس. البيرة طبعاً موجودة، وكل ما تحتاجه البيرة أيضا من مزة، وكذلك حواف النيكل التي تزين الكراسي وتشتاق إلى الظهور الرطبة بفعل المطر.

ـ قل لي بربك، هل سيجيء يوم تصبح فيه البيرة في بلادنا «الاتحاد السوفياتي» السهلة المنال كما هنا أم لا؟

حاول بترونيا أن يطرح هذا السؤال على طريقة شكسبير: أن تكون أو لا تكون!!!! وجلس إلى المائدة المغطاة بشرشف مصنوع من القماش المخزم.

ـ أوليس من الأفضل لك أن تفكر في ما ستؤول إليه بلادنا؟

ـ لا شيء خارجاً عن المعقول يمكن أن يحدث لها. فقط ستحل كلمات محل كلمات. فبدلا من قولهم: "هو يحسن القراءة السياسية" سوف يقال: "هو مثقف معتدل متزن" أو أي شيء آخر. و"المادية التاريخية هي أبنة الزنى في الشيوعية" أيعجبك هذا التصوير، هذه الكناية؟

انتظر الغلام بأدب مبدياً اهتماماً مصطنعاً حتى لكأنه يكاد ينخرط في الحديث.

ـ الغلام ينتظر. ـ قال أندريه.

ـ ولماذا الانتظار؟ هل القائمة لديهم موجودة في مائة صفحة؟ أثنتان من البيرة لكل منا والباقي دعه يفكر هو نفسه ما الذي يأتي به: زيتون، مكسرات... ما به يتمهل ويتردد؟

ـ يسأل: الزيتون، والمكسرات، وماذا أيضاً؟

ـ قل له، إنه ليس فيلسوفا. الناس يعرفون دائما ما لا يريدون أفضل من معرفتهم ما يريدون!..

رأى الغلام أن المسيو أرتسمت على وجهه علامات الغضب، فهم كل شيء، وكل ما يلزم من دون أن ينتظر الترجمة.

ـ ماشي الحال، ماشي الحال، مسيو...

بينما كان الغلام وراء الكونتوار يجمع ما في مؤسسته من أطايب راح زامورتسيف يجول بنظره عفو الخاطر ناحية الطابق السفلي. الزبائن على ندرتهم راحوا، بطبيعة الحال، يحدقون في الأجانب الوافدين. فالتحديق في شخص ما هنا يعتبر أمراً غير معيب أبداً. وبالمناسبة، لا التحديق فقط. «الأخ من وين؟! آ، روسيا، جورباتشيف.. منيح».

ـ حسنا! ـ قال بترونيا.

ـ وما الذي تراه حسناً؟

ـ أتعرف ما الذي يميز الإنسان عن النحل؟

ـ ماذا؟

ـ إنه يعرف كيف يخبر عما يستشعر.

ـ يعني أن يخبر القصة كلها، من أولها إلى آخرها؟

ـ طبعاً! وهل ما تفعله بعد؟ أتريد أن تنشر إعلاناً في جريدة؟ الآن بات من المألوف نشر إعلان مثل «اشتري دليلاً هندياً في الحب ومحركاً يعلّق خارجياً»...

وضع الصبي على الطاولة صينية من الأكواب والزجاجات والصحون، فحذره سوسلوباروف بالقول:

ـ استراحة.

ومنع الغلام من ملء الكؤوس:

ـ اذهب، اذهب، كله تمام!

سكب هو بنفسه ليشرب ما سكبه في كأسه «مقفّى»، أي دفعة واحدة، ثم سكب لنفسه مرة أخرى، فأصبح مجدداً أهلاً لأن يطلع بتعميمات فلسفية:

ـ أندروشا، تعال نفكر ولو مجرد تفكير، كم بذل الناس وكم ضحوا في سبيل بعض الخرافات وسراب الحقائق، شتى ضروب الأوهام الوطنية والاجتماعية، إلى أن حل أحدهم في الكرملين ووضع الأمور كلها في نصابها ، ناصحاً الجميع أن انتهجوا، يا قومُ، نهج اعتماد القيم الإنسانية العامة.... هو في الحقيقة لم يوصَف هذه القيم، ولكن من السهل أن تُستنبط من خلال المنطق، أليس كذلك؟ مأكل لذيذ وبيرة سميكة، وثياب "مثل الخلق"... عذرا، لقد ابتعدت عن أصل الحديث، كمَل عني... أو بالأحرى، ابدأ.

ـ عن ماذا تريدني أن أبدأ؟

ـ لا تتظاهر بالجهل. كل امرئ عنده دائما شيء ما يقوله. شيء

"يشوي"، كالحرقة في القلب.

ـ لكنني لست ممن يحترق قلبهم كثيراً، يكفي أن يبرّدني هذا السائل ذو الرغوة. أما في مرجلك أنت فدرجة الحرارة اليوم أعلى مما هي عليه في نفس شخص عادي.

ـ وهل تعتقد أن الثرثرة في حالة السكر ستكون لروحي خير علاج؟

ـ كم أنت ثقيل، فظ، يا صديقي. ما دام الأمر كذلك أبقِ لنفسك ما بك من هيجان.

ـ لو كنت تعرف ما في الأمر، لما استسلمت للثرثرة الفارغة.

ـ أنا أعرف من زمان.

ـ أنّى لك أن تعرف؟

داخل القلق نفس بترونيا. فهو لم يكن يفهم حقا لماذا هو يرى بعين ثاقبة الكثير من الأمور في دخيلة الناس، فيما هو لا يريد أن يرى ما في دخيلته هو من مشاكل و"أخبار". إنه ربما يجد من الخطل حقا أن يقنع أحدا بأنه بصير في الكثير من الأمور، ولكن لا يليق بالمرء في الوقت نفسه أن يقلل من قيمة الموهبة التي خصه اللّه بها. وها هو ينغمس بأفكاره من جديد في كأس البيرة و يجد أخيرا المطلوب، إذ يصبح ذاك الـ"بترونيا" الذي كانه من قبل.

ـ أندروشا، ما بك خجلان؟[٥] أتعلم أنه عندما تفوح رائحة الخطيئة ولو قليلا، فهذا حتى شيء جميل ويَسُرّ... كرائحة عصيدة شائطة تشيّطاً طفيفا.

ـ بترونيا، أنت... أنت عفريت حقاً. ـ قال أندريه هذا ربما بشيء من السرور، وشعر بالارتياح، لأن سوسلوباروف فهم كل شيء (أو تقريبا كل شيء) من خلال فضوله وأنفه الضيق والطويل الذي يشمشم هنا وهناك. فكأن بينهما الآن ما صار يشبه الـ «خوشبوشية» أو الـ «أهلية بمحلية»،

٥ في تلميح من بترونيا إلى علاقة أندريه العاطفية الجانبية

ولا داعي ألبتة للتخبط في المزيد من الإفصاح السخيف عن مكنونات القلب- قل لي، بربك، هل الأمور ظاهرة للعيان بهذا الوضوح؟

- نعم.. إذا ما نظر المرء عن كثب. ثم أنا أعلم ما يجب أن تكون أنت عليه في الأصل، في الوضع الطبيعي.

صمت أندريه قليلاً لينصرف إلى تقشير المكسرات وإرسالها إلى فمه.

- وهل كان عندك شيء... من هذا القبيل؟

- لا أعتقد ذلك. لكل طريقته في العيش، يا أندروشا. أنا لست من ذوي العواطف «المهترئة»، الجياشة وروايات الغرام الصارخة.

- ليتك تعلم.. أية رسائل كانت ترسلها إلّي في البداية... أنى لك أن تفهم ذلك!..

- أنا أسمعك، أندروشا.

- أية رسائل!!!... ثم فجأة- لا شيء. شهران انصرما ولا شيء. اليوم اتصلت بها هاتفياً... على ما يبدو، انتهى كل شيء. قالت إنه لا يروقها أن تكتب رسائل على اسم شخص آخر. كأنها لا تفهم أنه لا توجد هنا صناديق بريد خاصة، بينما موزعو الرسائل البريدية للعموم أكثر من الهم على القلب. بصعوبة بالغة اتفقت مع أحدهم على قبول أن تأتي الرسائل على اسمه... والحق يقال، اسم عائلته «شي مسخرة»!

- أنا في هذه المسائل لست قوياً، أندروشا. لكنني أعتقد أن هناك نساءً ربما من الأفضل ألا تُكتَب لهن الرسائل... تعال نطلب بعدُ شيئا من البيرة.

- أولم يبق شيء منها؟

- قل وهل بقي شيء؟

- لا تتشيطن، هذا لا يليق بك. أنا نفسي مندهش من كونها انتهت بهذه السرعة. يا حَيفي عليك، يا صديقي!..

الغلام فهم كل شيء الآن (على ما يبدو من خضّ القناني الفارغة)، كان هنا وابتسم بأدب، فبانت أسنانه النخِرة.

obeikandl.com

ـ هل أنت هنا؟ ما أحلاك!... هات بعد أربعة بيرة. «أربا»[٦]. فرشتاين![٧]

كيف له أن لا يفهم، وقد أشرقت عينا بترونيا كشمسين اثنتين في ضباب خفيف، وجعل من أصابعه الأربعة ما يشبه تاجاً يحوّم في الجو مثل زاحف مجنح، وفي صوته ضوضاء غابة بعيدة كبيرة.

ـ إلى أين كنا وصلنا في الحديث؟

ـ انتهينا، أندروشا، عند أنه كانت لك اليوم مكالمة أدخلت إلى نفسك الشكوك.

ـ بترونيا، حذار! سأصب البيرة كلها على رقبتك!

ـ ها هو الغلام آتٍ بها. دعنا نصبها أفضل في الكؤوس لتدخل الرؤوس. قل لي بربك: هل الصبية تلك كانت حلوة؟

صرخت طيور غير مرئية صرخات أسى بين الغصون الكثيفة العالية.

ـ حلوة...

«كيف أفسر لك الأمر، يا بترونيا؟ هي كالناي يعزف فجأة على خلفية هدير الأوركسترا المعتاد. كالغصن يتأرجح بصمت في النافذة... كالثلج يتساقط حزيناً في مكان ما..».

ـ حلوة وناعمة جداً، بترونيا. أتعلم، كانت عيناها... كيف أفسر لك هذا... لا تأخذان، بل تعطيان. خضراوان. بلون الزمرد... لا! زمرديتان يعني زجاجيتان أكثر من اللزوم. إنهما غير ذلك. لونهما لون زمرد، ولكن مفعم بالحياة.

تنهد سوسلوباروف وقال: ـ الآن يمكنني أن أتصورها. إذاً جمالها يقشعر له البدن...

شعر أندريه كيف أن حلاوة الحزن من جراء الموت الجميل، الشبيه بغروب الشمس فوق جبال تدمر على ألحان موسيقى فيفالدي، أخذت تغمره كله، فاستطرد يقول:

٦ أي «أربعة»، بلكنة روسية
٧ مفهوم؟ (بالألمانية)

ـ هي نفسها طلبت مني أن أسافر.

هو حتى لا يتذكر ما الذي قالته له وكيف قالته، ولكن يبدو أنها قالت هذا بالذات، وراح يحدث بترونيا وهو يتلعثم كيف أنهما استمرا يلتقيان على مدى عامين، وكيف أنها وعدته بأن تنتظره، وكيف أن رسائلها كانت تأخذ بلبّه لروعتها، كانت جميلة دائما تلك الرسائل إلى أن توقفت كليا. لقد كان واضحاً أني سأسافر بعيدا وفي أي وقت وإلى أي مكان، فعملي كله سفر بسفر! فماذا كان الداعي إذاً لنلتقي مدى سنتين اثنتين؟ أنا لا أفهمها! أنا لا أفهم ماذا كان يدور في خلدها، يا ترى؟ لا أفهم! أية أفكار كانت تجول في خاطرها؟..

ـ أنت لست بطبيب جراح، أندروشا. لكي تنيـ... امرأة...

«تشردق» سوسلوباروف ربما بشيء من الطعام أو الشراب، ولكنه أنقذ الموقف بجرعة إضافية من البيرة، ثم أضاف:

ـ... لكي تعاشر امرأة، ليس من الضروري أن تعرف ماذا يحصل في داخلها. هذا حتى قد يعيق المسألة، قد يصرف الاهتمام عن الأمر الأساسي. ربما لهذا السبب هن يذهبن مع رجال خفاف الظلّ يحبون المرح واللهو والهرج والمرج، ولا تستهويهم فلسفة الأمور ولا يحملون هموم الدنيا على أكتافهم... هنا أدرك بترونيا أنه تجاوز الحد أو كما يقال، «زادها»، فراح يلطّف الأمور ويرطّبها: ـ ربما بدأت أنا أهذي كعادتي، أندروشا.

لكن أندريه كان قد صار أبعد من أن يتمكن أحد من «التنقير» عليه والنيل من هدوء أعصابه.

ـ أنا لم أُبقِ حتى على صورة لها... لم أكن لأفكر في الأمر؛ لأنها كانت كلها معي. فما الحاجة إلى الصور؟

راح بترونيا يهدئ من روعه مقيّماً الوضع من وجهة نظره:

ـ قد يكون هذا شيئا جيداً، إذ من المحتمل أن تعثر عليها زوجتك فيرونيكا فينفضح أمركَ شر انفضاح. إن النساء يتمتعن بحاسة شمّ

قوية عموما... هل خبأت الرسائل جيدا؟

شعر أندريه بوجود شيء من الصفاقة في صوت نديمه، فأجابه بجفاء:

ـ لا تلمس ميمي، من فضلك. فهي بالنسبة إلي هدية القدر، زوجة لا كأي زوجة. من دونها ما كنت لأعرف حتى كيف أعقد رابطة العنق.

وافقه بترونيا قوله بنوع من المكر المبطن:

ـ مفهوم! لعلها هي الآن عادت لتكون من جديد أغلى ما في الكون بالنسبة إليك.

ـ نعم! يمكنك تخيل هذا الأمر! أوتعتقد أنني كنت أهمّ بتركها؟

ـ أووووه! إذاً سأشرب كأس الصلابة والثبات في الرجال عند الملمّات.

ـ أنت أحمق وسكير. ربما تظن أني كنت على وشك أن أتخلى عن طفلنا المشترك كذلك؟ هل تخلى عنك والداك؟

ـ هما لم يكونا في وضع كوضعك.

ـ أنى كان لك أن تعرف؟ قل لي، بربك.

ـ حسنا. اهدأ. على أية حال، أنا أحسدك. الشيطنة أفضل من الرتابة والملل. انظر، لقد أجهزنا على البيرة كلها. دعنا الآن نطلب شيئا أقوى منها.

ـ أنا أكتفي بما شربنا.

ـ توقعت ذلك منك. الذهاب لشرب البيرة معك كالذهاب إلى الصحراء للاستحمام. يجب أن ننهي الأمور بالشكل المعقول... أين هو ممثل الشعب العريق هذا؟ يا كلداني! جئنا ببطحة عرق، فهمت؟ ما به مثل النائم أو السكران؟

ـ يقول إنهم لا يقدمون العرق في حانتهم.

ـ أسطوانة مألوفة... قل له إذاً أن يأتي به من أي مكان. يجب أن نمتع النفس كما يلزم... ما به واقف مثل «الصَمد» بلا حراك؟

ـ يقول إنه سيكون ساعتئذ أكثر تكلفة.

ـ حسنا. ليأت به، لن نقصّر في الدفع. لن يكون إلا «مبسوطاً»

لم يكن أندريه ليتذكر ما إذا كان ترجم الجملة الأخيرة أم أن سوسلوباروف كان قد صعد بحماسته على متن منطاد إلى ما فوق جميع حواجز اللغة. في كل الأحوال ، الغلام كان قد اختفى أثره على الفور.

قال أندريه وكأنه تبصّر فجأة، للحظة، لما قد يحصل، تماماً كما تظهر الشمس فجأة من وراء السحب:

ـ بترونيا، لعله ليس من الضروري أن نشرب «العرق»؟

ـ لماذا؟

ـ أنت تعلم أنه ليست عندي مشكلة مع هذا الأمر، فأنا أسكن مستقلاً عن مبنى السفارة، أما أنت فسيكون عليك أن تعبر إلى مسكنك من خلال السفارة.

ـ لا تكن ملكياً أكثر من الملك. أنا لست بفتاة لكي ترافقني إلى منزلي. وليس يهمني القيل والقال من جانب أي من «شرطة الآداب» الميامين هؤلاء، أنا خرا...ي عليهم جميعاً، أفهمت؟

ـ فهمت.

ـ أنت ما فهمت شيئاً.

ـ فهمت أن خرا....ك عليهم جميعهم.

ـ ليست المسألة هنا! أنت سعيد بتذكيري مرة أخرى كم أنت حر، ودون قيد... أسكت، أعلم أنك ما كنت تريد. أنتم كلكم تفهمون الحرية فهماً متخلفاً، فهم أهل الكهف لها. ماركس كيف يقول؟ «الحرية هي إدراك الضرورة». لا، لا تهز رأسك، أنت لا تفهم مدى عمق هذا

القـول... أوه! وأخـيرا جلبتها يا حبَـوب؟ أنت صبي كويَـس. كم عمرك؟ أندروشـا، أتريـده مخففـاً كثيراً بالمـاء؟ تريد ثلجـاً؟.. وهكذا، أنـا اليوم أدركـت ضرورة إقامة مركز للكون في حانة البيرة هذه. وقد تسـنى لي ذلك. إذاً أنا حر. ها ها! اسـأله: هل هو يؤمن بأني أنا حر؟.. حسـنا، لا تسـله، دعنا نشرب. هذا أفضل من أي سؤال.

العرق يتدفق بسهولة في الحلق كجرعة لطيفة من مشروب النعناع، وتذوب برودته في الداخل وقتاً طويلاً.

ـ أنا، بترونيا، كنت أيضا... بطريقة ما... كل يوم الشيء نفسه!

ـ صحيح. أتعرف ما الذي يميز الإنسان عن النحل؟

ـ ماذا؟

ـ كونه يجب عليه إثبات معنى الحياة لنفسه.

ـ وأنا سأثبت ذلك. سأذهب إلى مكان ما...

هـذه الفكـرة الـتي بـدأت غامضة، باتـت تترسـخ بسـرعة في الرأس كحبات الصقيع المتلألئة.

ـ سأهمّ وأذهب الآن.

ـ إلى أين ستذهب؟

ـ ومـا الفرق عندك..؟ كأن ليس هناك مكان في سـوريا يذهب إليه المرء؟

ـ هذا صحيح، هناك أماكن لطيفة... معلولا، مثلاً، لا بأس. الزبداني...

ـ هـذا الزبدانـي الذي تقترحه شـيء تعيـس! أنتم جميعـا لم يذهب أي منكـم إلى أبعد مـن الزبدانـي. قباطنة، بحارة تسـمون أنفسـكم! هل كنت يوماً في الشمال السوري؟

ـ أنى لنا أن نلحق بصنادلنا المهترئة قطاراً! وماذا هناك من أشـياء جيدة وممتعة؟

ـ هناك الطبيعة، يا صديقي. السعة والانشراح.

ـ وماذا في ذلك؟ تسافر مسافة ٥٠٠ ك.م. لتجد أن هناك الصحراء التعيسة إياها. أليس من الأفضل لك أن تذهب إلى معلولا؟ فهي أقرب وأجمل.

ـ أنت أهبل!!! لقد كنت هناك مليون مرة.

ـ حسنا، اذهب بعدُ مرة. أنا كنت هناك مليوني مرة.

ـ أنت لا يسعك أن تفهم. هذا أشبه بالدعوة، بنداء الروح.

ـ حسنا، حسنا. اذهب، ما دمت مصمماً ، ومتشبثاً بفكرتك ... أصغِ، ربما كانت بيروت أفضل؟ أنا أفضل أن «أسحب» إلى هناك.

ـ لا تحدثني عنها. إنها مجرد نسخة محلية رديئة عن مدينة نيس الفرنسية. السائح الأجنبي قد يبدي إعجاباً بأشياء تافهة. هناك، في الشمال – أخبرني موليكوف من المركز الثقافي – يوجد نهر كبريتي يتدفق من باطن الأرض. نهر أخضر، أتفهم؟.. مثل الزجاج... أو، ربما، مثل فيروز سائل. لعله يتدفق مباشرة من الجحيم... هل يمكنك أن ترى مثل هذا في بيروت؟

لم يرق لبترونيا كثيراً تشبيه بيروت بالجحيم.

ـ نعم... موليكوف رجل عنده قناعاته الغريبة العجيبة... (هذا كان يعني امتداحاً له). والبلد يعرفه بطوله وعرضه....

واصل أندريه التوسع في الموضوع قائلا:

ـ هناك، بترونيا، ربما كان المكان أقرب فعلاً إلى الجحيم ؛لأن الأرض كلها تفوح برائحة الكبريت، وخصوصا في المساء... والجسر الروماني على نهر دجلة... والجبال الأرجوانية... والجبال السوداء أيضا... ربما كانت تنبعث من نار جهنم نفسها...

فأجاب سوسلوباروف بدعابة كما لو أندريه كان يتوسل إليه ليحب على الفور هذا الشمال السوري الذي أكثرَ موليكوف من الحديث عنه:

- ومع ذلك رحلة الصحراء الطويلة... أنا لا أحبها، لا أحب رتابة هذه الرمال الشاسعة التي لا نهاية لها...

بهذه الطريقة أو بشيء من هذا القبيل سرى، كما تذكر أندريه في وقت لاحق، هذا الحديث شبه الخرافي، وهو ليس فقط شبه خرافي لأن الفضاء، الكون كله، ظهر بعيني كل من الشاربين ذاتهما، كان قد بدأ يغمره ضباب غير واقعي، ولكن خصوصاً ربما لأن تلك الحياة الموازية التي لا يمكن أن يدركها أي إنسان غير أندريه زامورتسيف، تلك القوقعة التي كان هذا المتيّم نفسه يسترق النظر إليها متوجساً، تربّع عليها بترونيا فجأة "على راحته" كما لو أنها كانت حياته هو، تربّع وكأنه "في بيته"، وراح يحاول حتى هنا أن ينشر "أبحاثه" و"نظرياته" الفلسفية. هذا على الرغم من أن الحديث، على ما يبدو، سرعان ما انتقل إلى متاهات لا تطاق، فلم يعلق في الذاكرة لهذا السبب إلا بضعة أجزاء غامضة، غير مفهوم لماذا مثلاً عن الحرب الأهلية التي هي، بشكل عام، رغبة مفهومة لدى الشعب في التنويع ضمن تفاهة الوجود المملة. وأيضاً لماذا لو رمي ديك في الماء، فسيمكنه بسهولة متناهية، من حيث المبدأ، أن يسبح و يخرج منه، ذلك أن بين الريش وفي داخل العظام هواء، وهو سيبدأ يتخبط دون وعي حتى "يتشردق" بالماء أخيراً و يختنق، و نحن جميعا نشبه هذا الديك.

وتذكر أندريه أيضا أن صبياً راح في وقت لاحق (هذه المرة في الشارع) يبوّس أصابعه القذرة نفسها ليُظهر كم هو لذيذ أندريه، وليقول مرحاً بصوت أجش:

- مستر، أعطني خمسة وعشرين!

كما تذكر الرصيف المليء بالأوساخ كأنها مخاط ، وتذكر بترونيا الذي راح يخطو بين الفينة والفينة خطوات هادئة رائقة وكأنها تتم على وقع الموسيقى الناعمة لباليه "بحيرة البجع"، وتذكر كذلك صرخة روحه عندما حقق أخيرا ما تطلع إليه إذ قال : "هل تعتقد أنه من السهل على مواطن دولة عظمى أن يلبس حذاء من الكرتون بـ ١٥٠ ليرة؟".

عندما انطلقت بالنديمين سيارة الـ"فولفو"، بات زامورتسيف يتذكر الأشياء بشكل أفضل، كيف لا وهو السائق الذي كان عليه أن يشغل كل جهازه العصبي المركزي وغير المركزي. فالسيارات كانت تنطلق قربهما مسرعة لدرجة أنها كانت تبدو لهما مسرفة في الطول. وكان بترونيا يتململ في مقعده (ليس هناك ما هو أسوأ من فيلسوف مخمور) ويصيح:

ـ إلى أين أنت مستعجل، يا ابن الكلب! اسمع، أندروشا، متى ستتكسر أخيرا عظام كل هؤلاء السائقين البلهاء، فيضحيَ سوق السيارة بالنسبة إلى الإنسان السويّ أمراً ممتعاً؟ ـ ثم يستطرد في الحال... ـ أوه! أنظر ما أروع هذه الـ"مازدا"! يا له من شكل رائع. "أدمغة"، "أمخاخ" اشتغلت عليها!!! وفجأة بزغت في رأسه فكرة أخرى لاذعة، فعاد مرة أخرى يصرخ: أرأيت؟ أرأيت هذه القمورة، هذه "الشقفة" التي مرت الآن؟.. في سيارة الـ"بويك سنتشوري"... يكفي أن ترى معطف الجلد الذي عليها.. هو يساوي أكثر من عشرين ألفا. والرقم. الرقم حكومي! هم سيصيبهم قريباً جداً ما أصابنا، لن ينتهي هذا إلى خير، أنا أقول لك... "بيريسترويكا" مماثلة لتلك التي كانت عندنا تنتظرهم، ومن بعدها انهيار.

الحمد لله أن أفضل الأماكن في دمشق قد جمع بعضها إلى بعض بشكل وثيق، وها هو الآن الفناء الخلفي المعتم للسفارة حيث صفوف السيارات المركونة تحت سقيفة أو بدون، وها هو صفير الرياح الرطبة يغطي على صوت بترونيا الذي يثقب الأذن:

ـ أتعرف ما... ماذا يميز الإنسان عن النح... النحل؟

ـ ألم تنته بعد من نحلل هذا؟! تكرار يثير الملل. قل لي أحسن، ما الذي لا يميزه عن الإنسان.

ـ وأنت، أما "دارت لك" بعد؟؟ عهدي بك رجلاً مطّلعاً وذكياً...

ـ يميزه كونه كالإنسان يعيش في قفير؟

ـ أنت ذكي حقاً. وأيضا كونه يحب الرحيق! ها ها ها!..

كأن شيئاً ما لكزَ أندريه، فرفع عينيه فإذا به يلحظ في السماء المظلمة كتلة جبال قاسيون المزروعة في هذا المكان بأنوار أقل مما مثلاً في حي أبو رمّانة. وكان لا بد، بالطبع، من محاولة كشف النقاب مرة أخرى عن القلق الغامض، بشأن الرسالة الصامتة، عن لغة النجوم، ولكن قواه خارت، فقال فقط لسوسلوباروف على سبيل الاحتياط:

ـ أنت هناك... الزم الحذر كما يجب.

إلا أن هذا المتأنق لم يكن ليفهم صوت القدر غير المسموع، ولا حفيف الريح الموجِس، ولا تحويم الغيوم المقلق، فاستمر رداً على نصيحة مخلصة يتغابى ويتصرف تصرفات مضحكة:

ـ أنسيت، يا أندروشا، كيف تكتب الصحافة الحزبية المركزية؟ "نحن لا نهاب الفضائح. نحن كما نحن، وفخورون بما نحن به!"...

ـ حسنا، ولكن حاول... تحاشي التهور، تدارك الأمور غير المحسوبة.

ـ بالطبع، بالطبع، يا عزيزي... لا تقلق، أنا نفسي أفهم ذلك. سوف يكون ذلك أمراً مزعجاً ومحبطاً للغاية بعد هذه "المسويّة" الجميلة إذا... عندئذ سيفسدون الجو مثلما يفسد بعضهم الهواء في البانيو.

جفل أندريه. في البانيو؟ أجل، إنها لمجرد نكتة جديدة من نكات بترونيا المعهودة.

غير أن سوسلوباروف سار نحو البوابة فغاب ظله في غياهب الليل، فيما اندس أندريه مجدداً في صالون السيارة الدافئ إلى تلك الأضواء الحميمة (من المؤسف أنها ليست خضراء، وإلا لكانت شبيهة بقُمرة القيادة في طائرة). كانت الساعةُ التاسعةَ، وفي هذا الوقت كان يستمع دائما إلى "راديو مونت كارلو"، تحوّل هذا عنده إلى عادة. والواقع أنه أراد أن يعرف ماذا حدث في بقية أنحاء العالم، بينما كان هو وبترونيا جالسين معا في الحمام الشعبي وفي حانة "البطريق"، فالزمن الآن مكتظ بالأحداث.

"... صرح وزير الخارجية الأميركية أن بوش وغورباتشوف سيحددان موعداً جديداً للقمة في أقرب وقت ممكن. وأكد أنه لا يمكن للمرء أن يكون واثقاً من أن النزاع في منطقة الخليج سينتهي بحلول منتصف العام".

ومن الصوت النسائي إلى صوت مذيع رجل يقول:

"منذ بداية العمليات العسكرية قامت طائرات الحلفاء بـ ٢٥٠٠٠ طلعة جوية ضد العراق. صباح اليوم انهمر وابل من القنابل على مدينتي زرباطية وبدرة. هذا ما ذكرته وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية الإيرانية. وأكدت القيادة الأميركية أنه تم توجيه ضربة جوية إلى القاعدة البحرية في أم القصر".

"ولفت اليوم الثاني عشر من الحرب إلى مسألتين رئيسيتين: انتقال الطائرات العراقية بالجملة إلى إيران واتساع رقعة البقعة النفطية التي تهدد الساحل السعودي..".

ثم تواصل الحديث الرتيب نفسه، وحتى الممل بعض الشيء، دقيقة ونصف أيضاً عن معركة آخر زمن، المعركة الفاصلة:

"أكد صدام حسين للصحفي بيتر أرنيت من شبكة "السي.إن.إن" أن صواريخ سكود العراقية يمكنها حمل أسلحة نووية وبيولوجية وكيماوية، وثمة، بحسب قول الجنرال السوفياتي بتروف، تحت تصرف بغداد ٢ ـ ٤ آلاف طن من المواد الكيميائية، وبالأخص من غاز الخردل والتابون والسارين".

ثم تلت ذلك أصوات نسائية ناعمة: "راديو مونتي كارلو.و.و..!". فإعلان عن مسحوق للغسيل. وكما درجت العادة لدى كتابة الروايات الرديئة، الحياة مستمرة.

ميمي أمضت هي ـ أيضاً ـ وقتها على طريقتها ، عندما لم يكن أندريه بجانبها: ذهبت إلى آخر الشارع لشراء البيتزا، وجلست تأكلها أمام شاشة التلفزيون. وقف أندريه عند الباب، في البداية بعيدا.

ـ كيف حال البانيو؟
ـ لا بأس. لكن بترونيا، على ما أعتقد، أفرط في الشرب بعض الشيء.
ـ هذا ما أشعر به. من خلال رائحة "العطر" التي تفوح منك.

كانت حاسة الشم عند فيرونيكا مدهشة. فهي كانت تطلب منه دائما ألا يستخدم عطوراً قوية، بل كانت تفضل ألا يستخدم أية عطور أصلاً.

ـ أولم تضجر بعد من معاشرة أمثال هذه السكَيرة؟

فأجاب زامورتسيف وقد تعثر لسانه من لفظ اسم طويل أكثر من اللزوم:

ـ أنا... مثل فرانك كاو...بر.. بر...وود، كاوبروود[٨]، رجل له استقلاليته، وألتقي الأشخاص الذين يروقون لي، لا الذين أستفيد منهم.

ـ فرانك كاوبروود ..ـ كررت الاسم بشيء من الشك الذي يضمر التهكم. فرانك كاوبروود كان مليونيراً.

ـ وأنا؟ أنا أيضا لست آخر الناس بالمقاييس السوفييتية!

قال هذا بينما كانت ميمي تتابع التهام البيتزا على وقع صوت الشوكة وعجيج جهاز التلفزيون. وكانت ميمي في بعض الأحيان تعرف كيف تظل صامتة، فيجيء صمتها أشد وقعاً من أية كلمات.
ثم قالت بصوت ثابت:
ـ هل تريد بيتزا؟

فكر أندريه فيما إذا كان ينبغي عليه أن يتصلب قليلاً، لكن لم يتسن له ذلك، وقال أخيرا:

ـ حسنا، أعطيني

ثم تذكر انه بعد كل شيء رب الأسرة، كما كان سيقول له بترونيا.

٨ بطل رواية تيودور درايز «الرواقي»

ـ وأين طفلتنا؟

ـ تُذاكر وتقوم بواجبات البيت.

ـ هذا أمر جيد.

جلس أندريه أيضا أمام التلفزيون، هذا الصندوق المخصص للبلهاء، و «كدش كدشة» من البيتزا.

ـ هل عرضوا شيئا عن حرب الخليج؟

ـ عرضوا وقالوا شيئا ما، ولكني لم أفهمه، لأنه باللغة العربية.

ـ لا بأس، في العاشرة أيضا ستكون هناك نشرة أخرى للأخبار، وسأترجمها لك.

ـ امسح بعض الزبدة على البيتزا ، فهذا مفيد للأظافر كيلا تتشقق.

ـ بابابا....با!

ـ هل تسمع؟ يوليا تناديك، يطلبونك على .

ـ فليذهبوا كلهم إلى... (وأكمل قائلاً في نفسه) تدرين إلى أين.. إلى البانيو، إلى جهنم!

ـ ما بك؟ ربما كان هناك أمر مهم.

ـ با...با!

كم أن كل شيء عندهن مضبوط ومحسوب، كأنك في أمانة سر، في سكرتارية ، وليس في أسرة.

ـ لا تصيحي، أنا آت!

ناولت الطفلة يوليا أباها السماعة ضاغطة بيدها على الميكروفون.

ـ يقولون، من السفارة...

ـ اذهبي.... سأرى... ألو! من معي؟

كان على أليوشا جانداريف، وهو شاب يافع من السفارة، لسبب ما يتملّق كثيراً لأندريه - على ما يبدو - بعد حديث من القلب إما عن ماكسيميليان فولوشين وإما عن محاسن كلاب البلوتريير.

- مساء الخير. أندريه سرغييفيتش، اعذرني، من فضلك، إن كنت أقلقتك، ولكني قررت أن أتصل بك... هناك قصة حصلت مع بيوتر ياكوفليفيتش سوسلوباروف...

أول فكرة وردت إلى خاطر أندريه: "لقد أفسد بترونيا حقاً الهواء في السونا". ولم يكن ليفهم على الفور، لماذا أليوشا يتصل به هو ما دامت القصة قد حصلت مع بيوتر ياكوفليفيتش، مع بترونيا؟ ولكن ما لبث أن جاءه في الحال الظن المخيف يرافقه ارتعاد في الفرائص، ومع ذلك قال بصوتٍ جهد ليظهِره هادئا وثابتاً:

- وأية قصة هذه، يا ترى؟

ما كاد الشاب أليوشا يرد، حتى تراكب فوق صوته صوتٌ أقوى منه لأحدهم، تبين أنه صوت فويتصيتسكين أخذ يلعلع فجأة في أذن أندريه، وهو صديق قديم له، ومساعد للملحق العسكري:

- يا صديقي، هل أخبروك؟ لقد حكروا بترونيا وهو ثمل مخمور. لماذا لم تُفهمه أن « يحطّ عقله في رأسه»؟ أخذه غباؤه إلى النادي فلحظه نيبيني، بطبيعة الحال. وذاك، كما تعلم، يطمح إلى منصب قاضي القضاة، فهو يبحث عن أي أمر ليبرز وكأنه يضم في شخصه العقل والشرف والضمير. فيكفاس غضب هو أيضا على بترونيا غضباً شديداً باعتبار أن نظام خروج مشدد يطبّق الآن...

أحس أندريه أن ميمي تقف عند الباب. ولم يخنه إحساسه، إذ فاجأته ميمي وفي قسمات وجهها سؤال: «ماذا حدث؟». ولوح لها بيده أن اذهبي، اذهبي!!! وقرّب السماعة من أذنه مرة أخرى ليسمع صوت فويتصيتسكين:

-... ما أكثر محاولي الإيقاع بالآخرين. هما رأيا كيف أنكما افترقتما بصعوبة عند السفارة. فحضر نفسك غداً لمساءلة كبيرة....

ـ وأنا ما شأني بذلك؟ قال زامورتسيف وكأنه أهين في شخصه تقريبا ـ. وإذا رأياني عند السفارة؟! وهل في هذا جرم ما؟

ـ كما تعلم. بترونيا ليس ببطل من أبطال المقاومة لكيلا ينبس ببنت شفة عند التحقيق معه. ما إن يبدأوا يستنطقوه حتى يخرج كل ما في جوفه من اعترافات. أقول لك: بالنسبة إلى نيبيني تبدو «مغامرتكما» تلك بمثابة هدية له في عيد ميلاده. هو يسعى منذ زمن ليصبح مستشاراً لشؤون الموظفين. لذلك فكِّر ملياً في الأمر.

ـ شكرا لك، ـ قال أندريه وقد شعر في آن بالكره العاجز للوضع الناشئ ، ولنيبيني ولبترونيا وبالذل الشديد الذي لم يكن يتوقعه أبداً. ولكن الأسوأ من ذلك كله هو أن ميمي كانت هنا وفهمت كل شيء من أوله إلى آخره، وهل كان لها ألا تفهم؟!

ـ ذهبت لتموه عن نفسك فجلبت لك ولنا الشؤم، مستر كاوبروود؟

ـ وما..ذا تقـ..صدين؟ سألها بكلام شبه متقطع في محاولة لكسب الوقت والسيطرة على حالة الارتباك.

كان يكره حتى العمى أن يراه أحدهما مرتبكاً، خاصة وأنه كان يعرف جيداً أن هذا الارتباك سيمر بعد ثوانٍ وأن دماغه سيبدأ يتحايل على الأمور ويقاوم، وحتى، ربما، يتهيج تهيجاً غير صحّي بما أن طبعه كان عموماً كطبع جده: دمثاً ظاهرياً، ولكنه حين يغضب يفور كبركان، وإلا لكان أضحى كالممسحة تمسح بها قدميها زوجة قديرة وذكية مثل ميمي.

ـ أنت تعرف حق المعرفة ما الذي أعنيه. من كان المتصل؟

ـ فويتصيتسكين، من السفارة.

ـ ماذا هناك؟ «صاحبك» سيطرَد إلى روسيا؟

ـ حتى الآن ، قبضوا عليه فقط.

ـ إذاً، سيتم تسفيره غداً. وستغادر، أنت الأحمق، أيضاً في إثره. ولكن ما ذنبنا نحن؟ نحن ما ذنبنا؟!..

مع آخر كلمة قالتها فيرونيكا تهدّج صوتها وارتعش ارتعاشة امرأة. كيف لا وفي الأمر إهانة وعيب، ومن العار الاضطرار إلى مغادرة البلاد بسبب سكرة غبية.

ـ ماذا بوسعنا أن نفعل الآن؟

ـ هدوءاً! هدوءاً! لا داعي للذعر!

كان أندريه يعرف أن أهم شيء يفعله هو عدم السماح بأن يتدحرج الحجر من أعالي الجبل.

ـ عليك مساعدتي على أن أختفي بسرعة.

ـ كيف هذا، أن تختفي؟ أين تختفي؟

وقعت ميمي، بطبيعة الحال، برغم ما تميزت به من رجاحة عقل وثبات إرادة، في حالة من الكآبة، وفيما لم تكن جميع زوايا مخيلتها قد امتلأت بعد بأسى التفاصيل المروعة لهلاك مدينة بومبي، كان عليها أن تصرف الانتباه عن البركان المتفجر، لا سيما أن مساعدتها في نصف الساعة المقبل ستكون فعلاً مساعدة ضرورية.

ـ أعتقد أن فيكفاس لن يعمل على إغراقي...

ـ ومن هو فيكفاس هذا؟

ـ ما بك؟ أما حدثتك عنه؟ هو ضابط الأمن فيكتور فاسيلييفيتش. رجل لا بأس به، ولكنْ هناك الآن شخص وغد قد أثار الضوضاء. بترونيا قد يغرقونه، ولكن إذا كان لدي ولو بعض الأوراق الرابحة، فلن يعمد أحد إلى التنقيب والتمحيص في الأمر! لا أعتقد أنهم بحاجة إلى ذلك، لا سيما أنهم سيكتفون بمعاقبة غبي واحد! .. قفي هنا.

أمسك سماعة وطلب رقماً، أما فيرونيكا التي استنفدت كل عزمها وشكيمتها رياحٌ مجنونة هبت فجأة على مرتع وجودها الآمن والمحسوب جيداً، فانهارت فجأة على الأريكة.

ـ مرحبا! ديلوروم؟ هل ميرسعيد في المنزل؟ .. (ـ «إنه في المنزل»، ـ قال همساً لميمي المصابة بالإحباط وغمزها، كما لو أنه كان يستعد لاسترضاء الجميع بنكتة رائعة) ـ مير، مرحبا! هل عرفتني؟ كيف حالك؟ .. رائع. أنا بحاجة ماسة إليك، هناك «شغلة» مهمة جداً... أهم من مليون... بالطبع، سأكون مديناً لك، ولكن سأرد الدين مضاعفاً (وقال لزوجته متصعر الوجه كالسعدان..: الآن حين سأفاجئه سيغمى عليه! أوليس أمراً مضحكاً للغاية؟!). أنا مسافر في رحلة عمل عاجلة... نعم، نعم، في هذا الوقت الرائع، مع حلول الظلام. ولكن ليس هذا بالأمر الأهم. في الحقيقة، اعتبر أني قد تركت المنزل أمس صباحاً، هل فهمت؟ أريد منك أن تؤكد ذلك إذا ما سألك أحدهم. أجل، هذا يلزمني. كثيرا... غدا في السفارة ستعرف... لماذا هذا سرّ؟ كنت مع سوسلوباروف في الحمام الشعبي، وهو رجع من هناك مخموراً فعلق في الشرك. ربما رآنا أحدهم معاً... بينما كان يجلس معي في السيارة... لا بد أن كثراً سيجدون في هذا الأمر مجالاً للثرثرة، أنت تعرف هذا جيداً. أنا.. صاح تماماً! أنت تشعر من بعيد بهذا، أليس كذلك؟ أتريد أن أخرج نفَساً لتتحقق من أني غير سكران؟ (ضحك ضحكةً فيها ما يشبه الصرير) أيضا، أرجوك أن تعطيني بوصفك قنصلاً إفادة بعد قيامي برحلتي هذه، لدى عودتي طبعاً، حسناً ..؟

مضى ما يقرب من دهر قبل أن يسمع أخيرا الجواب من خلال صمت :

ـ حـ...حسنا... انتبه! سأفعل هذا كرمى لذكرى صداقتنا في الجامعة.

ـ شكرا لك، يا صاحبي، ـ قالها زامورتسيف هذه المرة بصوته الطبيعي الصادر من القلب، ومن دون حركات سعدنة عصبية في الوجه، ومن دون ضحك صريع ـ أتعرف، أنا لم أكن أشك في أنك ستتفهمني.

ـ لا تفعل هذا بعد الآن، ـ نصحه صوت في سماعة بلكنة أهل الجنوب السوفياتي، مضمناً هذه العبارة كل شيء: بحراً من نبلٍ لا نهاية له ، وتعباً من نزعة الاستهتار بالأمور وعدم الاستقامة عند الناس. ولكنه كان عليه أن يشرب هذا المزيج المزعج من دون أن يعبس له وجه.

ـ أوكي، خلص. – قال هذا وهو يضع السماعة. – فليحققوا الآن مع من كان بترونيا قادماً في ظلام الليل.

ـ وإلى أين ستذهب؟ ـ سألت ميمي.

ـ إلى أين؟ إلى أي مكان.. بعيدا من هنا... وهنا لاحت له فكرة الذهاب إلى النهر الفيروزي والجبال الأرجوانية... إلى منطقة دير الزور في الشمال السوري.

ـ إلى دير الزور؟ بعيداً هكذا!

ـ هذا صحيح. أبعد من بلاد واق الواق! هكذا سيكون أفضل.

ـ لم لا تذهب إلى حمص، أو إلى طرطوس مثلا؟ على الأقل أقرب. وبعيدا عن الحرب.

ـ اسمحي لي أن أقرر بنفسي هذا الأمر.

جاءت الكلمات الأخيرة بصوت عال وثابت، بل حتى صارم. وعند سماع فيرونيكا هذا الزئير لأسد مضطرب، لم تحاول أن تجادل في الأمر مثبتة مرة أخرى أنها امرأة ذكية.

ـ با ـ با!، ـ قالت يوليا من مسافة ما، ـ ما بكما؟

ـ وأنت لا تشاركي في «شريعة» وجدال والديكِ، اهتمي فقط بما يعنيك، بدروسك!

وفجأة قال كالمصعوق: ـ يا للعنة! يا للشيطان! أنا لم أقل له.....! ..

وراح مرة أخرى يضغط على أزرار البيضاء كالأسنان.

ـ ألو! ميرسعيد؟ اسمعني، لم أقل لك إلى أين أنا ذاهب (بما يشبه شك الزوج المخدوع). لماذا لم تسألني؟ .. نسيت؟! .. آه، كم أن كل شيء يتسم عندك بالبساطة! بالنسبة إلي أنا، كما تعلم، الأمر خطير جدا... إذاً قل إني ذهبت إلى دير الزور... وبعد ذلك ربما أبعد من دير الزور... فليكن إلى الحسكة... لا أعرف كيف ستجري الأمور... شكرا لك. وتصبح على خير.

ـ ولماذا إلى الحسكة؟ ـ سألته ميمي. ـ إنها لعمري نهاية العالم. إنها العراق تقريبا. أتريد أن ترتكب هفوة أخرى، هفوة فوق هفوة؟

ولكي يثير فضولها ويغيظها قليلاً قال بنوع من اللامبالاة الصادرة عن أرستقراطي يهوى السفر:

ـ ربما سافرت أيضاً إلى ما هو أبعد قليلا. قال موليكوف إن هناك أماكن مذهلة. أتوق إلى رؤية النهر الكبريتي... والجسر الروماني على نهر دجلة...

وكاد أن يضيف قائلاً "ربما نفوني من هنا، قبل أن أرى شيئاً"، ولكنه أشفق في آن على ميمي، تلك الزوجة العاقلة التي تحسب لكل شيء حساباً.

كرر لها ما قاله لميرسعيد:

ـ عموماً، لا أعرف. سوف أتصرف حسب ما يستدعي الأمر.

وإن كان يعرف أن كل شيء قد تقرر في واقع الأمر.

ـ أندروشا، ما أنت بقائل؟ ستصبح عند الحدود التركية. لا أعتقد أنه سيُسمح لك بذلك.

ـ ليس هناك أي من حرس الحدود السوريين. فالأتراك يحرسونها أكثر من حراسة السوريين لها.

ـ لماذا؟

ـ ربما لأن هذا يهم الأتراك أكثر.

ـ إنه لأمر غريب فعلاً...

ـ هو الشرق، يا عزيزتي.

وهنا استدرك فجأة.

ـ دعيني أستعد للرحيل. يجب علي أن أستبقي الورقة الرابحة في يدي.

ـ نعم، ـ وافقت ميمي خائفة، كما لو كانت على وشك الاقتراب من المنزل سيارات الاستخبارات السوداء اللون لتخطف زوجها منها.

ـ الآن سوف أطلب من ابنتنا يوليا أن تساعدنا طلباً للسرعة.

ولكن حتى لو هدد بالمجيء رجال الاستخبارات السوفياتية أيام ستالين أنفسهم، أولئك المشهورون بسطوتهم وقمعهم، فإن ميمي كانت لا تزال غير قادرة على أن تتغلب على ما في داخلها من ميل إلى الدقة والصرامة في الأمور.

ـ أنت حضّر الأحذية، أندروشا، وأنا أهتم باختيار الملابس.

ـ أية أحذية، هل بك مسٌ من جنون! أنا ذاهب لمدة يومين أو ثلاثة! الوقت، يا فيرونيكا، الوقت لا يسمح !

بمثل هذا الاستعجال تمكن أندريه من أن يأخذ ميمي على حين غرة فلا يترك لها مجالا للاعتراض والتفكير ملياً في الأمر، وهو ما كان بمثابة أسوأ تعذيب لها، ذلك أنك عندما تمسك بيدك أول بيجاما تقع عيناك عليها دون أن تتمكن ولو لدقيقتين فقط من أن تفكر وتقرر أيها أكثر ملاءمة لهذه الحالة، فإن الحياة تصبح نزقاً وتهوراً ولا يُمكن الركون إلى شيء فيها.

ومن جراء صخب الاستعجال هذا استيقظت في القفص الببغاء وراحت تتمتم بأشياء غير مفهومة بصوت شبه مخنوق من شدة النعاس.

وصاحت يوليا من الحمام:

ـ با ـ با، هل تكفيك شفرتين اثنين؟

الغريب أن أندريه لم يكن راضياً فحسب بل سعيداً وهو يرى كل هذا الصخب يدور حول شخصه، كل هذا المتاع المتزايد حجماً يُجمع من أجل رحلة رومانسية يقوم بها، ويرى كيف يُسكب له الشاي في الترمس، وتلفّ له في ورق الشوكولاته السندويشات، ثم تسأله ميمي:

ـ ربما يلزمك المزيد من الجوارب الدافئة..؟ أليس قليلاً ما وضعته لك من البندورة؟ ..

لم يتسنّ له منذ فترة طويلة أن يشعر إلى هذا الحد بأنه رأس الأسرة ويقف في القلب منها.

ربما كان هذا في دم كل رجل، حتى ذاك المنخدع بكونه ذا تحصيل جامعي: أن يكون له الخيل والليل والبيداء..... والسيف والرمح والقرطاس والقلم؛ وامرأة بحجابها الأسود على سطح كوخ... ويكفي أن تهب الريح المثيرة للقلق من أعالي الجبل صدفة حتى يتخيل في الحال شخير جواد وطريقاً تفضي إلى غياهب الليل...

ومن الكتب اختار للمطالعة إبان سفرته العاجلة تلك رواية «المهرجون» لغراهام غرين. وبالإضافة إلى هذا الكتاب، ما كان يتصور الهروب إلى الشمال من دون شنطة رمادية كبيرة وكيس يضم أغطية سرير (فقط لحين الحاجة)، وصندوق أحمر حافظ للبرودة وترمس حافظ للحرارة. نقل أندريه أمتعة السفر هذه إلى السيارة على دفعتين. ثم كان من الضروري أن يوزع بعناية على جيوبه النقود والوثائق وقلم الحبر والمفاتيح ودفتر العناوين والمفاتيح الاحتياطية للسيارة بغية ألا يضايقه شيء في الطريق، وأن يكون كل شيء في الوقت نفسه في متناول اليد.

ـ ربما لا لزوم لأن تذهب؟ علّ الأمور تمضي على خير؟ ـ اقترحت فيرونيكا على استحياء ووجل بعد هذا كله.

ـ لا، من الأفضل لي أن أسافر ـ كما يقول بترونيا: «على العبد التفكير وعلى الله التدبير...». أما فيفكاس فسيكون حتى ممتناً،

ففي هذا همّ أقل له.

وأومأ له أن يصطحبه إلى مصطبة الدرج.

ـ لا تدعي يوليا تأخذ كيلا تهرف بما لا تُعرف عواقبه.

ـ سأنزع من الخط.

ـ لعل هذا سيكون زائداً عن اللزوم. على أية حال... كما تريدين، ـ قبل أندريه ميمي وقال لها من صميم القلب: ـ أنت حبيبتي الذكية!

فقط الآن وهو في المصعد وحده أدرك كيف أومضت للحظة علامات الاشمئزاز على وجه فيرونيكا عندما استشهد بقول بترونيا سوسلوباروف. لقد فعل ذلك عن غير قصد، فلم يشعر كيف جاء ذكره على لسانه. لا بأس، على أية حال، كيلا تظن ميمي أنه خائف حتى لا يعي ماذا يفعل. كما أنه أمر جيد أن لا يداخلها شعور بأنه خان أصحابه. فلتعرف أنه لا يمحو أصدقاءه، مهما يكن، من سجلات التاريخ. ولذلك شعر بأنه حقق نجاحاً في تصرفه، وإن هذا إلا سياسة سليمة.

لم تكن الساعة قد قاربت بعد العاشرة والنصف ليلاً عندما غادر المنزل. والمطر لم يعد يعكر صفو الظلمة، ولم يبق من دموع المطر الغزيرة التي كان عليه وبترونيا أن ينتظراها في «البطريق» سوى الماء في البرك المتكونة على الأسفلت يشبه قناديل بحر سحرية والأوزون يعبق به الجو. لم يكن هناك أي سيارة تقريباً في الطريق، ولكن أندريه بقي هادئاً وهو يقود سيارته لأنه لم يكن من الأشخاص الذين يهوون القيادة المجنونة على طريقة أفلام هوليود، حين يُسمع صرير صمامات المحرّك وتتلوى الإطارات أنيناً. فقط عندما وصل إلى طريق حلب السريع، سمح لسيارته الـ «فولفو» بأن تصل في نهبها الأرض إلى سرعة ١٢٠ كيلومتراً. وبعد علامة الكيلومتر ٢٥، التفت باتجاه مدينة الضُمَير متخذاً له طريقاً فرعية ضيقة، ولكنها مستوية ومهجورة.

بقي حتى تدمر ساعتا سفر بالسيارة إذا كانت مسرعة. الطريق جيد، ولكن على المرء أن يبقى حذراً من وجود حزَم من الأسلاك المتبقية

من إطارات منفجرة.

دمشق على الأرجح قد أخلدت إلى النوم. مع أن حي الشعلان يشهد خلال الصيف وفي مساء متأخر صخباً واحتشاداً، حتى الفتيات تتنزهن (هناك فتيات لا بأس بجمالهن!!)؛ محلات الفواكه والحلوى تمتع المارة بأضوائها الساطعة، ويرن صحن معدني معلق على سلسلة ومتصل بحنفية ماء جُعلت كـ «السبيل» تيمناً بذكرى الشيخ نوري الشعلان رئيس عشيرة الرولة البدوية في مطلع العشرينيات من القرن الماضي، هذا الذي أحب هذه الأرض وكنّاها بكنيته. و يجلس رجل متفرع من هذه الشجرة العريقة العائدة للعشيرة الحاكمة فخوراً باستدراة شاربيه على كرسي خشبي مقوس الساقين وضع على الرصيف أمام مدخل قصر الأجداد مرتدياً بدءاً من رأسه حتى أخمص قدميه الجلابية البيضاء ومنقّلاً بيده حبات مسبحة مصنوعة من ثمار القراصية، وليس يختلف عن أسلافه الذين حطوا رحالهم لـ١٣ قرناً من الزمن مضت في هذه الحدائق بسوى جواربه المصنوعة في معمل "رضوان حلاق" وحذائه ذي الرباط.

وفي بعض الأحيان لا يكون هناك سوى الكرسي.

الآن، بمناسبة فصل الشتاء، أخلي المكان طبعاً حتى من الكرسي، وأغلِق الباب.

وانطفأت أنوار شارعي الحمراء والصالحية، ولكن لا يزال المصباح الكشّاف على الأرجح يضيء بنوره القوي ساحة الأمويين الكبيرة المترامية ويمد ظل النصب التذكاري للرئيس أو- بلغة السوفيات الشعبية- للـ «بابا»، على الجدار الكبير للمكتبة المسماة باسمه، جدارٍ من دون أية نافذة أو كوة ينفذ منها النور إلى الداخل.

سكبت ميمي لنفسها بعضاً من شراب الجن، وراحت تشاهد التلفزيون، وتفكر في سيارة زوجها الـ «فولفو» السريعة، وفي بترونيا المؤذي وفي ما قد تؤول إليه هذه القصة كلها، وتفكر أيضاً قليلا في "شحّاطة اللباد" التي أكلها العثّ بالأمس. أما هو فأدرك فجأة انه يريد

أن يقترب منها من الخلف فيرفع خصل شعرها ويقبل رقبتها الدافئة ذات الشامة. وتذكر أيضاً كيف أنه يحب أن ينظر إليها من الجنب ليراها وهي تمعن التفكير في شيء ما، وكيف أنها عندما تفيق من استسلامها لمخيلتها ما تلبث أن تغضب لسبب ما غضباً شديداً وتتذمر دون مسوّغ قائلة شيئا من مثل: "حسناً، لماذا تنظر إليَّ هكذا؟". إن ميمي امرأة جادة جدا وزوجة رائعة. وهي لربما تستحق أن تكون زوجة رجل عظيم. فكيف حصل أن تزوجت ممن لم يكن يستحقها؟ .. أو أن الذي تزوجت منه كان يبدو ذات يوم وكأنه مرشحاً لأن يكون عظيماً؟ ..

بقيت مدينة الضُمَير الهادئة الواقعة في ريف دمشق إلى اليمين لا يلاحظها أحد في الظلام. وبعد عبور أندريه كيلومتراً آخر مر بجانب أول حاجز أمني. وعندما قفزت السيارة فوق مطبّ الأسفلت الذي ألصِق على الطريق باستهتار وكيفما اتفق، خرج أحدهم حاملا مصباحاً ونظر إلى لوحة السيارة ولوّح بيده أن امضِ قدماً، ولا تتوقف.

بعد ذاك كانت الصحراء، تلك الأرض الرطبة والهامدة بلا حياة، الممتدة مئات الأميال إلى الأمام، وقبل أن تبدأ ترهقُ النفس هذه اللانهاية المفاجئة، الاحتفالية كما الموسيقى، كان على أندريه أن يفتح بسرعة الراديو، هذا الطائر المهدئ للأعصاب والمؤمّن أسباب الراحة والاطمئنان في الطريق الطويل. وها هو راديو مونتي كارلو يظهر على لوحة الجهاز المضاءة على الموجة «١٢٣٣».

«... منذ بداية» عملية عاصفة الصحراء «، خسر الحلفاء، وفقاً لمعطياتهم، ٢٤ طائرة. واعتُبرت مقاتلتان وقاذفتي قنابل أميركيتان من طراز F-15 "النسر" وقاذفة قنابل واحدة من طراز A-6 في عداد الطائرات المفقودة مع أفراد طواقمها الأربعة. ولم يعرف شيء حتى الآن عن اثنتين من طائرات "تورنادو" تابعتين لسلاح الجو الملكي وعن طياريهما".

"أكد ناطق عسكري سعودي أن صاروخ "أرض- أرض" عراقياً من طراز "سكود" تم اعتراضه وتدميره اليوم فوق الرياض حوالي الساعة التاسعة مساء بالتوقيت المحلي. وقد تمكن سكان العاصمة السعودية

من مشاهدة إطلاق أربعة صواريخ "باتريوت"، تابعة للدفاع المضاد، وبعد ذلك أعلنت في الساعة التاسعة مساء والدقيقة الثالثة حالة إنذار صاروخي. وقد نفذ العراق منذ بدء عملية "عاصفة الصحراء" ٢٦ عملية إطلاق للصواريخ في اتجاه المملكة العربية السعودية".

"الإسباني كارلوس ساينز يواصل تصدّر سباق مونت كارلو للسيارات بسيارته الـ"تويوتا سيليكا" من دون أن يسمح بتقليص الفجوة بينه وبين المشارك الشرس فرانسوا ديليكور بسيارة الـ «فورد سيرا...»

مفهوم أن الحديث سيدور الآن حول فوز بوريس بيكر وحول فيضانات في مكان ما من بنغلادش، فلا نشرة أخبار من دون هذه المجموعة من الأخبار. خاصة في هذه المرحلة التاريخية.

"٧٢٠" – موجة بي بي سي (BBC) من لندن:

"... أكد رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية آية الله محمد الحكيم في طهران أن المدن الشيعية المقدسة في النجف وكربلاء تعرضت لقصف طائرات الحلفاء".

"في لبنان، واصل الدولار ارتفاعه خلال الأسبوع الماضي ليصل سعره إلى ١٠٥٠ ليرة لبنانية يوم الجمعة مقابل ١٠١٣ ل.ل. يوم الجمعة الفائت..."

عموماً، لم يحدث أي شيء خارق في العالم. هناك من أطلق الرصاص، وهناك من أطلِق عليه الرصاص، هذا راح يطالب بحقوقه، وذاك أثرى على حساب الآخرين، وثمة من عمل لإثبات وجوده على الساحة.... لكن ما من شيء حصل من شأنه أن يغطي على الأحداث الأخيرة في حياة أندريه.

هنا وهناك ظهر الثلج خجلاً في خطوط بيضاء فوق تلك التلال التي- مثل قطيع من وحوش الليل- راحت تتسلل لتصل إلى الطريق. وعندما لم يكن الثلج يعيق العتمة، كان يخيل للمرء أن أشجار التنّوب تكاد تشكل جداراً على جانبي الطريق.. وعندما بدأ الأسفلت ينسحب نزولاً، بات من السهل تصور أن الطريق يذهب إلى فكّي فم أسود عملاق- إلى

باطن الأرض.

ماذا بوسعه أن يساعد نملةٌ معرجة في عتمة الليل على كاتدرائية في التغلب على هذه العزلة القاتلة في ليلة ليلاء؟ على تحمّل ضربات الإطارات على الحفَر؟ على التعامل بأناة مع صوت مهتمٍ من لندن يحكي عن يوميات الفرقة المدرعة الأميركية الثالثة في رمال الجزيرة العربية؟ المرء يبدأ يخال شيئا فشيئاً أن الحياة كلها لم يبق منها سوى نتف من ذكريات غير مريحة عالقة في مكان ما من الحنجرة، وأن خشبة الخلاص الوحيدة الضئيلة تكمن في أن تبدأ في الدندنة بينك وبين نفسك بدلا من سماع الراديو.

آه كم هي الحاجة ماسة الآن إلى بترونيا بعقله عقل الفيلسوف الآتي من مقاطعة «ميطيشي» في ضواحي موسكو! ..

« نحن ما كانت لنا في الحب أشعارُ...»

لقد جاء الصوت أجش وغير ثابت، وهو ما أثار اشمئزاز أندريه.

«... وتجنبنا الغزل :

فالكلام الحلو تأتي منه أخطارُ

من شرار الحب قد تستعر النارُ...»

لم يقرض الشعر منذ فترة طويلة. لقد فقد الصلة بمنطقة ما سحرية، حيث تغفو الأصوات وتعيش الكلمات. لكم بقي هناك من الكلمات! ولكن لسببٍ ما لم يعد يساعده لتمامُ القمر ليضحي بدراً، ولا تضارب غصون الأكاسيا الواقفة في مهب الريح. ولا الـ «سينزانو روسو» لم يعد يساعده على سماع الصوت الآتي من ذاك العالم. الباب مغلق، فيما راح يغني.

«... لم نكن نعرف كيف الحلم نحلمه سويًا

حتى إن تعانقنا عناقُنا لم يكن إلا رَئيًا،

كان أيُ من كلا الحبَين حباً جسديًا...»

obeikandi.com

ولكن... لا! هذا ليس صحيحا! لقد كتب عن ميمي أشعاراً أكثر مما كتب عن الآخرين! كثير جداً من أغاني الحب الخالدة كتبها وكرسها لها ؛ لأنه يحبها حقا. الشيء الوحيد هو أنه إيروتيكي جداً وصريح جداً في أغانيه. لو عرفت ميمي ذلك، لكانت عرفت كل شيء... ولربما هي تعرف، ولكنها تدعي عدم المعرفة؟ حبيبته ميمي، حبيبة لا حدود لحبه لها!

غنى ثماني أغنيات أو عشراً منها، واستمع مرتين إلى الأخبار قبل أن تبدو في الأفق أضواء مدينة «تدمر» بخطوطها الصفر والزرق. ومن هنا حتى دير الزور بقي عليه أن يجتاز ما يناهز الـ ٢٠٠ كلم. أدرك أندريه أن عليه أن ينام ولو قليلاً. وهو ما عاد يقوى على الغناء، ولكي لا يغمض له جفن تحت وطأة النعاس قبل الأوان، راح يدندن في العشرين كيلومتراً المتبقية لازمة أغنية سخيفة وردت بطريق الخطأ إلى ذهنه، على نسق «تشيبادوريلا»[٩]، بقي يدندنها حتى الإرهاق، إلى حين وصوله إلى العاصمة الرائعة للملكة «زنوبيا» الأبية في ما مضى.

الثلج أظهر تقاسيم الطيات على جبل المنطار. وقد انسلّت سيارة الـ «فولفو» بين جسم الجبل الشامخ وبقعة الضوء الجاثمة فوق أحرف مكتوبة على حائط من الأسمنت تقول «تدمر- فندق قصر الشام» (Palmyra Sham Palace Hotel). ثم حلت العتمة مرة أخرى، وتراكضت أنوار مصابيح السيارة فوق الصخور حيث التفت السيارة التفافاً حاداً صوب الكشافات التي أضاءت في الليل الحالك جدار معبد بِل وخيال قوس النصر، فحولت التاريخ إلى ديكور مسرحي.

إلى اليسار من الطريق، في مكان ما في الوهدة عند تلة أم القيس (وأندريه خير من عرف تدمر) انتصبت أبراج عديدة غير مرئية كان يُدفن فيها أبناء «الذوات»، وقد سلكت باصات السيّاح مساراً آمناً تماما إليها. إنه لمكان جيد كي يفترق المرء بسيارته عن الطريق الرئيس حيث الكثير من الأضواء والضوضاء. ضغط أندريه على مكبح السيارة كي يسمح

٩ Chibadurilla

بمرور شاحنة قادمة أزعجته بأضوائها أيما إزعاج، ثم تحول من الطريق إلى اليسار وأجبر الـ «فولفو» على الزحف صعوداً في المنحدر وهي تتأرجح فوق ركام الحجارة. أوقف السيارة، وأطفأ أنوار مصابيحها، فرأى أن سواد السماء كان مختلفاً تماما عن سواد التلة والبرج اللذين برزا أمامه على خلفية الليل الدامس. كما أدرك أنه ربما أمام الرغبة الجامحة لن ينثني عن الصعود إلى واحد من الأبراج، فقد تكون هذه هي الفرصة الأخيرة له كي يرى هذه الأماكن.

بكل أندريه أزرار سترته، واعتمر قبعته الدافئة التي كان اشتراها في موسكو. وكانت الريح في الخارج تهب هبوبا خفيفا: إنه النسيم الآتي من الصحراء، نسيم هادئ ومضن كما الأزل. كان البرج على بعد عشرين خطوة تقريبا صعوداً عبر المنحدر، وعند سفحه تراءى باب خفيض يشبه الفم المفغور، فيما النافذة فوقه جعلت الواجهة وكأنها وجه بعين واحدة. بدا لأندريه فجأة أن نافذة ضوء أومضت وأن قدميه وقلبه شرعا يمتلئان بحمأة ثقيلة، ولكن بعد لحظة لم يكن من لعبة الخيال المعذِّب هذا إلا أن تسلي وحسب، فيما جاء الأدرينالين المنبه والمنعش للدم في وقته تماماً لأنه طرد النوم. وربما لسوء الحظ، أو قد يكون لحسنه، أن مضى إلى غير رجعة الوقت الذي كانت فيه النفس ممتلئة قوى سحرية كلية القدرة، بينما العقل البشري الرشيد بات الآن يفضل الاعتماد فقط على الذات.

أضاء المصباح والتفت في انحناء ليندسَ في الداخل. «قد تكون هذه، فعلاً، المرة الأخيرة... وربما سيعيدونني حقا إلى روسيا...»

كان من دواعي الرومانسية بمكان أن يقف المرء ليلاً في دائرة الضوء الأصفر الصادر عن المصباح في مدفن مهيب شيد قبل ألفي سنة خلت. ظل البرج بحالة جيدة، على الرغم من أن هذا لم يكن سوى مجرد هيكله المصنوع من الحجر، فتلبيسه مع كل ما هناك من تفاصيل قد انهار أو تم «قبعه»، أي نزعه وسرقته... إلى هنا مثلاً انزاح ناووس من الحجر أو الطين مع الشخص المدفون فيه، وانزلق على هذه النتوءات، ثم راحت الرياح الجافة

الآتيـة من الصحراء عبر العصور تجفف الجثمان، فتحول الميت إلى مومياء... وعلـى هذا النـاووس انزلـق آخر... وآخـر... وآخـر... لتصبح هـذه النواويس شـبيهة برفوف المتاجر. وليـس مفهوماً ما إذا لم يـكن «أولئـك» يـريدون أن يـرحلـوا بعيدا عـن الأحياء، أو أن الباقين أحيـاء كان من الصعب عليهم أن يـتركـوا الراحلين يـرحلون. أو أن الصلة التي كانت تربط ما بين نفوس من كانوا أقرباء وهم أحياء، كانت لسبب ما أقوى وأمتن لألفي سنة مضت...

أضـاء أندريـه الـدرج الذي تراكمـت فوقه الحجارة المنهـارة. ولو كان الليـل جليـاً، لبانت النجـوم من النافذة المفتوحة في الأعلـى. وهو عندما راح يتسـلق لأول مرة ليلاً أبراج تدمر، لم يـفهم لماذا أعجب هذا الإعجاب الرهيب بتلـك التجاويـف المليئة بالنجـوم في بيوت مهجورة تلفها السـكينة. ومن المؤسـف أن يـكون الوقت الآن شـتاء، وأن تـكون السـحب قد باتت تحجب الرؤية.

أطفأ أندريه المصباح وخرج. وفي الأسفل كانت تنزلق على جانب التل مقابـل «فندق قصر الشـام» أضواء السـيارات النادر عبورهـا على الطريق. وفي البعيـد كانت تومض أضـواء القرية المائلةُ إلى الزرقـة، وأمامها أضواء كهربائية صفراء مسلطة على الرواق. هناك كانت جاثمة بقايا المدينة القديمة، حيث كل شـيء ينبئ بالماضي السحيق، وكل شيء في تناغم موسـيقي... تيجان الأعمدة المجعدةُ، ثديا سـيدة الجمال والكمال الإلهة فينـوس كنصفي ليمونة... بـرد مدنّق... برد من مجـرد التفكير بالرخام البارد، وربما من جراء الرياح الليلية الآتية من الصحراء. لكانت هذه المدينة عاديـة جدا لو لم تكن تنظر إليها العينان الجاحظتان للإله الرهيب، البعل «بِل» ، من علياء السماء...

تثـاءب أندريـه ، فهو قد أمضى في السـفر حتى الآن مـا يـقرب من ثلاث سـاعات. وحينما عاد إلى سيارته الـ «فولفو»، أخرج الترمس والسندويشات وزجاجـة الكونيـاك، وأخـذ يصب الشـاي ويفكـر بامتنـان في ميمي – فكأنـه راح يـقدم فرض الصـلاة للإلهة التي تحرسـه وتحفظـه. ثم أدار الراديو وهو يمضغ الأكل. من الواضح أن شـيئاً لم يحدث حتى الآن يتسـم

بالفظاعة. فإذاعة «مونتي كارلو» طالما راحت تغدق أسئلتها على الجنود الفرنسيين الذين حطوا رحالهم في مدينة دهوك، وقد شاطرها هؤلاء انطباعاتهم عن طيب خاطر: «... نحن هنا منذ خمسة أيام، ليس هناك الحد الأدنى من أسباب العيش؛ منذ خمسة أيام ولم نتمكن من الاستحمام، أمس فقط اغتسلنا أخيرا... في كل يوم النظام الغذائي نفسه: لحم ضأن، فاصوليا، حساء. المخرج الوحيد بالنسبة إلينا هو أننا رحنا نتبادل الأطعمة مع الأميركيين. أكلهم أيضا ردئ، ولكن، ولله الحمد! هناك على الأقل بعض التنويع! ..»

استيقظ أندريه على ضوء الصباح الشاحب شحوب مريض مدنِف، ومن جراء البرد الذي يلفح وجهه وساقيه. وبدا له كأن في فمه طعمَ صفيح من هذا الصباح الأعمى المغموم، معدنيٌ كهذه السماء. أدرك بحسرةٍ أنه لن يتسنى له أن ينام. فعقارب الساعة أظهرت أنها السابعة والدقيقة العشرون، وهذا يعني أنه لم ينم إلا خمس ساعات. ومن الأفضل أن يكمل طريقه، ففي دير الزور يمكنه النزول في فندق طلباً للراحة في سرير حقيقي، في فندق جيد يعود لشركة فنادق «الشام». فهو لا يستطيع أن يطلب لنفسه مأمورية إلى تدمر، فهذا سيبدو تقريبا مثل مأمورية استجمام إلى سان تروبيز في جنوب فرنسا، أما مأمورية دير الزور فلها ما يبررها، فهناك يعمل ويعيش شريك المؤسسة، علماً أن أندريه ما كان ليذكر اسمه، لعله شيء من قبيل نليم الدين، مع أنه طبعاً، ليس بـ«نليم» (كلمة «نليم» الروسية تعني سمك البربوط النهري، وهذا ما جعله «يضحك في عِبَه»)، ربما هو في مكان ما من دفتر أرقام – نليم أو لا، لا يذكر.

تحركت الـ«فولفو» ببطء إلى الأسفل من فوق التلة الصخرية. الأطلال فقدت سحر الليل وأمست مرة أخرى.. مجرد أطلال تتشرب في ضعةِ دخان شاحنة تزن ٤٠ طناً تزحف خلالها على طريق ذات منحنيات كثيرة معبدة بالأسفلت. جهد أندريه لأن يسرع فيترك وراءه هدير الديزل المثير للاشمئزاز، وبعد بضع دقائق مثلت أمام عينيه مرة أخرى صحراء الشتاء، حيث اندمج الأفق الشاحب بالسماء شبه البيضاء. فقط في البعيد

إلى اليسار كانت تتراءى تلال مسطحة كأنها عضلات ثيران آتية من الفضاء، وكانت بعد ذلك تتراءى في البعيد البعيد تلال أيضا، ولكنها تشبه ضباباً مزرقّاً. حتى لو بلغت سرعتك مائتي كيلومتر في الساعة، سيبقى المشهد الطبيعي يتسم بالحزن والتؤدة، فهو ليس بالمشهد الطبيعي بقدر ما هو مقطوعة في حفل موسيقي لباخ، ويتملكك الرعب حين تفكر في ما كان سيصيب البشر من قرف واشمئزاز لو كانت الأرض حقاً مسطحة! لكم هو فعلاً شيء رائع وعظيم عندما نكون متأكدين من أن الأرض كروية، حتى وإن كانت مفلطحة بعض الشيء.

بعد مدينة السخنة لم تعد موجودة إبر أعمدة التلغراف على طول الطريق، ومن الآن فصاعداً لن تكون ثمة قرية واحدة كبيرة وصولاً إلى دير الزور. وعند أطراف السخنة راح بدوي يركض وراء كلبه مبعداً إياه عن قارعة الطريق السريع. فهو يخشى أن تقتل سيارة أندريه الـ «فولفو» المنطلقة بسرعة جنونية ذلك القطّاش أو الأبقع أو العفرُ[١٠] الذي نشر ذيله الأمغر كالشراع. استلطف أندريه هؤلاء الرجال الذين يحمون هاماتهم من البرد والرمال بأوشحة تسمى الكوفيّات، لا يُرى من تحتها سوى العينين والشاربين. وقد ذكّروه بمسقط رأسه، بتلك المناطقِ النائية من روسيا التي لم تجد لها موطئ قدم في صرح الحضارة الحديثة.

«وأخيرا، ها أنا في صحوتي أدركتُ أين يختبئ الزمانُ، يتخفى الوقتُ:

فهو باقٍ نائماً في غفوةِ الضياع وهو باقٍ هائماً وظلّه قد ضاع،

عبر الدروب بُلِّلت...»

بدأ يغني مرة أخرى ناقراً بأصابعه بين الحين والحين على عجلة القيادة. هذه الأغنية كتبها عندما كان في رحلة عمل إلى منطقة كورغان الروسية، راقداً عند الفجر المعتم في غرفة فندق يعود للجنة الحزبية المنطقية، شبيه من حيث أسباب الراحة التي يقدمها لنزلائه بالزاوية الحمراء المعروفة التي تعلق فيها صور القادة السوفيات، ومستمعاً إلى سباب

١٠ كنى يكنّون بها كلابهم وتعني تباعاً الكلب الذي يقطع فريسته أرباً أرباً، والكلب المبقّع والكلب الشجاع الشديد

الحمّالين الذين يرمون الصناديق المحتوية على علب الكريما وزجاجات الماء المعدني «بورجومي» من الشاحنة لنقلها إلى بوفيه المسؤولين القياديين. فماذا يمكن أن يكون أكثر غمّاً لشاعر من فندق اللجنة الحزبية في كورغان؟..

«... وتحت السكة هيكل العربة الملوّى –

كوحوش خرافية منسية،

كوحوش يوم القيامة، معركة هرمجدّون

هذا اليوم الآتي، الآتي، ولكنه لم يأت بعد...»

التلال المسطحة أشبه بالوسائد المغطاة ببطانية واحدة لا نهاية لها.

وسيارة الـ «فولفو» راحت تنهب الأرض نهباً في رحابها السهلة تتحاشى الإطارات المهجورة،

قافزة بهمة وحيوية على العبّارات فوق الوديان المتعرجة الكسولة والمنتعشة بعد انهمار المطر

مجتاحة بين الفينة والفينة ديكورات الغرب الأميركي في هوليود،

حيث إلى اليمين ـ تلال كشاطئ بحر جفّ ماؤه،

وإلى اليسار – في البعيد البعيد

كعكة ضخمة،

وسور قلعة

وسقف قصرٍ تحت الأرض ضارب إلى الزرقة...

ومن جديد يلفّ التل الطريق بمخالب كأخطبوط أخلد إلى الراحة. ومن جديد يمتد وراءه فضاء مسطح هائل بني اللون وصامت لا نهاية له تخططه شرائط من الثلج هنا وهناك بين خصلات العشب الجاف الحزين.

السحابة مستلقية، وقد رفعت ذيلها ومدّت لسانها...نعاج...

وهل النعاج وحدها هنا تأكل؟؟؟

لو كان بترونيا هنا لقال أنه لأمر عجيب أنْ حتى البعيد البعيد يُرى، وأنا لا أرى أي شيء...

وفجأة ظهرت في عرض الصحراء لوحة إعلان للثلاجات تبين أن المدينة باتت قريبة من هنا. وجاء هذا في اللحظة المناسبة لأن أندريه كان قد بدأ يدب فيه النعاس. وبعد قرابة كيلومترين بدأت تترى لوحات الدعاية للإطارات وللمياه الغازيّة «ماندرين»، وتصطف الأشجار المحدودبة، ويتراءى مصنع صغير يتصاعد منه الغبار والدخان، ثم مصابيح ومصابيح ـ وفناءات خلفية تثير الاشمئزاز، مترسخة في كل مكان يسكن فيه الناس. ثم يظهر فجأة شارع ذو منازل من ثلاثة طوابق مريحة، حيث خلف الأسوار شجيرات متشابكة، وتحنو فوقها فروع مترامية الأطراف لأشجار الدلب، والناس تسير على الطريق العام، وهي لا تفهم لماذا يخصص هذا الحيز الكبير للسيارات إذا كان عدد السيارات أصلاً قليلاً جدا. والنعاج، بطبيعة الحال، تقلّد الناس.

النسوة، النسوة المزركشات كأعلام دولية ملونة، يسرن بتؤدة، مثل البط.

ها هي مدينة دير الزور.

باختصار، المحافظة.

ثانية من التردد والتباطؤ عند مفترق الطرق كانت كافية ليقفز على الفور شاب يتاجر في السوق السوداء فيروح يصفّر بصوت حاد، وينحني إلى الأمام كرأس كوبرا، عارضاً على «المسيو» سجائر «مارلبورو بورومال» مهربة...! ..». رفع أندريه حاجبيه مشيراً بإيماءة يعرفها الناس المحليون بأن لا حاجة له بها. فرفع له الشاب التحية!.

ابتسم زامورتسيف. فالله وحده يعلم كم كان يشعر بالارتياح في هذه المدينة التي كان قضى فيها عاما في ما مضى كمترجم عسكري... عامٌ من سنيّ الفتوة قد غرق في ضباب الذاكرة.

كان فندق «فرات الشام» إلى اليسار، وإلى اليمين كانت هناك قطعة من تلك الحياة الغابرة بقيت بين شارعي سينما فؤاد وحسن طه. ومرة أخرى، كما كانت الحال في تدمر، لم يستطع التغلب على ذاته، على الرغم من أن عينيه كادتا ألا تريا العالم وكأنه ملفوف بكيس من النايلون. تحولت الـ «فولفو» في معرض استسلامه لأفكاره إلى اليمين، وأصبحت تبدو أكثر ضخامة وأقل قدرة على المناورة مع تغلغل زامورتسيف أكثر فأكثر في الشوارع والزواريب الضيقة وحيث المنازل افتقدت وقفة الفخار والكبرياء. ها هي سينما فؤاد وقد تحولت إلى محلات للتسوق، ولكنها بقيت حتى الآن، كما كانت في ذلك الوقت، المكان الرئيسي عن حق في المدينة، على الرغم من أنها، في الواقع، مجرد سوق شبه حقيرة ذات فنادق تشبه قُنَ الدجاج تتنافس فيما بينها على اسم «الفندق العربي الكبير- أرابيك غراند أوتيل» أو اسم «فلوريدا»، أو حتى اسم «جامعة الدول العربية»، علّ ذلك يشنف آذان المارة. كاد أندريه وهو ينظر إلى كل هذا يصدم بسيارته بائع العِتقيّ الذي راح يحرك بتكاسل دوّاسات دراجته، بل بالأحرى، الأكياس المتدلية من جانبي هذه الدراجة. ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يجبر نفسه على الانفصال عن الماضي وراح يسير قدماً ببطء على أعين الفضوليين، وكل تفكيره منصبّ على تلك الحقبة المنصرمة.

لوحة تشير إلى مصوّر من آل البحري... لعله لا يزال إلى الآن حياً يرزق. هل أعرّج عليه؟ .. لا، لا! لا حاجة للعبور إلى الماضي... وبعد قاب قوسين أو أدنى من هنا، غير بعيد من الكنيسة الفرنسية القديمة يقع المنزل الذي عاش فيه المدربون على الطيران الروس. «بيريفود تشيك بيريفوديت بلوخو، بريباد افاتل ني بانيمايو...»[11] وهنا شقة ذاك الملازم السوري الشاب الذي زاره أندريه ذات يوم، فتظاهر الملازم بأنه خرج ليطلب

١١ أي «المترجم لا يترجم جيداً، وأنا لا أفهم على الأستاذ». هذه العبارة الروسية كان يلفظ الطلاب العرب كلماتها التي تضم الحرف p الروسي وكأنه حرب الباء العربي، أي بلكنة عربية واضحة تثير ابتسامة سمحة لدى الروس

الشـاي، فيما جلسـت زوجتـه إلى جانب أندريه سـائلة إياه: «هـل تريد أن

تطلع علـى المجلة؟». كانـت في المجلة صفحات تضم صـوراً إباحية، ومع ذلـك راحـت تتصفحهـا دون وجـل أو حـرج. «هـل تعجبك؟». لقـد كانت هـذه امرأة ممتلئـة، وجريئة جدا بالنسـبة إلى امرأة عربية... هـذا علماً أن العربيات قويـات أكثر مما يُظَنّ فيهن... فأمالـت وركها وفخذيها بحرارة وإصـرار ناحية أندريه حتى أنه ارتبك وذهل ذهولاً شـديداً عندما لاحظ أن الضابط الملازم راح يتجسـس عليهما من الشـرفة. فقط في وقت لاحق، بعد ذلـك بكثير، أدرك أندريـه وهو يحيي في الذاكرة صـورة الورك والمجلة وعينـي الملازم اللاهفتـين، أن الزوجين كانـا يحبان أن يمارسـا الحب مع ثالث، والأوروبي الأشقر القحّ كان يعجبهما كثيرا، ولكن هذا الأوروبي لم يكـن في تلـك اللحظة يعرف مـا في خلدهما، فهرب هروباً سـريعاً وهو يتمتم بلسان ثقيل بعض الكلمات التي لا تعني شيئاً.

آه يا سـن الشـباب، آه منـك! لمـاذا سـذاجتك وبراءتك تُتذكـران الآن كهفوة مخزية؟ ..

بعد أن اشـترى زامورتسـيف عند بائع المشاوي في الشارع فرَوجاً كان ذاك قد شواه بالأمس، تحول طريق سيره باتجاه فندق «شام الفرات».

في السـاعة التاسـعة والدقيقة السادسـة والأربعين دخلت الـ «فولفو» بوابـة الفنـدق وقد كسـاها الغبـار الكثيـف كمدرعـة تابعـة لثوار. فلفتـت الأنظار على الفور في موقف السـيارات حيـث كان عدد قليل من هذه: سـيارتا «فولفو- ستيشـن» اثنتان مسـرفتان في الطـول بيضاوان ذاتا أرقـام زرق تخصصان هنا عـادة لنقل وفود النقابيين من الدرجة المتوسـطة

المتسـكعين علـى أبواب شـتى المؤتمرات وما شـابه، أو وفـود الصحافيين الماكريـن المنافقين. كمـا كانت هناك أيضا بضع سـيارات ذات لوحات صفراء من تلك التي تعطى عادة للأجانب، وحتى ثلاث أو أربع سـيارات ذات خطوط حمـراء خاصة بالدبلوماسـيين. وقد انتاب أندريه شـعور غير سـارّ

عندما رأى الرقم ١٣٥ وهو رقم لوحة إحدى السيارات العائدة لسفارة بلاده، السفارة الروسية. كانت هناك سيارتان اثنتان على الأقل من السفارة. تردد زامورتسيف لحظات قليلة: أينسحب بهدوء، قبل أن يراه أحد أم يبقى؟ ولكنه بعد ذلك قال في نفسه: أأحمق أنا، إن من الأفضل أن يرى شخص ما أن بينك وبين بترونيا مسافة تناهز الخمسمائة كيلومتر.

دخل أندريه الصالة الأنيقة وهو يلوح بحقيبة تسوّق شبكية بلاستيكية، ورأى فورا خودملينسكي . هذا المتأنق أليوشا خودملينسكي الذي كان مجرد مراسل لوكالة "تاس"، ولكنه كان يتعالى وكأنه إله من آلهة الأولمب تنكر في زيّ "آلان ديلون" . والسيارة الزرقاء المغبّرة المتوقفة عند الفندق هي سيارة ديلون هذا.

خودملينسكي رأى هو أيضا، بطبيعة الحال، أندريه الذي كان يدخل عبر الباب الدوار مع الفرَوج وحقيبة السفر، وكانت على رأس خودملينسكي قبعة دافئة اشتراها في موسكو، فقال بازدراء واستخفاف وقد غلب صوته الآتي من جبل الأولمب خرخرة نافورة الماء المصنوعة من الرخام ومفاتيح كلايدرمان:

ـ أوه، يا له من مشهد تعوّدته. أرى أحدهم في مهمة!!!

كان أليوشا خودملينسكي جالسا بين الرخام والصبار وحول رقبته وشاح "آلان ديلون"، ويرتدي قميصاً أبيض ناصعاً وبنطلوناً حُشِر بأناقة في حذاء مذهل. راح يرشف القهوة من فنجان "شفّة" صغير جداً وكأنه يفكر في أمر ما. وقد اتخذ وضعية المتخلّع غير المهتم بأي أحد وأي شيء، بحيث بدت قبعته لأندريه وكأنها استحوذت على أذنيه ككعكة من رَوث. ورأى أندريه زامورتسيف في الوقت نفسه في آخر القاعة مراسل التلفزيون نيبييف مع المصوّر ساشا (نسي اسم عائلته كلياً، وربما كمصور لا يمكن له أن يفصح عن اسم عائلته) فقال بشيء من اللؤم:

ـ أوه! أرى هنا موظفي إمبراطورية الحقيقة!

لا لأنه لم يكن يحب أمثال هؤلاء الصحافيين، ولكن طريقة المتأنق أليوشا خودملينسكي في الحديث أخذت تفرض نفسها فرضاً على أندريه أيضاً، ومعلوم جيداً أن المتأنقين هم عادة أشد أذى من البلهاء. فجأة، أخذ يتساءل في قرارة نفسه: أمر عجيب، ماذا يفعلون هنا كلهم دفعة واحدة؟ قد تكون ثمة فائدة ما من هروبه إلى هنا إذاً؟ ـ ثم واصل حواره على أية حال قائلاً:

ـ الحمد لله أني لا أقرأ صحائفكم، فقراءة "دليل البستاني" أفيد لي منها. قل لي بربك قولَ صحافيٍ لأبلهَ لا يفقه شيئاً:

ـ هل هذا هو سر مهنتكم؟ في برنامج "الأخبار" يحاولون إقناع الناس بأن ٩٠٪ من السكان موافقون على مرسوم يلتسين، وفي برنامج "الوقت" الإخباري يقولون إن ٩٠٪ غير موافقين!

اشتفّ خودملينسكي تفل القهوة من أسفل الفنجان بمتعة لا لبس فيها اشتفافاً كان على أندريه أن يتمرن عليه أسبوعاً، وأشار إلى الخادم أنه ينوي دفع المترتب عليه. وقال بصوت المتعال وكأنه صوت هابط من جبل الأولمب:

ـ نعم، هذا هو سر مهنتنا.

وفي الوقت نفسه، ظهر في بهو الفندق وجه أحدهم أيضاً تعرّفه أندريه زامورتسيف وهو وجه مراسل جريدة "إزفستيا" جينيا كوروفنيكوف. فسأل أندريه مندهشاً:

ـ هل عندكم اليوم اجتماع كشفيّ على نطاق واسع؟

ـ واسع جداً، ـ أكد خودملينسكي وهو ينهض من كرسيه ويشد عليه سترته.

ـ مرحبا، أندروشا، إلى أين أنت ذاهب؟ ـ كان ذاك كوروفنيكوف؛ وكان يمكن لأندريه أن يومئ برأسه لنيبييف ولساشا وهو ما فعله.

ـ صح، جينيا، أريد الذهاب إلى حيث لم تطأ قدما صحافي قبلي.

ظهر من لهجته كما لو أن في الأمر إهانة تقريباً لتلك الأماكن التي وطئتها قدما أحدهم. لكن كوروفنيكوف الهنيّ الدمث لم يفعل سوى أن تبسم ضاحكاً ضحك استهزاء.

ـ برافو، حسنا... كنت أريد أن أدعوك إلى الذهاب معنا، يا صاحبي. ولكن....

ـ أنا ذاهب إلى الشمال.

ـ و نحن أيضا إلى الشمال.

ـ في صدد تغطية أخبار الحرب عند الجيران؟

ـ حزرت، يا صاحبي. ذاهبون إلى هناك لتفقد معسكر للاجئين العراقيين بالقرب من الحسكة. مسافرون في رحلة، إذا جاز التعبير... و... ـ مع عدم المؤاخذة ـ لنتمتع ببعض الراحة...

فكر زامورتسيف في اقتراح كوروفنيكوف فوجد أنه فعلاً على حق، فلماذا لا ينضم إلى مجموعتهم ويسافر معهم فورا إلى الحسكة؟ طبعاً، أن يكون وحده أفضل وأجمل إذ بإمكانه آنئذٍ أن يخلد إلى النوم فيشبع نوماً، ولكن لو حدث أمر ما في الطريق؟ .. أو إذا ما صادف حواجز فجأة فقد يثقلون عليه بأسئلتهم وتحقيقاتهم؟

ـ حسنا، لا تعذب نفسك، أنا كنت أمزح وحسب، ـ قال كوروفنيكوف.

ـ مزاحك في محله. جينيا، أنا سأمزح أكثر: سأذهب معكم.

ـ هيا. عليك فقط أن تستأذن ستوردوف في الأمر.

تذكر أندريه أن ستوردوف... هو المتحدث باسم السفارة، الملحق الصحافي.

ـ هوذا آت، يا صاحبي. هيا، تحرك، سننطلق قريباً.

كان الملحق الصحافي سكران قليلا. سرت شائعات بأنه كان "واحداً من أولئك"[١٢]، وهو حقا كان يشبههم، وخاصة بعينيه، ولكن أندريه كان يعلم جيداً أنه ليس «واحداً من أولئك». وكان يسير بجانب

١٢ يقصد المخابرات

ستوردوف في مشية رسمية سوريٍّ سمين ذو مظهر يدل على أنه من جماعة وزارة الإعلام.

ـ مرحبا، أيها الرفيق ستوردوف. ـ قال أندريه. ورفع قبعته وأمسكها بيده، فكأنه نسخة طبق الأصل عن ذلك الفلاح في لوحة الرسام ريبين.

إعوَجّ حاجب الملحق الصحافي من شدة الدهشة وبانت على وجهه علامات البرودة والتجاهل...

ـ أندريه زامورتسيف، من البعثة التجارية. أنا أمثل شركة...

ـ أنا أعرف بعثتكم هذه، ـ قال ستوردوف، أنت هنا في مأمورية؟

ـ نعم. ولكن ليس هنا، بل أنا ذاهب إلى الحسكة، وأود أن أنضم إليكم.

ـ أخشى أن لا يكون هذا ممكناً.

ـ لماذا؟

ـ أرجوك، اسمح لي أن أقرر هذا الأمر بنفسي.

شعر أندريه فجأة بشيء من الاغتباط.

ـ كان هناك مسؤول من معارفي يعرف كيف يشدد على أنه رئيس ومهمّ ولكن بطريقة لبقة، فهو كان يقول لمرؤوسيه: "أنا ذاهب، من بعد إذنكم، لتناول طعام الغداء".

ضبط الملحق الصحافي أعصابه ولم يجب. هو لم يكن يعلم أن أندريه بات على شفير، ويمكن أن يفعل أي شيء تقريبا، ومن المرجح أنه راح يفكر في مبعث هذه الجراءة بل القحة تصدر عن موظف عادي في البعثة التجارية. في هذه اللحظة، وجد بقربه مرة أخرى كوروفنيكوف الذي كان قد انصرف للحظات إلى مكان ما. فانضم هذا الأخير على الفور إلى الحديث:

ـ فالنتين، علامَ التردد؟ فليذهب أندريه معنا.

ـ أنا لست مخولا للبت في مسائل من هذا القبيل.

ـ وما الداعي لأن تكون مخولاً هنا؟ إسكب وإشرب!

كان ستوردوف يطلق الهواء من أنفه ببعض الشخير، أما السوري المدعبل فبادر إلى القول بلغة روسية ذات لكنة:

ـ ما عليش. ما رح نختلف!

ـ أرأيت؟ ـ قال كوروفنيكوف ـ يونس أيضا لا يمانع.

ـ لي طلب واحد فقط، ـ قال يونس منتقلاً إلى اللغة العربية ـ لقد ضاقت بنا سيارتنا. ألا يمكنك أن تأخذ معك ولو واحداً من الصحافيين على الأقل؟

ـ بكل سرور، ـ قال أندريه وهو غير صادق في قوله، ومن دون أن يشعر كيف أن آلية القدَر الخفية بدأت تعمل في تلك اللحظة من جديد في مكان ما بهدوء ودون ضجيج.

وقال في نفسه: "آخذه إلى الحسكة، وهناك أتركه يعود وحده".

ومن جديد راح يونس يقول متحذلقاً بروسية مكسرة:

ـ من أي قومية تريده؟ يابانياً أو "إنكليزياً"؟

ـ "أنكليزياً"، ـ أجاب أندريه دون تردد.

عندما تنحَى يونس قليلاً، تأبَط كوروفنيكوف ذراع أندريه زامورتسيف بتحبب وقال له:

ـ لماذا يا تُرى فالنتين ستوردوف... يتجاهلك هذا التجاهل التام؟

أدرك أندريه أن كوروفنيكوف سوف يمتعض لو هو قال "ليس لدي أية فكرة". فأجابه:

ـ أترى، يا صديقي، هناك سر: إنه لا يحب أبداً كل من لا يحب سارتر.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ لقد قلت له ذات مرة إنني أكره سارتر شديد الكراهية.

كان من الواضح أن جينيا كوروفنيكوف بقي بعض الوقت يستعيد في ذاكرته ما قيل منذ لحظات، وربما راح يستذكر مَن هو أو ما هو «سارتر» - أهو نوع من الويسكي، يا ترى؟ ثم ما لبث أن استوعب المعلومة واقترح على أندريه:

- لنذهب ونشرب قليلا قبيل السفر... تحسيناً للمزاج.

- أفضّل القهوة، أنا أشعر بالنعاس.

- إنه الطقس، يا صاحبي. أرأيت كيف شحبت السماء؟ كما لو أنه تم لصقها بالجرائد، اللهم اغفر لي. لديّ ما يفيد «على الأكيد» من الطقس العاطل..

عاد أندريه إلى الباب الدوار مع كوروفنيكوف وفي يده الدجاجة التي لم تجد لها بعد راغباً بالتهامها. وما عتم صحافيون آخرون أن بدأوا يخرجون من الفندق شيئا فشيئاً، وهم يرتجفون من برودة النسيم الشتوي غير السار، المتنقل طليقاً فوق هذه المساحات الترابية المقطّعة بشريط الفرات الرصاصي. كان ثمة أشخاص كثر، وهو ما أكده يونس، ومع ذلك كان سهلاً على المرء أن يميز من بينهم اليابانيين الموعودين.

- تعال، تعال، وإلا سنتخلف عن الركب، - نادى كوروفنيكوف أندريه زامورتسيف بمرح مشجعاً إياه.

وتناول من الصندوق الخلفي لسيارته «البيجو» ترمساً وسكب مشروباً في غطائه.

- ما هذا؟

- هذا يا صاح من اختراعي أنا. يتيح لك الإبقاء على الكونياك ساخناً في شتى الظروف الجوية. هيا، قل يا رب!... كيف، هل يساعد؟

- «شربنا الروم، فشعرت أني بين أصدقاء».

- ماذا قلت؟

ـ هذا قاله همنغواي. في «وداعا أيها السلاح».

ـ نعم، أذكر ذلك!!...

أديرت محركات السيارات لتبدأ تطلق من الخلف دخان العادم وراحت أبوابها تفتَح وتغلق. كانت لدى أندريه فكرة مختلفة جدا عن أهل الصحافة عامة، فقد توقع الكثير من الأحاديث والنكات الذكية، لكنه رأى ما يشبه المافيا الذاهبة في «مهمة». لم يكن هناك سوى امرأة واحدة بين الرجال، فوقع نظر أندريه عليها ليجد فيها امرأة عملية حتى الملل. حاول إقناع نفسه بأنه ربما يجب أن تكون هناك نساء... رصينات مكافحات من هذا القبيل. وإن كان من الأفضل أن تكون المرأة أنثى تُعجَب وتقهقه وتخاف، أي أن تكون ذات مشاعر.

اقترب يونس و أمارات الود على وجهه من سيارة أندريه الـ"فولفو"، يرافقه رجل ذو شعر كثيف ونظارات ويرتدي سترة زرقاء.

ـ أندريه! هذا بيتر.

مدَ الإنجليزي يداً باردة مصافحاً بها أندريه.

ـ هالو. أندريو.

ـ هالو.

لم يقابل الإنجليزي أندريه بالابتهاج الذي قوبلت به البيريسترويكا ذات يوم.

ـ هيَا! إلى الأمام! ـ صاح كوروفنيكوف من جانب أندريه وهو يغلق بلطف باب الصندوق.

مرَر أندريه بتعقل وحكمة جميع سيارات وزارة الإعلام أمامه. يبدو أن سائقي المنظمات الرسمية المحليين ربما كأمثالهم في أي مكان من العالم لا يحسنون القيادة كما يجب، أياديهم عوجاء كما يقال. هذا مثلا الإشبمان مدلّى من الخلف كضرع بقرة... أو كشيء من هذا القبيل عند هرَ. سائق محترف(!) كهؤلاء لو سار خلف الـ «فولفو» لـ «طحش» أضواءها

الشبيهة بطاولة الشطرنج، هذه الأضواء الرائعة... كوروفنيكوف أيضا، بالمناسبة، مرر تلك السيارات أمامه.

سارت السيارات الهوينى واحدة تلو الأخرى في الطريق الممتد على طول النهر، فيما اندفعت السيارات الأمامية بحدة لتحذو حذوها باقي سيارات الموكب. وبدأ سباق مثير في الرتل خاصة عندما أخذ يعمي الأعين ذيل الدخان المنبعث كلولب من الخلف المربع الشكل للسيارة السائرة في المقدمة، وعندما أخذت الإثارة المحمومة على شاكلة تلك التي أحدثتها البيريسترويكا تلزم المنزعجين أن يسرعوا إلى الأمام مطلقين وابلاً من الزمامير والشتائم، متجاوزين الشاحنة الثقيلة السائرة ببطء مزعج من أمام أنفها الأجدع، وهي التي اعتادت أن تكون الملكة في شوارع الدير شبه الفارغة.

بعد مضي عشر دقائق، كانت جميع السيارات قد عبرت الجسر فوق نهر الفرات تاركة خلفها المدينة.

الطريق بعد الدير مملة كما قبله، والسير عليها يتميز بالرتابة نفسها، ويشبه هرع صرصور على رصيف. غير أن الأعمدة أضحت أكثر مما كانت عليه لدى الخروج من تدمر، وهي في كلا الجانبين من الطريق.

"بيتر الإنجليزي" لزم الصمت على طول الطريق. ولكي يشجعه أندريه على المحادثة، اخترع قولاً مأثوراً وأخبره إياه بلغته المميزة الخاصة به:

ـ المفازة، يا بيتر، هي، في الواقع، المتاهة عينها، لكنها متاهة غير مألوفة، متاهة بلا جدران، dont you think so?[13]

تمتم بيتر رداً على ذلك بكلام غير مفهوم.

بترونيا، في مثل هذه الحالات، كان قال: "لكل ذي نفسية مريضة نفسيته الخاصة".

١٣ ألا تعتقد ذلك؟

ثم اختفت أعمدة الدخان. وها هو المشهد الآن وقد أخذت تميزه من وقت لآخر خنادق ودساكر من الطين متشابهة ذات أبراج لسَحب المياه عريضة القاعدة، شبيهة بالفطر أو بسكان كوكب المريخ السمان من فيلم "حرب العوالم". وكانت تُرى أحيانا قليلة في البعيد أشياء غريبة بالنسبة إلى العين غير الخبيرة عند قارعة الطريق كمثل بدوي يستريح وهو جالس القرفصاء. لا هذا ولا ذاك ولا ذلك ما كان ليكسِب المكان سحراً إضافياً.

لم تكن هناك حركة مرور على الطريق تقريبا، وعلى جانبي الطريق بيوت من الطين وأكوام من الحطب، بالقرب منها حمار حزين حزن الحكماء. كما لو أن كل شيء رؤي لخمس عشرة دقيقة خلت نقله أهلُ الجن إلى الأمام تسليةً واستمتاعاً. ولم يتمالك أندريه نفسه مرة أخرى فقال :

ـ ولكن يكفي أن نتصور فقط أنْ مرت في هذه الأماكن من هنا ذات يوم جحافل الرومان. ومن قبلهم الاسكندر الاكبر المقدوني، أليس كذلك؟

- م.م.م...

مرة واحدة فقط هذا الإنجليزي البليد «الميت» انتعش فسأل:

ـ أندريه، لماذا يا ترى يومض السائقون هنا بعضهم لبعض بأنوار سياراتهم؟

ـ للتحقق من أن أحداً منهم لم يغفُ فوق عجلة القيادة.

ـ I see[14]...

بعد حوالي خمسين كيلومترا تذكر أندريه أنه لم يستمع إلى الراديو منذ زمن.

«... كان لاستقالة وزير الدفاع الفرنسي جان بيير شِيفنمان[15] الذي يشغل هذا المنصب منذ العام ١٩٨٦ وقع القنبلة. وقد قال إن بلاده، إذا ما

١٤ فهمت

١٥ Jean-Pierre Chevènement

استمرت في اتباع «منطق الحرب»، ستخاطر بالابتعاد كثيرا عن الأهداف التي حددتها الأمم المتحدة لأجل حل أزمة الخليج. هذا وعين الرئيس ميتران بيير جوكس[١٦] وزيراً للدفاع مكانه».

«قامت طائرات الحلفاء خلال الـ ٢٤ ساعة الماضية بـ٢٦٠٠ طلعة جوية فدمرت بين ما دمرته قافلة عراقية تتألف من عشرين دبابة وعربة مدرعة. وقد نفى ناطق عسكري في الرياض التقارير التي تفيد بأن بعض الجنود المغاربة قتلوا عن طريق الخطأ بنيران الطائرات الأميركية، وقال إن التنسيق بين قوات التحالف على ما يرام. وفي الوقت نفسه، ذكرت السلطات العراقية أن طياراً أميركيا كان قد أسر بعد إسقاط طائرته لقي حتفه خلال أعمال القصف الجوي لقوات التحالف في بغداد».

«تباطأت سرعة انجراف بقعة نفطية ضخمة، ما أحدث ارتياحاً لدى السكان في دول الخليج الواقعة إلى الجنوب من الكويت. ومع ذلك، ثمة مخاوف من أن يلجأ العراق إلى رمي كميات كبيرة من النفط الخام في البحر مجدداً. وتبعد البقعة النفطية الحالية البالغة مساحتها قرابة ألف كيلومتر مربع الليلة الماضية مسافة حوالي ١٥ كيلومترا من ساحل المملكة العربية السعودية...»

«مشاكل شركة طيران الشرق الأوسط» اللبنانية التي... أوقف أندريه تشغيل الراديو. إنه الكيلومتر ٦٧ من بعد الدير. في وسط المشهد الطبيعي الرتيب والممل ظهرت قرية أخرى ذات اسم مذهل: «سعادة». ولكن لم يعد له جلَد لأن يتحدث عن ذلك إلى بيتر، مثلما لم يعد له جلَد لأن يحدثه عن أن كُوَم أكواخ الطين بحذاء الطريق ما هي إلا نموذج حي للمدن الأكادية والسومرية والآشورية التي كان حصل في شأن معلوماته عنها على علامات غير مرضية في مدرسته الإنجليزية. وكان من بين هذه الأكواخ كوخ متميز ذو حجم كبير، هو قصر المرزبان بأسواره الضخمة...

وعند الكيلومتر ١١٠ ظهرت إلى اليمين تلة كبيرة فوق سهل، أشبه بقبعة منسيّة.

١٦ Pierre Joxe

وعند الكيلومتر ١٢٠ ترامت على جانبي الطريق غابة لطيفة ذات شجيرات يصل ارتفاعها إلى مستوى الخصر، وربما أعلى، ثم انطلق الموكب بجانب سياجات لا نهاية لها. وبعض الأبنية التي هي أقرب إلى الجدران، ثم عبَرَ جسرين فوق مجريين مائيين بلون المناقع، وفجأة برز قصر قريب في شكله من القصور الإنجليزية وراء الأشجار. عجباً، أفي مثل هذه البرّية؟! انظر أي مدخل يوصل إليه!!! وأية سلالم!!! فقط يمكن أن يعيش هنا شخص يتوقف عليه مصير التقارير المقبلة، والكثير الكثير أيضا يتوقف عليه! ـ إنه محافظ الحسكة.

ملأت السيارات الساحة أمام المبنى، وخرج الصحافيون منها وكل منهم يمد ساقيه ممرناً إياهما بعد تيبّس من جراء السفر المضني، وفي الجزء العلوي من الدرج الأنيق ظهر ما يشبه شفيك، الشخصية الهامة في مؤلف برتولد بريشت، كأنه أرسل لاستقبال الصحافة العالمية. وخرج بيتر هو الآخر من السيارة بعد تلفظه على عجل بكلمة «Thank you»[17] لم تكن تعبر عن أية مشاعر امتنان.

فكر أندريه في دخيلته: «وأنا ما شغلي هناك؟». لكن واحداً من الخدم ابتسم ابتسامة سعيدة بانت خلالها كل أسنانه، وراح يلوّح أمام غطاء محرك السيارة داعياً إياه إلى دخول المبنى، ثم فتح باب الـ «فولفو» مؤكداً على دعوته تلك.

ـ تفضل!...

كان يمكن سماع «تفضل!» هذه من جميع الأركان والجوانب. بالطبع، بالنسبة إلى هذه الأماكن مثل هذا الحدث يحدث، في أحسن الأحوال، مرة كل قرن. كم من البشر لا يعرفون حتى أن هناك مدينة في العالم اسمها الحسَكة! وغدا ستكتب كل صحف العالم (وإن لم يكن بأحرف كبيرة، وإن كان ذلك على الصفحة الثالثة فقط)، أن ثمة غير بعيد من هنا مخيم للاجئين من العراق قد أقيم، وستذكر الإذاعات بلغات مختلفة ليوم واحد في جميع أنحاء العالم اسم: الحسكة، الحسكة...

١٧ شكرا

في الطابق الثالث جيء بحشد الأجانب إلى قاعة الاستقبال ذات السقوف الضخمة، وأخذ الموظفون المحليون على الفور يدخلون و يخرجون، يتصلون باهتمام مصطنع عبر مجيبين عن جميع الأسئلة بكلمة: «إن شاء الله».

وراح رجل بزي تفصيله شبه عسكري مقصوص الشاربين، ويبدو أنه سكرتير، يتحدث بإنجليزية مقبولة جدا خدمة الضيوف. أولى هذا الرجل أليوشا خودملينسكي اهتمامه في المقام الأول، فلعله كسكرتير أعجب كثيرا، على ما يبدو، بما يُظهره هذا من عوائد الأمراء والأعيان.

ـ تفضل، مستر، إذا كنت تريد فيمكنك خلع سترتك، هنا مكان جاهز لتعليق ملابسك.

خلع أليوشا سترته وقد انتشى بكلمات الإطراء. ولكن أبا الشوارب ذاك كان مبالغاً جداً في إظهار أنه جاهز لـ «أمرك، سيدي» ، فلم ينفضَ عنه بسهولة قائلاً:

ـ الوشاح أيضا يمكنكم نزعه، الجو عندنا دافئ.

ـ "سينبغي على «آلان ديلون» هذا أخيراً أن يترك الوشاح!"ـ قال أندريه في نفسه وقد أحس بالسعادة والشماتة في آن.

تردد أليوشا لحظة ثم خلع فعلاً وشاحه. فصُعق أندريه من شدة الدهشة، ذلك أن صليباً فضياً كبيراً كان يتدلى من تحت الوشاح عند فتحة قميص خودملينسكي الواسعة.

لم تمض دقيقتان حتى انقسمت الشعوب جميعها إلى معسكرين: من هم منّا ومن هم ليسوا منّا، أغراب. الغربيون تجمعوا في زاوية، والسوفييت في زاوية، وانفصل اليابانيون عنهم في مجموعة صغيرة. كانت الصحافية العابسة المحيّا الكالحة الوجه في مركز الاهتمام. فحاول الجميع التملق لها، حتى من الجانب السوفياتي كانت تلقى نظرات سريعة وتتمتم بكلمات تحبب سخيفة. وهذا ما أغضب أندريه. فهم يتملقون لهذه المرأة العَبوس الجَهوم فقط لأنها أميركية، وهذا بالنسبة إلى المتحذلقين خمسون في المائة من الافتتان. مع أن هذه المرأة لم تكن لتشبه

امـرأة بأي حال مـن الأحوال. فهي لا تسـتطيع حتى مقابل مـالٍ أن تنظر إلى الرجل نظرة فتيات شارع التجهيز بدمشق. فنظرات بنات شارع التجهيز ذات قوة توراتية تغرز في القلوب والنفوس مثل الخناجر الملطخة بدم الأساطير...

مـن جديد راح أشـخاص يدخلـون و يخرجون، ومن بينهـم بدوي طويل القامـة في كوفيـة أزيحـت إلى الجزء الخلفـي من الرأس، وفي سـترة بنية اللـون فوق جلاّبية رماديـة تدلّت حتى أخمص القدمـين، وفي مَداس ثقيل ووشـم على الصدغين في شـكل نقاط ثلاث، سـأله أبو الشوارب المتأنق: «هل أودعت المسدس؟»، فأجابه البدوي: «طبعاً، تركته في الأسفل».

بين كل هذا الهرج والمرج لم يكن للمرء أن يلاحظ في الحال أن بوابة المكتـب العالية قـد فتحت، وأن المحافـظ خرج منها وهـو الآن هنا في عداد الجمهور. ولكن عندما استوعب ما حدث، هدأت الأحاديث وبات الحاضرون كأن على رؤوسهم الطير، فقط موظفو الخدمة استمروا يروحون و يجيئون في صخب.

كان المحافظ يرتدي معطفاً طويلاً أسـود أنيق. حيا الجمهور بحرارة، وحتى بمرح، ثم سأل شخصاً واقفاً إلى جانبه من عداد بطانته، «هل الكل جاهـز؟» وحين سمع تأكيداً متسـرعاً بأن الكل جاهز، خرج بسـرعة إلى الممشـى المفضـي إلى الدرج. فهـرع مرافقوه في إثـره، فيما تنـاول الضيوف الأجانب ملابسهم إذ أخِذوا على حين غرة وجرفتهم سرعةّ ما حدث وانضموا إلى الموكب في الخلفية .

تخلف أندريه خصيصاً فسـار في آخر طابـور النازلين على الدرج على أمل التخلص بذلك من بيتر، فأبو النظارات هذا سيفضل بالتأكيد، حسبما توهّم، الانضمام مرة أخرى إلى جماعته على أن يبقى كالغريب في ضَعَةٍ عند سـيارة الـ «فولفو» العائدة لأندريه. ولكن هذا الأخير واجه خيبة أمل كبـيرة في القدرة على فهم أولئك الأجانـب، عندما وجد أن بيتر اللعين لا يزال هنا، يروح و يجيء ناظراً بانتباه إلى السـيارات المغادرة، كطفل تركِ وحيداً.

قال زامورتسيف للإنجليزي وهو يقترب من سيارة الـ «فولفو» وينظر إليه من فوق سقفها الزيتي المغبر:

ـ أعتقد، يا بيتر، أنني لست بحاجة لأن أذهب إلى المخيم.

انتعش بيتر وهو المتبلّد الإحساس. وتبين أن بوسعه أن يتحدث بسرعة وكثيراً. في البداية راح يطرح السؤال كما على متلق غير مرئي، لماذا كان عليه أن يصدق «هذه الوزارة السورية،» وبعد ذلك، لماذا كان عليه أن يصدق «هؤلاء الروس». حاول أندريه أن يشرح للإنجليزي أن من الأفضل له عدم إضاعة الوقت في الكلام، بل استيقاف أي سيارة والانضمام مجدداً إلى البيئة الصحافية من أبناء ملّته. وعبثا حاول. فالحوار الروسي الإنجليزي تواصل واستطال حتى لم يعد من أمل بأن يأخذ مثل هذا الخيار مجراه. ولم يمض وقت طويل حتى لم يبق هناك سوى آخر «لاندروفر» تابع للحرس وممتلئ برؤوس ذوي الشوارب. جميع هذه الرؤوس كانت تنظر بفضول مفعم بالإصرار، بينما كانت واحدة منها تصرخ بين الحين والحين عبر النافذة «مسيو!»، ومع هذا الصراخ كانت تُمدّ يداً مشيرة بالحركات: امض، لنذهب! أدرك زامورتسيف أن حظه سيئاً وأن الذهاب إلى مخيم اللاجئين بات أمرا واقعا. فأدار بتجهم المفتاح في باب السيارة ليفتحه ويدخل السيارة مع بيتر المتجهم مثله، وانطلقت الـ «فولفو» للحاق بركب القافلة، وراحت سيارة الـ «لاندروفر» الشبيهة بخزانة خضراء تتهادى في إثرها.

اتضح أنه لم يكن من ضرورة للذهاب بعيدا. فالمكان قريب، ولم يبق دون المخيم سوى أربعين كيلومترا عبر السهوب الصحراوية، حيث نتأ إلى اليسار بركان أسود خامد منذ أمد طويل، وأثار فضول أندريه كثيراً سؤال ما إذا كان ذاك هو تلك «القبعة» التي شوهدت جيداً عند الاقتراب من الحسكة، أم أنها كانت تلة أخرى. وأخيرا، اجتاز الموكب القرية بعد أن سفى الغبار الأبيض وأطار في الهواء أكياس النايلون القديمة وأثار هياج الصبية، ومن ثم بدأ الأسفلت الجديد اللمّاع مثل كافيار أسود مُسِح بعناية على شريحة الخبز، فسارت السيارات عليه بعض الوقت حتى شوهدت في البعيد صفوف الخيام الخضراء للمخيم. بدأت السيارات تتوقف مضايقاً بعضها البعض ومنحرفاً عن جادة الطريق إلى الرمال المطروقة

على جانبيها. ركَن أندريه الذي كان آخر الواصلين سيارة الـ»فولفو» على حافة الطريق، حيث لم تكن تُرى لكون السيارات الأخرى تسترها عن الأعين، ولكن من حيث كان من السهل في الوقت نفسه العودة إلى الطريق المعبد بالأسفلت.

كان المحافظ بمعطفه الأسود قد صار فوق أكمة، وراحت الريح تلوّح ذيله جيئة وذهاباً . وقريباً من هناك كان يوجد جنديان بدينان وعدداً من المدنيين ومترجم ينتظرون بفارغ صبر وصول أولئك الذين بذل من أجلهم كل هذا العناء.

تحرك حشد الصحافيين ببطء من جهة السيارات نحو الأكمة؛ وكان المصورون الحاملون الكاميرات الضخمة على أكتافهم أشبه بالروبوتات، أو بفيلة قادمة من المريخ. وانضغطت الكتلة الفضفاضة من البشر تدريجيا حول المحافظ والوفد المرافق له. ولا بد هنا من الإشادة بالمحافظ الذي لم تغادر البسمة والالتفاتة الودودة محياه كل هذا الوقت، كما لو أنه استطيب كثيراً تلك الوقفة في مهب الريح في ذاك المكان الموحش أمام حشد من الأشخاص المرتدين ثياباً لا تأنق فيها ، والشاهرين في وجهه ميكروفونات مسجلاتهم.

ـ أرحب بالصحافة العالمية، ـ قال المحافظ أخيرا، وتلقف ناصية الكلام إثر الخطاب باللغة العربية المترجم بصوت باهت: ـ مرحبا بكم في أرض محافظة الحسكة!

نقرّ على أزرار الكاميرات وأزيزٌ وصفير يتعاليان منها؛ الصحافيون والمصورون التلفزيونيون يستديرون مع صناديقهم الضخمة ببطء في اتجاهات مختلفة كرافعات في الموانئ... لا، بل قل كفيَلة تنظر مديرة خراطيمها يمنة ويسرة.

ـ... وقد تم بناء المخيم في موقع ملائم... وصير إلى مد خطوط الكهرباء وأنابيب المياه... ٥٠٠ خيمة... الآن هنا ٣١ لاجئاً: ٢٤ طفلا وست نساء ورجل واحد (هدير أصوات انتعاش في حشد الصحافيين)، عبروا الحدود العراقية أمس الأول ...

كان المحافظ يتحدث فيذهب صوته مع الريح. وعندما أنهى خطابه، أخذ الكلام واحد من أعضاء الوفد المرافق هو المفوض الفرنسي من قبل لجنة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، التي تسمى «الأونروا»، مسيو جاك دوبيل[١٨]، الذي أفاد أنه كان متوقعاً أصلاً أن تصل من العراق مجموعة كبيرة من الفيتناميين العاملين هناك بموجب عقود، ولكنهم لم يصلوا لسبب ما، لذلك سيكون على الصحافة والتلفزيون أن يكتفيا بمن هم حاضرون الآن. الجميع بخير وبصحة جيدة، أما بشأن موجة البرد التي حلت، فإن وكالة الغوث وزعت بطانيات إضافية، وطالبت السلطات السورية بتأمين مدفأة على المازوت لكل خيمة.

ثم طرح على المحافظ من جانب الحشد بعض الأسئلة الغبية إلى حد ما.

وإذ تعب المحافظ من الإجابة عن الأسئلة أخذ يجيب بكلمتين عن كل عشر كلمات، وأخذ الحشد بأكمله ينتقل عفو الخاطر إلى المخيم، وأرجل أفراده تسوخ في التراب الرخو في بعض الأماكن.

كان المخيم خاليا، فقط كان يقف في طرف ناء من أطراف المخيم بضعة أشخاص تحرك الريح أطراف ثيابهم الطويلة، وهم يترصدون لحظة اقتراب أهل الصحافة منهم، وقد لفح البرد هؤلاء. كان الأشخاص من الملونين، ولم يكن بينهم سوى شخص واحد أبيض، تبين أنه «الرجل الوحيد» الموعود إياه.

لفت صحافيي ومصوري التلفزة منظر الغسيل المنشور بين الأكشاك والنسوةِ الملونات اللواتي رحن يغطين وجوههن في التزام مغناج بالتقاليد، وأطفالهن شبه البلهاء الذين يقفون من دون خجل أو وجل أمام عدسات الكاميرات. الصحافيون الذين يكسبون رزقهم من دفتر التسجيل ومسجل الصوت سرعان ما اكتشفوا أن السيدات الغريبات الشكل يجبن على جميع اللغات، بما فيها العربية، بالضحك و «الصهللة». ولذلك توجهت الصحافة المكتوبة صاغرة إلى الشخص ذي الجلباب الأبيض الذي دعاهم إليه المترجم.

١٨ Jacques Debelle

وعندما انهمرت الأسئلة على هذا اللاجئ الذي تشجع بالجمع المحتشد حوله من الناس البيض البشرة واليابانيين، أخذ يتحدث إليهم بلهجة القرى العراقية النائية، ولذلك لم يكن بوسع زامورتسيف أن يفهم كل شيء يقوله، وحتى المترجم نفسه كان في بعض الأحيان ينظر بكثير من التوتر والإجهاد إلى المتحدث البسيط.

ـ نحن من الموصل... من منطقة طربكة، قضاء سنجار. نحن من قبيلة السمَوقة، ونريد أن نتخلص من الديكتاتور صدام الذي لا شيء مقدس عنده... اسمي خليل حسن علي، و نحن من طربكة، التابعة لقبيلة السمَوقة...

وسأل أحدهم من بين الحشد:

ـ اسأله هل هناك كثير من الدمار في العراق ..؟ هل شهد قصفاً بالطيران؟ .. هل شعر بالخوف خلال الهجمات الجوية؟

ـ هناك الكثير من الدمار... تم تدمير كل شيء! هناك العديد من الحواجز على الطريق، لا يسمحون لنا بالذهاب إلى الحدود ويقتلوننا. نحن انتقلنا في الليل على ظهور الحمير. لو كانت الطرق مفتوحة، لكان الكل هرب! ..

ـ وهو نفسه، هل رأى كيف كانوا يقصفون؟ ـ أصرّ أحدهم بعناد على السؤال.

ـ الحمد للّه، لم أر، وبيتي سليم، صاغ، ولكن تركت كل شيء، والقطيع أيضا... الأطفال والزوجة جاءوا معي. أخذنا هذه الأربع بطانيات فقط... وفي الليل هربنا ؛ لأن صدام يقتل الناس...

ـ إذاً، أنت هربت من الحرب أو من صدام ؟ تنهد كوروفنيكوف بعد أن نفذ صبره، فراح خليل من قبيلة السمَوقة يسرع أكثر في كلامه ويهز رأسه موافقاً:

ـ كثير الدمار، كل شيء مدمر من حولنا. في العراق كل الكوارث مصدرها صدام. الجميع يريد أن يترك، هل هناك ما يستدعي أن تموت في العراق؟ العراقيون يقتلوننا، و هنا نحن بخير...

ـ عصفورية واللّه!، تمتم كوروفنيكوف – أنت لا تفهم حقا ماذا يقول، ـ واقترب من الملحق الصحافي الروسي ستوردوف، وأضاف في كلام مبطّن: الوضع مثلما هو عند سارتر، أليس كذلك؟

لم يجب ستوردوف بشيء، غير أنه ألتفت بوجه مكفهر ناحية كوروفنيكوف ونظر شزراً بصمت إلى أنفه الحاد الذي أحرقه لهب الرياح الباردة ، فصار ضاربا إلى الحمرة مثل جزرة.

ـ...نعم، سارتر بقضّه وقضيضه! ـ قال ستوردوف هذا مرة أخرى.

بدأ الصحافيون المحبطون يتفرقون في أرجاء المخيم الفارغ تقريبا على أمل أن يُرزقوا ولو بشيء ما ولكن دون جدوى. ومرّ خودملينسكي بجانب أندريه، وهو يوضح لنيبييف والمصور ساشا باستخفاف:

ـ... انهم أكراد، يا صاحبي ، وطالما أنهم من سنجار، فهذا يعني أيضا أنهم من اليزيديين، وهم طائفة تعتبر نفسها شعباً مستقلاً عن الشعوب الأخرى. هذا على الرغم من أن هذا كقولك مثلاً: القومية: شيوعي...

مشى أندريه ببطء بمحاذاة الخيام. وكان هناك بضعة نساء لا يزلن واقفات خارج الخيام المصنوعة من المشمّع، إما بدافع الفضول، وإما لأنهن أُمرن بذلك؛ أما الأطفال فهرعوا بعد أن لسعهم البرد إلى داخلها وراحوا يطلون من خلال الستائر.

في هذه الأثناء كان بيتر يقترب من أندريه الذي تمنى في قرارة نفسه ألا يراه بعد الآن، وقال متوددا:

ـ أندريو! أندريو! هل تتكلم العربية؟

ـ أتكلم.

ـ رائـع! ممتـاز! أصنع معروفا؟ أريد أن أتحدث إلى سـكان خيمة هنا. عرض عليَّ أحدهم خدماته هنا، ولكني لا أثق به.

ـ ذاك الذي وجهه مثل «بوز» سيارة جيب؟ أنا أيضا لمحته.

ـ مثل... ماذا؟

ـ مثل «بوز» جِيب ؟!

ـ آ... حسنا، نعم. ها ها ها. إذاً أنت موافق عموماً على أن تترجم لي؟

ـ أعتقد أنهم لا يفهمون العربية، لأنهم من الأكراد.

ـ أجل، أجل، فهمت أن شيئا ما هنا غير ما اعتقدنا. ولكني استطعت أن أتفاهم بعض الشيء مع صبية، يبدو أنها تتكلم اللغة العربية.

ـ حسنا، إذا كان الأمر كذلك، فلربما طلع شيء معنا.

ـ ها هم هناك، في آخر خيمة من هنا... أنا ما فهمت شيئاً، يا أندريو، من ذاك الرجل باللباس الأبيض: في البداية قال إنهم هربوا ؛ لأن الأميركيين قصفوهم، ثم قال بعد ذلك، إنهم هربوا لأنهم كانوا يخشون العراقيين...

ـ بيتر، يقولون عندنا: الشرق مسألة... ـ كيف يقولون هذا بالإنجليزية!، الشرق مسألة "فيها نظر"... كيف أفسر لك الأمر... مسألة ذات خصوصية.

ـ نعم، أنا بتّ أرى هذا الآن، يا أندريو... نحن الآن موجودون حيث ينتظروننا. فما عليك إلا الغوص.

كان الظلام يخيم على الخيمة، ولم ير أندريه على الفور أن في الخيمة عائلة بأكملها ـ خمسة أو ستة أشخاص. في آخر الخيمة جلست كردية عجوز سمينة مثل تلك الدمية المتخذة شكل امرأة ، والتي توضع على السماور في روسيا عند شرب الشاي لأجل حفظه ساخناً. وكان أمامها عدة أطفال يحدقون بصمت في الضيوف. وقد جلس الصبي والفتاة الأكبر سناً بين هؤلاء في مكان أقرب إلينا.

ـ مرحبا، ـ قال أندريه زامورتسيف وهو يهم بالجلوس القرفصاء، ـ ومن منهم مترجمك، يا بيتر؟

ـ هي، ـ قال الإنجليزي.

ـ آ، وما هو اسمكِ؟ (قال هذا بالعربية)

ـ جَروس.

كان صوتها أشبه بصوت آلة التشيلّو، ولكنه متهدّج بعض الشيء، ولاحظ أندريه فجأة ، أنه ليس أمام فتاة صغيرة، بل هي فتاة في سن السادسة عشرة، وربما الثامنة عشرة، ففي هذه البلدان الجنوبية تبدو علامات التقدم في السن على غير ما هي عليه في بلدان الشمال. كان وجها صحيح التكاوين، وجه أوروبية تقريبا، ومع ذلك تركت فيها آسيا بعضاً من قسماتها: فالانطباع الجميل أفسده قليلا تقارب الحاجبين تقارباً شديداً. ولكن شعرها كان كشعر نجمة سينمائية، وإن كان متشعّثاً، ومتجعداً بل ومتكسراً في نهاياته. بدوا في الخيمة بلون التبغ، ولكنهم كانوا في الواقع أفتح لوناً على الأرجح.

أمال أندريه وجهه مرة أخرى ناحية بيتر سائلاً:

ـ وماذا الآن؟

ـ اسألهم، يا أندريو: هل هم عائلة واحدة؟

نادى أندريه زامورتسيف الفتاة:

ـ جروس .

قال هذا على الرغم من أنه ربما لم يسمع ما اسمها كما يجب، وربما لم يكن اسمها تماما هكذا، ولكنها أجابته قائلة:

ـ ماذا ؟

ـ إنها والدتك؟

ـ نعم، وهؤلاء أخواتي. وهذا أخي، علي.

ـ وما اسم أمها؟ ـ سأل بيتر، وهو يكتب شيئا ما في دفتر تسجيل الملاحظات، مع أن أي شيء ما كان ليُكتَب هنا.

ـ حسَون. وأختاي زهرة ونور.

ـ لتسأل أمها لماذا فروا كلهم من العراق، ـ طلب بيتر.

فأجابت المرأة الكردية بإيجاز:

ـ نيه زانيم، ـ وترجمت جَروس:

ـ لا أعرف.

ـ كيف؟ ـ ارتبك أندريه.

ـ هي تقول: لا أعرف، ـ كررت الفتاة القول بصوت رزين.

ـ يا له من غباء، كيف يمكن ألا تعرف! – قال بيتر بانزعاج ظاهر.

هز أندريه كتفيه. فهو قد أمضى في بلاد الشرق عدة سنوات وشعر وهو في هذه الخيمة أنه في مكان ما وسطٍ: بين ساكنيها الذين يجيبون إجابات قد تكون غريبة وبيتر ذي الأسئلة المحددة التي لا لبس فيها. وبينما كان هذا الإنجليزي في حيرة من أمره، طرح أندريه سؤاله هذه المرة : ـ أنَى لك أن تعرفي اللغة العربية، يا جَروس؟ فقالت جروس وقد بدأت تصحَح شعرها بيدها التي كان يزينها سوار رقيق من الذهب:

ـ تعلمتها في المدرسة.

خيل لزامورتسيف في تلك اللحظة أنها نسيته فجأة ونسيت بيتر بالكامل فيما كانا جالسين القرفصاء في عتمة الخيمة الكئيبة. وكأن الإنجليزي عاد أخيرا إلى رشده بعد غيبوبة قصيرة:

ـ اسأل، يا أندريو: هل عاينوا القصف؟

حلت لحظة صمت. ثم سمع أندريه العبارة المألوفة، "نيه زانيم" ـ «لا أعرف».

ـ أتهذي هذه! كيف لا تعرف، هل هي رأت أم لا؟ جبابرة هؤلاء الناس، والله لا تعرف كيف تتحدث إليهم! .. آمل أن يكون بوسعها على الأقل أن تقول ما هم عازمون الآن أن يفعلوا؟

ـ الحمد الله، هنا كل شيء طيب ، ـ ترجمت جَروس الجواب.

ـ أين كل شيء طيب ؟ ـ قال بيتر، وهو ينظر حوله في حيرة ـ أنا لا أتحدث عن ذلك... عموماً بات كل شيء واضحاً. شكرا على المساعدة، أندريو.

عادت الثقة المفرطة بالنفس، البريطانية الطابع، مرة أخرى إلى بيتر. فكافأ أندريه زامورتسيف برَبتَةٍ وديةٍ على كتفه ، وقال للروسي اللطيف:

ـ بريفييت![19] المقابلة انتهت، قل لهم إنني أشكرهم جميعا.

ومن دون أن ينتظر الترجمة، خرج من الخيمة ناظراً نظرة امتنان.

ـ السيد يقول لكم: شكرا. ـ قال أندريه.

بقي أندريه بضع لحظات جالساً القرفصاء في عتمة الليل المزعجة، ولكونه رجلاً تسلل الشرق إلى كل جوارحه ومسامَه، انتابه شعور بأن الزيارة افتقدت اللمسة الأخيرة، شيئا من أمل ولو بسيط، مُراءٍ ومساير إلى حد ما، كمثل القول: ليكن الله في عونكم! لقد حصل حقاً لقاءٌ غريب بين حضارتين، لقاء لم يفهم خلاله أحدهم أحداً. وفي نهاية المطاف، قرر أندريه أنه لا داعي لأن يجهد كثيرا نيابة عن هذا الإنجليزي، وتمتم قائلاً: "بخاطركم!"، ثم خرج هو الآخر.

كان نيبييف في هذه اللحظة يمر من هنا وهو يبحث بشراهة عن "واقعة" يسجلها وراح يقول لساشا محاولا إفهامه المطلوب:

ـ قدميّ، صوِّر قدميّ عن قرب، كيف تسيران على الرمال عبر الخيام. شدة الجاذبية، صعوبة المشي، عبء الكينونة... أفهمت؟ صوِّر بالطريقة

١٩ هذه الكلمة الروسية تعني في الأصل «مرحبا!» وهنا حاول من خلال استعمال كلمة روسية، وهو الإنجليزي، أن يعبر بذلك عن امتنانه له

نفسها التي كنت تصور بها و نحن في الظهران...

"... وفي لبنـان، وفي سـيناء"، ـ تابـع أندريـه قائـلاً لنفسـه. هو كان يذهب في بعـض الأحيان لرؤية برنامج "فريميـا" (أي "الوقت") الإخباري في مبنى البعثة التجارية.

مر «نيبييف» به وهو يحمل "عبء الكينونة" على منكبيه وينظر نظرات عابرة من وقت لآخر لأنه إذا كان قد أدرك ساشـا بكاميرته عقبي حذائه، وكان يُسمع صوته في فراغ الهواء البارد وهو يقول:

ـ وما اسم هذا المكان، هل حفظته؟

فأجاب ساشا:

ـ ربما "هول" أو "غول" أو ما شابه.

ـ وهـل كانـت هنـاك "ألـ.." في البدايـة؟ أمـا طلبت منـك أن تحفظ الاسم؟!...

سار أندريه سيراً عشوائيا، "على الدسّ"، كما يقال، بمحاذاة الخيام. وقـد تفرق الصحافيـون في أرجاء المخيم كفراخ الدجـاج في أرجاء حديقـة، كمـا لو أنهم راحوا يسـعون للعثور على جائزة مخبـأة، على الرغم من أن زامورتسـيف، وهو الشخص العادي، كان قد اتضح له أنه ليس هناك يعد الآن ما يُبحث عنه.

والتقـى عـن طريـق الصدفـة خودَملينسـكي الذي راح يكشـف باستخفاف أسرار الشرق لاثنين من الصحافيين الأجانب:

ـ إذا كانوا من سـنجار، فهم من الأكراد اليزيديين. اليزيديون توضع لهـم في القبر، عندما يدفن أحدهم، النقـودُ والخبز والجبنة والهراوة. فعندما يأتي الملاك ليحاسب المتوفي، يقترح عليه هذا الأخير بعض المال في البداية بغية التخلص منه، ثم يعرض عليه المأكل، فإذا رفض المأكل، انهال عليه بعصاه... أما إذا كان الشـاب يريد الاستمتاع بمجالسة فتاة يزيدية، فما عليه إلا أن يرسـم دائرة حولها، وليس لها الحق في الخروج منها ما لم يسمح

obeikandi.com

الشاب لها بذلك... (فكر أندريه أن أليوشا خودملينسكي بالغ كثيراً، على ما يبدو، زادها في «التفنيص»). هوذا، بالمناسبة، جبل سنجار الذي بات يُرى من هنا. من هذه الأماكن جاء هؤلاء اليزيديون...

نظر زامورتسيف أيضا إلى الجبل. كان اليوم ضباباً، والسماء خفيضة، ولكن بدا أن جبلا كبيرا تراءى حقاً ناحية الشرق، في الأراضي العراقية، على بعد أربعين كيلومترا تقريباً، لا أقل. ليت الشمس تشرق... تطلع إلى الأعلى: أين هي الشمس الآن؟ ـ وفجأة صعقه شيء غير سار في داخله: كم الساعة، الآن يا ترى؟

كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف. هذا يعني أنه إذا لم يتناول في الحال طعام الغداء – ليذهب إلى الجحيم هذا الغداء، خاصة أن شيئاً أفضل من أسياخ اللحم المشبوهة في حانة قذرة لن يكون ممكناً تناوله في هذه الحسكة الملأى بالغبار ـ وإذا لم ينصرف تارة إلى هنا وطوراً إلى هناك مصغياً إلى رأي هذا ورغبة ذاك، بل أسرع إلى سيارته، فسيمكنه أن يجتاز في العتمة نصف الطريق إلى الرميلان الواقعة في أقصى الشمال الشرقي، حيث كان يأمل أن يبيت ليلته عند عمال النفط السوفيات الموجودين هناك بموجب عقد، ذلك أن الليل يبدأ في هذا الوقت من الشتاء يرخي سدوله عند الخامسة والنصف مساء.

راح أندريه يبحث عن كوروفنيكوف فالتقاه.

ـ حسنا، جينيا، لا تسئ الظن بي، يا عزيزي، ولا تمطرني بالشتائم!

ـ عفوك، يا صاحبي، ما بالك تتحدث بالأحاجي والألغاز اليوم. أم أنك استذكرت همنغواي؟

ـ فقط أريد الهروب من هنا وبهدوء. حان الوقت للمضي قدما.

ـ إلى أين قدماً! وهل أبعد من هنا؟! ـ قال جينيا كوروفنيكوف وقد فوجئ بكلام أندريه.

ـ هناك أماكن، جينيا، ـ قال أندريه هذا وسمع من جديد كيف أن أصابع باردة في مكان ما في داخله ضغطت على الأزرار، فصدح نغم

محلّق نحو السماء يثير في النفس القلق. ولكن أيخبر بهذا جينيا وهو المتمتع بحاسة شم قوية وبحدة في النظر تنمّ عنها عيناه اللتان تتراقصان بسرعة في مآقيهما؟ لا، لذلك راح فقط يكرر: هناك أماكن... ـ وقال مازحا مزحة سخيفة: «ولكن هذا ليس للنشر في الصحف».

ـ إنه لأمر جيد أن تكون هناك أماكن...، ـ وافقه كوروفنيكوف – اذهب، ليكن اللّه معك. إذا افتقدوك ، فأنا سأطمئنهم.

في الحقيقة، هذا هو بالذات السبب الذي كان وراء بحث أندريه عنه.

ثم التقى بعد ذلك صدفةً البدين يونس الذي على ما يبدو لم يكن يعرف أن أمامه أندريه زامورتسيف إذ سأله باللغة الإنجليزية:

ـ هل كل شيء على ما يرام؟ هل ثمة ما تكتبُ عنه؟

فأجابه أندريه بإطراء:

ـ كل شيء ممتاز.

وما إن وجد نفسه وراء ظهر يونس حتى تحول إلى ممر جانبي بين الخيام وذهب بسرعة إلى رتل السيارات الذي كان في الانتظار. وإذ اقترب أندريه من سيارته الـ «فولفو»، ارتجف فجأة ؛ إذ لمح من خلال الزجاج المعتم قسمات شخص جالس في المقعد الأمامي.

«إنه بيتر!» ـ فكر بشيء من الهستيريا، ولكنه في تلك اللحظة أدرك أن الشخص الجالس ليس ضخم الجثة مثل بيتر، وفجأة أدرك أن هذا ليس رجلاً.

لم يشعر أندريه منذ فترة طويلة بمثل هذا الاستغراب الذي شعر به إزاء هذا الاكتشاف. وقد أضيفت إلى اندهاشه الرئيس هذا مفاجأة أقل شأناً: كيف تمكن هذا المخلوق من دخول السيارة؟ بيد أن الغموض انقشع سريعاً جداً، بمجرد تحقق أندريه من مقبض باب الـ «فولفو»: فهو نسي أن يقفل السيارة. وهنا لعن في فكره، كعادته في الفترة الأخيرة، بيتر، هذا المذنب بلا شك في تضعضع فكر أندريه. الآن عرف وجها لوجه

الراكب الجديد: لقد كان هذا جَروس إياها. راحت جروس تنظر إلى أندريه بكل هدوء، فيما كان هو يفكر في ما يقوله من دون أن يستطع قول شيء، ملاحظاً في الوقت نفسه أن شعر تلك الفتاة هو، كما ظنه، أفتح مما بدا له في الخيمة ـ كالقش في الحصيد.

ـ ما الأمر، يا جَروس؟

كانت نظرتها جامدة مثلما رآها في الخيمة، ومرة أخرى سمع صوتها وكأنه صوت ناي أجش:

ـ إنها سيارتك؟

ـ سيارتي. وماذا بعد؟

ـ خذني إلى المدينة.

ـ إلى أي مدينة؟ إلى الحسكة؟

ـ والدي ذهب إلى المدينة، – قالت بصوت هادئ وثابت وهي في الـ «فولفو».

هبط أندريه في مقعده هبوطاً وأغلق الباب.

ـ متى غادر والدك؟

ـ قبل ثلاثة أيام مضت.

ـ هو لم يأت إلى المخيم؟

ـ جاء بنا إلى هنا ، ثم ذهب إلى المدينة.

ـ أية مدينة؟

ـ إلى المدينة (قالت بالثبات نفسه).

ـ ولماذا؟ (وتابع يقول في نفسه على الطريقة الروسية: "يا للعنة الشيطان!")

obeikandi.com

ـ ذهب إلى المدينة.

كأن في صوتها ما يقول: هذا شأنه هو، يعني إن غادر فهو رأى في هذا ضرورة.

"يا له من وضع محرج"، ـ فكر أندريه، ثم فجأة أخذته الذاكرة من حيث لا يدري إلى صوت كوروفنيكوف: "كما عند سارترا!".

"ربما كان وجهي الآن متوتراً مثل وجه كلب يتبرّز".

تنهد بصوت عال ثم صمت، وراح ينظر ببلاهة في الزجاج الأمامي للسيارة.

"يا لها من علقة علقتها!"

لا شك في أن جَروس لم تزحف إلى السيارة على بطنها. ولكن ما الفرق! أهل الشرق يتظاهرون بأنهم لا يرون ولا يعرفون ماذا يحصل عند الجيران، ولكنهم في واقع الأمر يرون ويعرفون كل شيء.

كأنه لم تكن هناك بجانبه فتاة، فهي كانت جالسة بهدوء، لا يحرك وجودُها حتى ذرةَ هواء. أما أندريه فلم يتمالك نفسه وراح ينظر إليها شزراً. رأى مجدداً حافةَ ثوب أخضر داكن لا يشبه الجلباب الثقيل والواسع للبدويات. إنها هي هنا، هنا، لم تذهب إلى أي مكان طبعاً.

كانت يداه كعادتهما مستلقيتين استلقاء على عجلة القيادة. لقد شاهدهما فجأة كأنه ينظر إليهما للمرة الأولى.

"أما زلت أنا شاباً... من أين جاءت هذه العروق النافرة؟ .."

وفجأة أدارت هاتان اليدان مفتاح تشغيل محرك السيارة عفو الخاطر.

"لماذا، ما الداعي؟ـ فكر على الفور، وحتى شعر بالخوف قليلا، ولكنه لم يوقف تشغيل المحرك.

ـ يا له من وضع .. بدأ يحس بالصداع في وقت غير مناسب...!"

هو لم يكن يريد أن يعترف لنفسه بأنه أصيب بالصداع بالذات فيما كان عليه أن يظهر شديد العزيمة قوي الشكيمة.

ثم حدث شيء غير متوقع أبدا. فقد بدأ أندريه يتمتم بشيئا مثل: "حسنا، سنرى"، ومع تفوهه بهذه الكلمات تحركت السيارة من مكانها. لم يكن حتى لديه الوقت للتفكير في ما يجب عليه أن يفعله في شأن جَروس؟ بل ربما لم يكن ليفكر على الإطلاق في هذا الأمر. ولنقل صراحة، هل كان كل هذا حقا أمراً غريباً لهذه الدرجة؟ فمنذ مساء أمس، أخذ زامورتسيف ينظر إلى حياته وكأنها فيلم سينمائي، وينظر إلى كل ما يحدث نظرة مشاهد ذا فضول بليد، لا يفاجئه شيء ولا يدهشه شيء، لأن هناك دائما أمراً ينبغي أن يحدث في الفيلم. على أية حال، هل هو أمر سيئ أن يحدث له شيء ما؟ هل من الأفضل أن يشاهد المرء كل الوقت فقط فيلماً عن الآخرين؟

وهنا زقزق عصفور في أسفل طبقات الوعي وكأنه يقول: "وماذا؟ ماذا بعد؟؟" – غير أن غريزة الخلاص وهنت وصمتت عند هذا الموظف في مؤسسة سوفياتية في الخارج جراء أنغام عاتية مسكرة بدأت تنهض مرة أخرى بين موجاتها الجبال الأخاذة والعجيبة التي طالما امتدحها موليكوف، وها هي الـ «فولفو» أخذت تسرع شيئا فشيئاً وهي تزحف على الأسفلت.

ـ هل تعرفين إلى أين أنا ذاهب؟ ـ سألها وقد انتعش بعد خمول، تقريبا كطفل وُعِد بشراء لعبة له ـ أنا ذاهب إلى أماكن رائعة حيث الجبال... وهنا توقف عن الكلام وقد أدرك أن جَروس قد لا تهمها كثيراً كل هذه الأماكن الرائعة، فلربما هي ولدت ونشأت وترعرعت في مثلها أصلاً، فهي بالنسبة إليها كمن يهدي التمر إلى هجر! ولكنه لم يقوَ على التوقف، فأكمل باللغة الروسية: ـ إنها الجبال الأرجوانية، أتفهمين؟ أنا لم يسبق لي أن رأيت جبالاً أرجوانية.

لم تجب الفتاة بشيء جراء كلماته تلك، كما أنها كانت تنظر إلى الأمام وكأنها لا تنظر إلى شيء.

"ما أنا بمثرثر الآن، يا ترى! .. سيّما أنها ربما كانت غبية كل الغباء!"

تابع قيادة السيارة بصمت وهو ينظر من وقت لآخر دون قصد إلى ملمحها الجانبي الذي يفقده الكثير من الجمال أنفها المعقوف قليلا. هي ليست بالطبع أفروديت لا وجها ولا قامة... ولن تحوز جائزة مسابقات الجمال التلفزيونية، كما كان يقول فيها بترونيا.

وأخيراً، وقعت عيناه صدفة على عقارب الساعة، فكاد يوبخ نفسه بصوت عال على كونه نسي أن يستمع إلى نشرة الأخبار!

"... وقال الناطق الصحافي باسم غورباتشوف فيتالي إيغناتنكو إن علاقاتنا وأجواء الثقة المتبادلة القائمة بين موسكو وواشنطن يمكن بعد الآن لأي شخص أن يعكرها. وأضاف إن العالم على وشك اتخاذ قرارات مهمة جدا. وفي ما يتعلق بحرب الخليج أكد أن الاتحاد السوفيتي قد أعد حول هذا الموضوع "مبادرات ومقترحات".

"وتستمر الأعمال الإرهابية ضد ممثلي الحلفاء. فقد انفجرت قنبلتان في اسطنبول بالقرب من المباني التي تشغلها مؤسسات أميركية، وقنبلة واحدة في حديقة القنصلية الإيطالية. وفي أنقرة أحرقت سيارتان تابعتان لدبلوماسيين أميركيين".

"الصحف التركية نشرت صورا لحطام مقاتلة أميركية سقطت بالقرب من قاعدة باتمان الجوية، على بعد ١٢٠ كيلومتراً من الحدود العراقية. وقد سلّم الفلاحون المحليون إلى السلطات الطيار الذي تمكن من مغادرة الطائرة. وحذرت بغداد على لسان وزير خارجيتها أنقرة من أنها ستتحمل كامل المسؤولية عن العدوان على بلده. والأمر يتعلق أولا وقبل أي شيء باستخدام قاعدة انجرليك لشن غارات جوية على أهداف في شمال العراق".

"بطل العالم ومعبود الجماهير الإسباني كارلوس ساينز عشية المرحلة الأخيرة من رالي مونتي كارلو الشهير باسم "ليل توريني"، هذا السباق الليلي على معبر توريني الجبلي، قلق من النجاح الذي حققه الفرنسي فرنسوا

ديليكور. بالمناسبة رئيس الاتحاد الدولي لرياضة سباق السيارات جان ماري باليستر صرح بأن الاتحاد، على الرغم من حرب الخليج، لن يعدّل في برنامج المباريات الرياضية. إليكم هذا الريبورتاج من مونتي كارلو".

وصاح صوت مرح على الفور: "كارلوس قلق بالفعل من كون الفرنسي يسير في إثره كالمجنون. علاوة على ذلك، يعرف ذاك حق المعرفة الجزء الأخير من طريق السباق. وبدوره، يدرك ديليكور جيداً أن...".

عند هذا المكان أطفأ أندريه جهاز الراديو؛ لأنه لم يكن يتحمل أصوات المعلقين الرياضيين الصفيقة. ولكن فكرة الذهاب معه في سيارة بصمت بدا له أمر غير مريح نوعا ما، فأعاد مرة أخرى تشغيل جهاز الراديو فعثر على موسيقى هادئة. خيل إليه أن جَروس جالسة وقد انكمشت وتقلصت في جلستها.

ـ هل بردتِ؟ ـ سألها باللغة العربية، وأدار جهاز التدفئة على الرغم من أنها رفعت حاجبيها علامة النفي. انحنى قليلاً نحو الفتاة واجتذب الهواء بأنفه بينما هو يمد ذراعه نحو مسكات المكيّف. لم تكن ثمة أي رائحة كريهة. إما أنها استطاعت بطريقة ما أن تستحم في مخيمها حيث ظروف العيش أشبه بزمن ما قبل الطوفان، وإما أن قليلاً من الجسد كان يقبع تحت هذا اللباس الأخضر بحيث لا يوجد شيء يمكن أن تتصاعد منه الرائحة.

"ما بالها تحدق وتحدق في نقطة واحدة؟ كأنها فعلاً غبية... أو أنها لا تفهم العربية جيداً؟ .. وربما كنت أنا بالنسبة إليها مجرد رجل ممل ودردبيس هرم؟"

الفكرة الأخيرة كانت بالنسبة إلى أندريه غير سارة البتة، فأضافت شيئا من المرارة إلى ما راح يفكر به لاحقاً.

"ما دمتَ قد أركبت الفتاة في سيارتك، فلا تكن كالبومة"، ـ بات أندريه غاضبا من نفسه. وصحح تفكيره على الفور صوت ساخر: "ولكنك لست أنت من أركبها السيارة، بل هي جلست بنفسها فيها".

"مهما يكن من أمر، هذا ليس عذرا ؛ لأن تجلس معها ووجهك قاتم متجهم"، ـ قال لنفسه بعصبية.

ـ لا تظني، يا جَروس، أني ساخط عليك. لا، بل إن هذا اليوم هو يوم غريب يمر علي... كم عمرك، جَروس؟ ـ سألها فجأة.

التفتت الفتاة للحظة إلى أندريه، فراح شيء ما في عينيها العسليتين يذكره بتينك العينين الخضراوين، وهو ما أوجع منه القلب. "أوه، اللعنة، اللعنة!..". على مدى يوم كامل تقريبا، تمكن وهو ينهب بسيارته رمال الصحراء من الهروب من موسيقى الماضي التي تنفذ إلى أعماق الروح، وها هي تلك الموسيقى تدركه مرة أخرى... كما أدرك ذاك الفرنسي الإسباني في سباق مدينة مونتي كارلو البعيدة...

لم يسمع أندريه ردا من جَروس. ولم يكن ليعرف ما إذا كانت هي تعرف عن نفسها تفاصيل صغيرة من مثل يوم ميلادها...

ـ وأنا، هل تعرفين كم عمري؟ ـ سألها من دون أن يفهم أصلاً لماذا يقول هذا. ـ أوه، كم بلغتُ من العمر! ـ هو لم يقل هذا من باب الدلع، بل كان مندهشاً حقا من أنه بلغ من العمر ما بلغ، وواصل القول باللغة الروسية: صار عمري ما يقرب من أربعة عقود. كم بقي لي أن أعيش؟ .. عقدين لا أكثر. يجب أن أعيش بكل ما أوتيت من نهم العيش ورغده، قبل أن تصفر الصفارة أنْ هنا محطتك الأخيرة يا ابن أنثى.

«لكن لماذا أقول هذا؟» ـ استغرب متقبضاً أحدهم في داخل نفس أندريه وصارماً.

فأجابه أندريه في فكره: «اذهب، اللعنة عليك!». فارتبك ذاك وهدأ.

أما زامورتسيف فشعر بخفة وطلاقة، كما لو أنه هو نفسه راح يشق عباب الهواء في تحليق سريع باتجاه الأفق، وليس سيارة الـ «فولفو» ذات الأنف المصنوع من النيكل. وبدا له أنه لا يوجد شئ غير عادي في أن تجلس بجانبه لاجئة كردية من سنجار، اسمها افتراضاً جَروس، وربما لا تعرف حتى كم عمرها، ومن المؤكد تماماً أنه لا يوجد فكرة لديها أصلاً

إلى أين هي ذاهبة بحثاً عن أبيها الطائش ذاك.

ـإذاً هكذا، يا جَروس... أو أن اسمك ليس جَروس؟ ـ سألها يحدوه جنون مرح، بينما الـ«فولفو» راحت تسابق الريح أكثر فأكثر ـ ... هكذا، يا جَروس. وطرزان طفولتي جوني ويسمولر قد توفي، والمفتش جيف (لويس دي فينيز) أيضاً توفي... وفانتوماس المعروف أيضا باسم جان ماريه كبر هو الآخر في السن كثيراً...

مرة أخرى لم يلاحظ كيف تحول إلى الروسية، ولكنه لم يعر مثل هذا الأمر التافه أي أهمية. لقد بدأ بالفعل يشتبه في أن هذه المخلوقة ذات الشعر المغبّر تفهم جيداً ما يقال لها بأي لغة من لغات الأرض.

وبدأ شيئاً فشيئاً يحاول بصعوبة تذكر ما درسه مع زملائه في المعهد عن اليزيدية. مادة «أديان العالم» كان يحاضر فيها البروفسور الكبير في السن فيلشتينسكي. كان صوته ناعماً وهادئاً، وكانت عيناه لأمر ما حزينتين حزناً شديداً، وكان ينظر بهما إبان إلقائه المحاضرة فقط إلى السقف، ربما لئلا يصيبه الاستياء من رؤية طلابه وهم يتسلون خلسة بدلاً من أن يسجلوا المعلومات التي يغدق بها عليهم. وها هو أندريه الآن وقد انزعج من أن الحديث عن اليزيدية واليزيديين قد مرّ آنذاك من دون أن يعلق شيء منه في ذاكرته. ولكنه سرعان ما فوجئ بأن أخذ يعثر في الذاكرة على قطع مبعثرة في الموضوع إياه. فهناك من راح يسير في ضوء القمر عبر الوادي... كان ذاك شابا يافعاً مغرماً بصوفيي بغداد. ثم ارتفعت من جوف الأرض، على ما يبدو، وحوش أسطورية بعيون غزلان... كالعادة، تم القيام برحلة إلى السماء بحثاً عن الحقيقة... آها! إنه لأمر ممتع: ذاك الشاب الذي ذهب في رحلة إلى السماء قلب الجرّة من شدة خوفه، وعندما عاد أدراجه، لم يكن الماء قد سال منها بعد كله. أما هو فلم يمنعه شيء من أن يقسم بأنه قضى سبع سنوات في السماء، وستلاحظ، أيها القارئ، أنه اكتشف نظرية النسبية قبل اكتشاف أينشتاين لها بوقت طويل!

وتذكر أندريه أن المتأنق أليوشا خودملينسكي راح أيضا وهو في المخيم يستفيض في الحديث عن اليزيديين معتداً بمعرفة أحوالهم. ولكن حكايات أليوشا تلك كانت مجرد خرافات واختراعات جادت بها مخيلته، وكان يمكنه بسهولة أن يستفيض في التحدث عن عادات قوم الإسكيمو ناسباً إياها إلى عادات اليزيديين.

وهنا استطلعت ذاكرته أخيراً شيئاً أكثر أهمية: اليزيديون... – وكأن الصوت الهادئ لفيلشتينسكي راح يطن في رأسه كلاماً غامضاً: نعم! هم أولئك الذين يعبدون الشيطان. غير أن الشيطان عندهم ليس كما عند الآخرين، بل هو في صورة طاووس، هكذا يسمى عندهم: الملك الطاووس. ويؤدون فروض الصلاة للطاووس... إنها فعلاً مفاجأة سارة أخرى: لقد أركبت في سيارتي فتاة من عبدة الشيطان!

لا داعي للقول إن العضو السابق في منظمة الطلائع للصغار ومنظمة الشبيبة الشيوعية، والعضو الحالي في الحزب الشيوعي زامورتسيف قد أدخل هذا الكشف إلى نفسه الرعب. فحقيقة أنه لا وجود للجنة والنار بات يعرفها منذ فترة طويلة، والآن يبدو أن الأمور تتجه قريبا على الأرجح نحو انتفاء وجود اللجان الحزبية أيضاً. لذلك سرعان ما هلل أندريه لذلك وبدأ ينظر إلى الفتاة الراكبة في سيارته باهتمام مختلف. فهو لم يعثر على أي شيء غير عادي، اللهم إلا جانب وجهها الساكن الناظر في البعيد أبداً.

«كم يمكن للمرء أن يحدق في نقطة واحدة! إنها لعمري شبه بلهاء، هذه الفتاة». فكرة أن هذه الفتاة التي تعرفها للتو، قد يتبين فجأة أنها مختلة عقليا، كانت أكثر إزعاجاً من حقيقة أنها تعبد قوى الظلام.

ـ هل أنت يزيدية، يا جروس؟

ومن جديد ترى عينين كأنهما تنظران إليك، ولكنهما تنظران وتريان شيئاً مختلفاً تماما.

ومن جديد ذاك الصمت الذي بات مألوفاً.

غضب أندريه وقال بنبرة انتقام:

ـ حسنا، هذه هي الحسكة. إن شاء الله تكون هي المدينة التي ذهب إليها والدك. ما قولك؟

أجابت الدمية الشيطانية من دون أن تميل برأسها نحو أندريه بالكلمات المألوفة:

ـ لا أعرف.

"حسنا، سأريك الآن ما يسرك ! – قال أندريه بحدة، وحتى بدأ يمعك بيديه بعصبية مقود السيارة من شدة السخط. – ولسوف يعجبك كثيراً عندما أنزِلك من السيارة في هذا المكان النائي، وأتمنى لك النجاح والتوفيق في بحثك عن والدك!"

ولكن عندما ارتفع الغبار في الجو ليغطي سيارة الـ «فولفو» في أحد الشوارع عند طرف المدينة، شعر أن قساوته بدأت تتلاشى. ولم يمكن ممكناً أن تمتلكه فكرة ترك هذه المخلوقة النحيفة في فستانها الأخضر تواجه المصير المجهول مهما كان من اختلال عقلها، لا سيما أنها ربما لا تملك حتى خمس ليرات تشتري بها خبزاً تسد به جوعها. شعر أندريه بالخجل من كونه سمح لنفسه أن يصل به التفكير إلى هذا المنحى. ما باله يتمسك بها إلى هذه الدرجة ؟ يبدو، كما قال ذات يوم أحد الفلاسفة ـ لا بترونيا في هذه الحالة، بل سوفوكليس، إن المرأة خلِقت لننظر إلى وجهها، لا لنستمع إليها.

ـ لا بأس، يا جَروس، أبوك لن يذهب بعيدا، نحن سنكمل السير حتى الجبال ونعود... ولكن علينا أولا أن نأكل شيئاً، أليس كذلك؟

كانت الأفكار في رأس أندريه زامورتسيف، على الرغم من كل الأحداث غير العادية، لا يزال بمقدورها أن تدور من وقت لآخر حول الدجاجة القابعة في كيس الورق الأرجواني اللون منذ أن اشتراها في دير الزور. إلى جانب ذلك، كانت هناك أشياء أخرى صالحة للأكل وضعتها له ميمي كي يأكلها في الطريق، وزجاجة من الكونياك الجورجي ماركة

"فارتسيخه". كانت أفكاره تدور أيضا حول كونياك "فارتسيخه". بقي فقط أن يخرج من الحسكة إلى رحب المكان فلا ينظرَ أحد إليه وهو يأكل فيقطعَ عليه شهيته.

ـ نحن الآن، يا جَروس، سنتناول وإياك بعض الطعام، ـ قال أندريه مرة أخرى لأجل التكفير عما توارد لديه من أفكار أخيراً – إنه النهج الصحيح. أليس كذلك؟ المهم الآن هو فقط الخروج من هذه الجورة النائية...

وبالقرب من برج في أعلاه ساعة – وهي سمة ملازمة لوسط أي مدينة عربية عريقة ، سأل عن الطريق شيخاً من البدو كان يستريح على دراجة نارية (طبعاً ماركة "ياماها"). وذهب، كما قال له ذاك ("بنيّ، من هذه الساحة إلى الشمال، ثم إلى الغرب ومن جديد قليلا إلى الشمال")، عبر أحياء تارة تفوح منها رائحة اللحم المشوي، وتارة يغمرها أريج الهال، ثم تحول مستنداً إلى قوة الحدس عبر فتحات الشوارع الظليلة عند ملصق كتب عليه "نعم ـ للرئيس الأسد". وإلى اليسار امتدت السكة الحديدية، فلم يكن أمام الطريق السريع الخارج من المدينة سوى الانعطاف واتباع خط السكة.

وبعد اجتياز خمسة كيلومترات تقريباً ، تحول أندريه زامورتسيف إلى وهدة في الطريق ليتوقف عندها.

ـ حسنا، ـ قال بصوت صفيق وغامض عادةً ما يفخر به أفضل مقدمي برامج الترفيه التلفزيونية، ـ والآن سنأكل قليلا... أم ـ أم[٢٠]....

بعد ذلك، خرج من الـ «فولفو» وهو يغمز جروس في دعوة إلى تناول الطعام معه. هذا التصرف النزق والاستخفافي لرجل أبيض ترك أثره حتى في جَروس المتبلدة الإحساس. فغمزته هي الأخرى غمزتين، وأومض في عينيها بريق اهتمام بما يحدث.

في الخارج كانت تهب الرياح نشطة. وتركت شمس الغروب التي ظهرت لفترة وجيزة مسحة من ضوء أصفر شاحب، ما جعل التلال في البعيد تكسوها زرقة غير طبيعية ، وانعكست على الأرض المسطحة

٢٠ تقال بالروسية للأطفال كي يأكلوا، تقابلها بالعربية: «نَنّا»

البنية اللون من يدي أندريه وهو يفتح باب صندوق السيارة الخلفي خناجر الظلال.

أخرج حقيبة التبريد وعاد إلى جَروس قائلا:

ـ مجهزون مثل رواد فضاء. وهذه أيضا دجاجة، ولكن باردة.

نظرت جَروس إلى الطعام من طهي فيرونيكا ببعض الريبة، أما الدجاجة التي كان مظهرها معتاداً لأهل المحلة، فمن الواضح أنها أعجبتها أكثر.

واضح.ـ قال أندريه وهو يسلمها صينية من الورق المقوى عليها الدجاجة المغطاة برغيف من الخبز وقد بردت منذ وقت طويل.ـ هلمي يا صبية.

انسحبت جَروس قليلا الى الوراء وأومأت بيدها أن: أنت أولاً.

ـ آه، صحيح، لقد نسيت أين أنا. حتى الأميرة في الشرق لا تأكل إلا بعد الأمير. آسف، أنا آسف! لم يكن يريد الدجاج، ولكن الشرق الغادر يتطلب الوفاء بالواجب الذكوري، واجب البادئ بالأكل قبل النساء. وإلى ذلك، لا تنس الجذور والتقاليد الروسية أيضاً. فقد استخرج من البراد كوبين من البلاستيك وزجاجة.

ـ كونياك «فارتسيخه»! أنتم، أعني اليزيديين، مسموح لكم بشرب النبيذ، أليس كذلك؟ ـ حاول مرة أخرى أن يستعيد إلى الذاكرة روح فيلشتينسكي.ـ شوية نبيد!!!؟ (سدت جَروس الطريق بكفها أمام الزجاجة)ـ إذاً أعطيك الشاي.

أخذت جروس قطعة الدجاج وأشاحت بوجهها عن أندريه. وقد رأى كيف راحت تأكل بشراهة ممتزجة بالحرص على ضبط النفس، فشعر فجأة بالإشفاق عليها إشفاقاً شديداً، بل شعر عموما بالأسف لأن الأمور لا تسير في بعض الأحيان على ما يرام في هذه الحياة؛ ثم شعر بالإشفاق على ميمي وبترونيا وعلى جميع هؤلاء الأكراد المساكين الذين يُقصَفون ولا ذنب لهم، وأخيرا لا آخراً شعرا بالشفقة على نفسه.

ولكن الكونياك كان جيداً حقا.

قال أندريه مناولاً جَروس الشاي:

- عموماً، ربما كان جماعتك اليزيديون على حق، ولعلهم بهذا أكثر صدقاً من غيرهم. في الواقع الناس يؤمنون بالشيطان أكثر من إيمانهم بالسماء، بالجنة. فربما كانت الفائدة منه أكثر؟ ما قولك؟ أنا على سبيل المثال كان من الأجدر بي أن تشويني صاعقة وتأكلني آكلة، أن أغرق تحت تسعين أرضاً، تسألين لماذا؟ طلبت مرةً مكالمة مع موسكو، وما إن أُعطيتُها حتى رأيتُني أسمع فجأة ميمي وهي تفتح الباب بالمفتاح. وأسمع في عتاباً ولوماً وأشبع توبيخاً وخمشاً، ثم ينقطع الخط فجأة، كما لو أن أحدهم طلب ذلك قصداً. في مرة أخرى رحت أكتب لها رسالة وها هي ميمي تدخل وتسأل في الحال مرتابة: لمن تكتب ما تكتبه، يا ترى؟ فتسمَرتُ في مكاني كمن قبض عليه بالجرم المشهود. وفجأة صفَر شيء في المطبخ تصفيرا شديداً فهرعت فيرونيكا إلى هناك مسرعة. أوليس هذا كله من رجس.. من فعل الشيطان؟

إبان هذه الخطبة العصماء الملقاة حصرا باللغة الروسية، كانت جَروس لا تزال جالسة مديرة ظهرها إلى أندريه نصف استدارة، وهي منهمكة في التهام قطعة الدجاج، ولكنه لسبب غير مفهوم، كان يشعر وكأن اليزيدية تلك تستمع إلى رطانته هذه بانتباه. نظر زامورتسيف نظرة عابرة إلى وجهها ليرى كيف تحرّك خدها وهي تلتهم الدجاجة، وكيف تخفض رموشها، وليلحظ رقبتها السمراء، ثم سكب بعض الكونياك في الكأس وشربه مكملاً خطبته عن اليزيدية:

- وعموماً، هذه الأساطير القديمة- عن الآلهة والشياطين – فيها شيء من الحكمة. ليسوا حمقى أولئك الذين اخترعوها، هذا أمر مؤكد. إنها نوع من التبرير لعقلنا الضعيف الساذج. أنا أحب الأساطير الجميلة والمخيفة... أما الآن فيروح أحدهم يتأمل كيف جاءت من الفضاء البعيد كائنات صغيرة جدا جداً، وبدأت تعيش في أجساد البشر كمثل الديدان، وإذا الجمهور سعيد ومندهش: أوه! يا له من خيال واسع! ..

أضاف الكونياك إلى الكلمات الأخيرة من العاطفة الدرامية الجياشة ما جعل جَروس تتوقف عن المضغ، فلمح في عينيها نظرة تساؤل رمت بها خلستً.

«اللعنة! لعلها تظن أنني أفصح لها عن لواعج قلبي ومعارج حبي!»

وانتقل إلى العربية قائلا:

ـ اسمعيني، يا جَروس، ربما كانت هذه الطريق لا تعجبك؟ ربما كنت لا تريدين أن تذهبي معي إلى أبعد من هنا؟ إلى هناك (ودلّها قائلا: ـ إلى هناك حيث كانت الشمس تختفي شيئا فشيئاً دون رجعة خلف الجبال تاركة حبالاً من الظلال).

ـ بلى. أريد.

ـ حسنا. بإمكانك أن تتابعي أكلك.

ـ شكرا. لقد أكلت.

ـ اشربي المزيد من الشاي.

ـ شكرا. شبعت.

ـ خذي إذاً منديلاً.

قبل أن تتناول منديلاً من الورق، لامست فجأة بأصابعها الرقيقة كمخلب طائر، يد أندريه.

ـ جاوور[٢١]...

كانت هذه صفحة جديدة في سلوكها بعد ساعة من تحديقها بصمت وعناد في الزجاج وفي طيف والدها البعيد المنال الذي يحوم في مكان ما قريباً من هنا، ما جعل أندريه يعود مرة أخرى إلى اللغة الروسية:

ـ أجل، أنا «جاوور» بالنسبة إليكِ. هو لم يكن يعلم أن «جاوور» تعني باللغة الكردية «أشقر». ذلك أنها باللغة العربية تعني «الشخص من غير دينك»، «الكافر». ولذلك، أضاف قائلاً:

٢١ «جاوور» (gavur) في اللغة التركية – العثمانية تعني «كفور» أو «كافر» وهي تعني أيضا «الأجنبي غير المسلم»

ـ من غير المعلوم من منا أكثر كفراً، أنا أو أنت بشيطانك الطاووس.

قال لها هذا على سبيل المزاح (طبعا، باللغة الروسية)، ولكن صرخة صامتة كانت تتلوى خلف الأصوات السلسة الهادئة لهذه الكلمات: آخ، جَروس، جَروس! ماذا أنت بفاعلة، يا جَروس! لمستك الباردة، عيناك الذهبيتان، يا جَروس، أنعشا ذاكرتي مرة أخرى بكل شيء. والأسوأ من كل ذلك، يا جَروس، أن هذا الـ «كل شيء»، كلما ابتعدتَ عنه أصبح أكبر وانهياله عليكَ أفظع إذ يلحق بك كظلك. نعم، جَروس، عندما يدركك، فإنه قد يحجب عنك السماء بأكملها. لم تعد فيه فقط صرخة طائر رحل بعيدا، بل أيضاً صوت فيرونيكا الموجع بهدوئه، وحتى مشية يوليا الخرقاء. وليس واضحا كيف التعامل مع كل هذا ؟ وأين تحشره وتدفعه ؟

لا، مفهوم. لا، لا، بالطبع، واضح: يجب دفعه إلى الأمام. الخلاص هو دائما في الحركة، دائما إلى الأمام، دائما وراء الأفق. في أن تكمل مسيرك مندفعاً في رحب السهوب حيث التلال كبثور مزرقّة، مندفعاً إلى الأمام متجاوزاً الحافلات التي تبعث الدخان في الجو وعربات زمن «إلفيس بريسلي» اللامعة أسنانها المطلية بالنيكل ، والشبيهة لهذا السبب بكلاب مخيفة فاتحة شدقيها وجاهزة لأن تنهشك نهشاً. ومرة أخرى يهدر المحرك، ويشعر الجسم بالراحة من جراء الكونياك، وترتاح الأفكار من رؤية الأفق عند غروب الشمس، وربما من فعل الكونياك أيضاً. والكلمات التي لم تُقَل بعد تجول في الرأس كمثل كريات الخرز الزجاجية المختلفة الألوان بين أيدي أطفال، كل منهم يلعب بلون.

ـ إذاً، ما الذي أنا بصدده؟ آ... أتحدث عن ميمي... أي فيرونيكا. أعني، ليس عنها، بل بشكل عام، عن الكل... من الضروري للمرء أن يفهم، أليس كذلك؟ إذا كنت تريدين أن يكون زوجك كذا وكذا... يجب عليك أن تجعليه بنفسك هكذا. على سبيل المثال، إذا كنت تريدين منه أن يكون قوياً ويمكن الاعتماد عليه... مثل شوارتزنغر، تظاهري بأنك تهابينه. «نعم، يا عزيزي. طبعاً، يا حبيبي»... وإذا شرب ثلاثة

أكواب من الخمر وراح يسعى لتقبيلك، فلا تقولي له: «هلاّ أخذت دوشاً، رائحتك كرائحة الماعز» - جيد أنك لست خنزيراً أيضاً... وفي الصباح، ما الذي يمنعكِ من أن تقولي: «يوم أمس هجمت علي بحيث جعلتني أخاف منك». هه؟ ما الذي يمنعكِ من أن تقولي هذا؟ لماذا أنا أستطيع إقناع نفسي بأنها الأكثر ذكاء والأروع جمالاً، بينما لا تستطيع هي أن تقول ولو مرة واحدة: «! كم أخفتَني ..»هل لك أن تدركي ما هو الحب؟ الحب- هو جهد وكدّ. أليس كذلك؟

إنه الصمت. وهدير المحرك. وصفير صحراء هوائية فوق أرض مسطحة، يضني كما تضني موسيقى «كابريس» لباغانيني.

الطرق في هذه الأماكن خطّطها على الأرجح مدرّس لمادة الهندسة متقاعد، فهي كانت كأنها رسِمت بمسطرة وزاوية ضخمة على لوح. هي مؤلفة من أجزاء ذات خط مستقيم تماما، وبدلا من المنعطفات نجد زوايا مملة تذكّر بشتى درجات الزاوية وجيوبها وظلالها. وعندما تكشفت عند حافة المدى في البعيد الجبال الأرجوانية، اجتاحت الفرحة أندريه فجأة كعارض ملاريا. الجبال الأرجوانية. لقد رآها الآن بأم العين! على الرغم من أن هذه الجبال التي عرَى طياتها بشَبق غروب الشمس الخائر، ربما كانت بالفعل تركية، وليست هي الجبال الأرجوانية على الإطلاق، وإنما الطبيعة راحت تتلاعب بالضوء ممازحة ومتصنّعة. كما أن سحباً كثيفة غاضبة تركت إلى اليسار مسحة خاصة على الألوان جراء نزوة مهندس معماري آتٍ من السماء، وجرت وراءها سحابة حقيقية طويلة وذات بطن مسطح. ولكن لحظات كهذه في الحياة، ترغب خلالها في الاستماع جل الوقت إلى الموسيقى السريعة والفرحة لفيفالدي دون غيرها، ليست تأتيك دائماً. لأن أنغام الكمان السريعة لفيفالدي هي موسيقى الحرية السادرة اللامبالية. ومع ذلك، لنكن صادقين، ولنقل إن أندريه لم يشعر يوماً بأنه ليس حراً كاليوم. فهناك وراءه ترك أيضا حرية. حرية مضلّلة بمشاكل غير جديرة بهذه السماوات، حرية متعَبة ومألوفة للغاية. أما هنا وما سيأتي قدُماً، فالحرية كانت طرية، شابة، وبعيني جَروس المفعمتين بالغموض.

ولكن، ربما كان هذا من غير العدل واللياقة حيال فيرونيكا. جدير بالمرء أن يكون، بالطبع، أكثر نبلاً. ولكن كل هؤلاء الـ «دارتانيان»[٢٢] والـ «سيرانو دي برجيراك»، كل أبطال ريمارك هؤلاء الثرثارون ... كل أبطال الروايات هؤلاء المتألقين والرائعين ليسوا، من ناحية أخرى، سوى تفاصيل، جزئيات في الحياة. لأن أيا منهم في الحقيقة ليست له صلة بالحياة. حتى شرلوك هولمز القنوع المتواضع الرغبات. إنها لمجرد وسوسات:

فلئن كان البطل متألقاً، فإنه يجب أن يكون غير متزوج لزاماً، ومن دون أطفال. لماذا، مثلا، لا يزوّج الـ «بابا دوما»[٢٣] بطله دارتانيان من السيدة بوناسييه[٢٤]؟ أما كنا بذلك حصلنا على كتاب «يطقطق» من الضحك؟! لا، لقد اختار هو أن «يطقّها»، أن يقتلها ..!

تجاوز أندريه زامورتسيف بسيارته حافلة عريضة المؤخرة، وتنحّى جانباً هلعاً من جرّار كان يزحف من دون أضواء صوب الطريق. وها هي الشمس التي كانت قبل دقيقة خلت لا تزال متألفة بقيةُ أشعتها في مكان ما خلفه، راحت الآن تنحدر خلف الأفق، فحلّ الظلام في لحظة. فعلى خطوط العرض هذه ليس هناك غروب للشمس طويل، والآن سيسدل الليل ستار الظلمة على كل شيء في غضون دقائق معدودة. فكان على أندريه أن يلجأ لتشغيل المصابيح الأمامية القريبة الإضاءة ويسير ببطء. وما لبث أن رأى أضواء سيارة تقطع الطريق فأدرك أنه اقترب من تقاطع طرق. وعندما لم يبق للوصول إلى التقاطع سوى قرابة مائة من الأمتار، لاحظ أندريه كوخاً مصنوعاً من الكتل الخرسانية ذا نافذة خافتة الإضاءة، وأدرك أنه الآن وصل إلى حاجز أمني. فارتبك للحظة، ثم بدأ بالتباطؤ تدريجيا وأملى على الفتاة اليزيدية أن..:

ـ اختبئي بسرعة في الأسفل. هنا. بسرعة!!

٢٢ D'Artagnan
٢٣ الكاتب الفرنسي ألكسندر دوما
٢٤ Bonacieux

فهمت الفتاة في الحال أن المسألة جدّية فلم تسل عن شيء، ولم تندهش وراحت تنزلق من المقعد إلى أرض السيارة وتتخفى مثل قطة صغيرة. ضغط أندريه بركبته على عجلة القيادة ومدّ يديه وراء ظهره وبدأ يخلع بصعوبه سترته. وقد ملأ الشكر والإمتنان شغاف قلبه ... ليس من الواضح لمن أو لأي شيء كان يمكن لأندريه زامورتسيف، هذا المتعلم أفضل تعليم على قواعد المادية والعامل كاختصاصي أجنبي في الخارج، أن يكن الشكر والامتنان: ألِلّه أم للقدر أم للطبيعة، أما هو، فكان على الأرجح سعيداً لمجرد أن الظلام حل في اللحظة المناسبة، وأنه اضطر لذلك إلى إشعال أضواء السيارة، وقد لمح تحرك مشبوه في سيارة آتية وئيداً من قبل حراس أتعبهم حتى الإنهاك روتين الخدمة أمراً غير محتمل. وهناك، قدُماً، ظهرَ شكل مستطيل إضافيٍ مضيء، وهو كناية عن باب كان يمكن للمرء في الظلام أن يظنه ظلّ رجل.

في هذا الوقت كان أندريه قد تحرر من سترته ورمى بها فوق جَروس. ثم مد يده إلى المقعد الخلفي، فتلمس الحقيبة ونقلها بصعوبة إلى الأمام حيث كانت قبل ذلك تجلس الفتاة وأخرج منها خريطة، فنفضها وبسطها فوق الحقيبة، وأنجز بذلك لوحة الـ «nature morte» الخلابة.

وفي هذا الوقت أيضا ، خرج جندي من الكشك ببطء وقطع الطريق من جهة إلى أخرى على ، ضوء المصابيح الأمامية للسيارة وأشار بالتوقف. ضغط أندريه على مكبح السيارة وأنزل زجاج النافذة، فا نحنى الجندي بحيث أن رشاشه المعلق تحت إبطه راح هو أيضا ينظر من خلال النافذة إلى ما في داخل السيارة.

ـ من أي بلد، حبيبي؟

ـ من الاتحاد السوفياتي.

ـ آ.. صديق! إلى أين أنت ذاهب؟ إلى القامشلي؟

ـ لا إلى الرميلان.

ـ الهوية معك؟

ـ نعم، بحوزتي.

ـ انتظر، سأعلِم رئيسي. ربما كان يجب علي أن أسجل شيئا ما.

ـ تفضل.

غادر. ثم عاد.

ـ الضابط غير موجود. سيكون عليك الانتظار قليلاً.

ـ ألا يمكن من دون الضابط ؟

ـ لا يمكنني. ممنوع.

ـ أما نحن حلفاؤكم؟ ألا تعرف أن بين بلدينا علاقات إستراتيجية؟

بدأ الجندي يشعر بشيء من المعاناة.

ـ ممنوع، يا صديق.

أحس أندريه بقشعريرة باردة قليلا. أولا، بسبب الهواء البارد الذي أخذ ينفذ عبر النافذة المفتوحة، وثانياً، جراء التفكير بأن جَروس لن تتمكن من البقاء كل هذا الوقت بلا حراك. ففتح علبة التابلوه على مصراعيها، وكان فيها من الكراكيب أنواع شتى ـ لكل الحالات الصعبة، ومن بينها السجائر: الـ «مارلبورو» والـ «فايسروي» لمن هم أكبر شأناً: مثلا، الحراس في الوزارات وسكرتيرو الموظفين من المستوى المتوسط، وسجائر «الحمراء» المحلية لأشخاص من مثل هذا الجندي هنا. ولكن أندريه هذه المرة سحب السجائر عشوائيا، الـ «مارلبورو» و «الحمراء» من دون اختيار.

ـ أنت ترى: هبط الليل، وفي الرميلان ينتظرونني، في ورشة العقد الروسي. لا تقل لي أنك لا تعرف أن هناك الكثير من الروس. اسأل من تشاء.

ـ أقسم باللّه، يا صديق!

دسّ له أندريه علب السجائر فأحس أنه بات أكثر ثقة بنفسه.

ـ كيف لي أن أعرف إلى أين ذهب ضابطك! ربما لن يعود حتى صباح اليوم التالي. هل تعتقد أن له الحق في أن يؤخر الممثلين الرسميين الأجانب..؟

قال هذا وبدأ يحرك ببطء السيارة. خطا الجندي خلفه خطوات وهو يكرر بصوت متوتر:

- صديق، صديق...

انعصر قلب أندريه هلعاً. فإذا ما أخذ الجندي يمزح مهدداً بالضغط على زناد الرشاش، فسيكون عليه أن يتوقف، ومن ثم أن ينتظر إلى النهاية، حتى يعود ذاك الضابط اللعين، وهو سيكون على الأرجح من رجال المخابرات ذوي الأذى والعناد. ولكن ذاك راح يتابع قائلا بقدر أقل من الإصرار: «يا صديق». فأدرك أندريه أن الرشاش لن يأتي دوره. فأطل برأسه من النافذة وصاح بصوت حنون، فكان مشهد لو ظهر في فيلم مصري لراح الجمهور ينتحب:

- يسلَمك!

لقد حزر بشكل صحيح تعاطف الجندي معه من اهتزازات صوته، ولم يفاجأ عندما سمعه وهو يصدر وراءه الأمر بصوت أجش:

- روح! روح!

تحولت الـ «فولفو» إلى اليمين، فإلى الشرق، ثم انطلقت مسرعة عبر السهل محاذية خيالات القرى الهاجعة في الأفق المتلاشي نوره.

- انهضي، يا جَروس! سنستمع إلى الموسيقى.

انتقلت الحقيبة مجدداً إلى الخلف، وطارت في إثرها الخريطة والسترة.

- خلص، جَروس. الحرية: لقد بتنا أحراراً!

لولا العتمة، لكان تصور أنها ابتسمت. ولكن نعجة واحدة بيضاء من بين نعاج فمها الاثنتين والثلاثين لم تظهر من حظيرتها، ولا حتى زوايا شفتيها لم تبدِ حراكاً. بل إن المرء ليتساءل هل هي أصلاً قادرة على الابتسام هذه المونناليزا الآسيوية؟ فقط ثمة شيء في الهواء المحيط تغيّر. نغم غير مسموع، رجفة أوتار غير مرئية... آه، كم إن النساء اللواتي نعرفهن يعوزهن أحياناً شيء من هذه... المونناليزية... بطبيعة الحال، هذه الفِكرة الأخيرة راحت تراود أندريه من غير توقع، فِكرٌ أشبه بالخَبَل

ككل مثيلاتها من الفكر التي راودته في اليوم ونصف اليوم اللذين مضيا. ومضى يقول مجدداً:

ـ إنها الحرية، يا جَروس! مع أن الحرية... ما هي، في الواقع، هذه الحرية يا ترى؟ إنها، في الواقع، الوحدة، العزلة. لنقل، الزواج ـ أي شعور بالوحدة في الزواج؟ لأمر مضحك أن يقال فيه أنه الوحدة... مع أنه، من ناحية أخرى، قد يتسبب أحياناً بمثل هذا الشعور... عموماً، لقد بتّ مرتبكاً كل الارتباك. لا تستمعي إلى ما أقول.

أوقفت دمعات المطر الضخمة فجأة على الزجاج الأمامي للسيارة هذا المونولوج الذي وجد نفسه فيه أندريه. فالسحابة التي كان لاحظها في وقت سابق إلى اليسار قد وصلت أخيراً إليهما.

ـ انظري، المطر. هذا ليس أمراً جيدا. أولى القطرات هي الأخطر، ـ قال هذه الكلمات لليزيدية باللغة العربية وتباطأ قليلا في سيره. ـ عندما لا يكون كل هذا الغبار الآتي من الصحراء قد جرفه المطر من الطريق بعد، بل فقط ابتلّ قليلاً، فإن الأسفلت يتحول إلى ما يشبه ساندويتشاً مدهوناً بالزبدة.... كان المطر يقطر بقوة فيضرب سطح السيارة ضرباً. وبدا كأنه لا يمكن أن يكون أشد منه، لكنه فجأة راح يضرب بقوة أكبر أيضاً.

ـ هاكِ، يا جَروس! واللّه، لا يمكن للمرء أن يسافر في مثل هذا الطقس إلا برفقة فتاة جريئة.

ومرة أخرى توقع أندريه ابتسامة منها صامتة. فبعد ما حدث لهما عند نقطة الحاجز الأمني بات يستشعر مزاجها بسهولة أكبر من ذي قبل. ربما ينبغي أن يكون الأمر هكذا. فالمتآمرون عادة يجب أن يفهم أحدهما الآخر من دون كلام.

كانت الـ «فولفو» تزحف بين حبات المطر، والوقت يفقد علاماته الفارقة المألوفة. وحدها العقارب البرتقالية على ميناء الساعة كانت تساعد على إبقائه تحت المراقبة. ولكن إذا كان لنا أن ننسى الدائرة المتوهجة المرسومة بدقة والشبيهة تقريبا بالإسطرلاب، فإن تيار الزمن الذي

لا نهايـة له كان قد بدأ ذات يوم بالتدفق من خلال سـدود وهمية اخترعها النـاس في محاولة منهم لتقسـيمه إلى جداول صغيرة من دقائق وسـاعات، فغمَّ المكانَ المحيط، وغمرَ الفكر والروح والأعين، وحينئذ باتت العقارب البرتقالية تفقد معناها الدقيق الصارم. وهل يحتاج شـخصان انفصلا عن الكل الاجتماعي كقطعتي حطام وتاها في المحيط إلى إسطرلاب؟

ـ أتشـعرين بالرائحـة، يـا جَـروس؟ إنـه الكبريت. رائحـة الكبريت المتصاعدة من الأرض.

لم يكن أندريه، بطبيعة الحال، يعرف كيف يكون باللغة العربية «كبريتيـد الهيدروجين». ولكن موليكـوف كان هذه المرة أيضاً على حق، فالروائح هنا تتقاطر من قاع الجحيم...

كان الفراغ يستوعب سـيارة أندريه ؛ وكان حفيف المسَاحات على الزجاج يشبه دقات قلب أحد ما.

كانـت الرميـلان قريبـة جـداً، ولكـن أندريـه فكـر في أنـه ليس مسـموحاً لـه أن يذهب مع تلـك الفتاة اليزيديـة إلى موقع العقـد النفطي السـوفييتي حيث لم يمت بعد جميع الآلهة، ومن المؤكد أن الغرفة اللينينية المتزمتـة التي تضـم الأعمال الكاملة للينين وقد لفهـا الغبار لا تزال قائمة. لكنـه كان يعتقـد أيضـا أن هذا قد يكون شـيئا جيـداً ؛ إذ لن يترتب عليه خلط شـعبان برمضان، فمن الأفضل له الذهاب مباشرة الى نهر دجلة والاقـتراب من الحدود حيث النهر، وملاقاة الفجـر هناك، ومن ثم التحقق من وجود الجسـر الروماني الذي تحدث موليكوف عنه وعن المشـهد الطبيعي الخـلاب والمذهل عند تخوم الـدول الثلاث. ولكم هو أمر جيـد أيضاً أنه لم يتصل هاتفياً بالعاملين في المشروع النفطي السوفيات مسبقا، على الرغم مـن انه لم يكن ليتصـل لأنه كان يعرف أصلاً أن البـدو في هذه المناطق كانت لديهم عادة قطع أسـلاك لجعلها أقراطاً وحلقات نحاسية للنساء، فشكراً، تالياً، للبدو على عاداتهم.

هكـذا تقريباً ظـن عندما بزغ مـن أعماق الظلمة فجـأة رأس وحش ضخم لملاقاة الـ«فولفو». فارتجف أندريه، ولكنه إثر ذلك استسلم للضحك حـين فهم أن هـذا مجرد مضخة نفط ضخمة. وقد ارتفـع رأس المضخة المثلث الشكل خلال أعمدة المطر عالياً عالياً بحيث لا تصل إليه أضواء السيارة، ثم عاد لينحدر مجدداً رويداً رويداً إلى الأسفل. سأل أندريه اليزيدية:

ـ هل تملكك الخوف؟

ولكنه شـعر في الحال بتفاهة السـؤال إذ رأى من جديد كيف تنظر إليه بهدوء. لربما هي رأت من الفظائع ما لا يُعرض في أي فيلم، فلام نفسـه سراً وسارع لتصحيح الوضع موضحا بالقول:

ـ هـل تعرفين مـا هذا؟ إنه جهـاز لضخ النفط من باطـن الأرض. صعودا وهبوطا. مضخة. أفهمتِ؟

وبعـد المضخة لاحت أضواء إلى اليمـين. وعلى الرغم من أن المطر كان لا يـزال ينهمر بشدة ، فقد كان بوسع المرء أن يدرك أن هذه البقع البيضاء والصفراء تمثل مباني سكنية مثل الأبنية المكونة من خمسة طوابق في روسـيا والتي انتشـر بناؤها في عهد الرئيس السـوفياتي خروشوف، فسماها الشـعب «خروشـوفكي» أي الـ«خروشـوفيّات». وقـد حـدّث بعضهـم أن مدينة الرميـلان التي ولدت بفضل النفط والصداقة السـوفياتية السـورية كان يفـترض أصـلاً أن تتخذ هذه الهيئة. والمضخـة والأبنية وكبريتيد الهيدروجـين كانت بمثابة علامـات صادقة. أما الرميـلان فهي تخوم، حد فاصـل. حتى الرميلان كان يمكنه أن يسـير بحرية وبأمـان، أما بعدها فتبـدأ الحدود، وتبدأ الأسـئلة. وقد ابتـدع أحدهم، حسـبما تذكر أندريه مـن أحاديـث كوروفنيكـوف ـ وكان ذاك صحافيـاً... إمـا إنكليزياً، وإما ألمانياً، له اسـم شـهرة بسيط جدا هو «فيسـك»، ولذا علق في الذاكرة ـ وسـيلة أكيدة للعبور بالسـيارة إلى أي مكان: كان يُقِلّ في سـيارته أي عسـكري واقـف على قارعـة الطريق يطلب منه نقلـه إلى مكان ما في طريقـه. فراكـبٌ كهذا هـو بديل عـن أي بطاقة مرور. فأي أسـئلة لا تطرح عندئذ عند أي حاجز: فما دام في السـيارة عسـكريون، فهذا يعني

أن كل شيء على ما يرام. بهذه الطريقة كان هذا يجول في أرجاء لبنان إبان الحرب الاهلية. طبيعي أن هذا الخيار لم يكن في متناول أندريه. فالراكب في سيارته معروف من هو، والفائدة منه مشكوك فيها، ناهيك أن أي عسكريين لم يستوقفوه تحت المطر. ولو أن أحدهم استوقفه لكان أندريه كذب عليه ، وقال له عمداً إنه أضاع سواء السبيل وإنه ليس ذاهباً إلى المكان المقصود، ومع ذلك كان هذا سيعني نهاية الرحلة على أية حال .

وهو أراد أن يرى النهر والجسر، ومرة أخرى الجبال الأرجوانية. وإلا فما الداعي لهذا السفر البعيد كله؟

ربما كانت كل هذه الاعتبارات والمخاوف هي التي اضطرت أندريه زامورتسيف إلى أن يتحول بعد الرميلان مباشرة عن الطريق الرئيس إلى طريق آخر، إلى مفترق من الطريق العام، رغم أنه ما كان يمكنه حقاً أن يفسر لماذا فعل هذا. ربما أخافه خيط الضوء الآتي من سيارة متسللة من أحد الجوانب. ثم مر بقرب مضخة نفط أخرى. ثم نشأ من جراء المطر ما يشبه شريطاً من الأسفلت قطع الطريق من طرف إلى طرف، فتحول أندريه بسيارته مرة أخرى من دون أن يتضح له إلى أين هو ذاهب. وكانت فقاعات الضوء الذاهب من مصابيح سيارته الأمامية تتراكض أمامه مهدئة مطمئنة لتتوقف وتختفي عند المنعطفات. بعد واحد من هذه المنعطفات ـ الكعكات شبيهٍ بحرف S اللاتيني، فوجئ أندريه بخروجه من فوضى الظلام والمطر، من دون أن يلحظها، براميل على جانب الطريق وكشك، لم يترك الغرض من وجوده هنا أي شكوك لديه. كان الحاجز غافياً تحت هدير الماء الغزير المتدفق من السماء كأكواخ حكايات الأطفال الحالمة. أطفأ أندريه أنوار السيارة، ولبعض الوقت راحت الـ «فولفو»، وقد أعمي بصرها، تزحف ببطء تحت هدير قطرات المطر على السقف. وعندما تجاوزت سيارة أندريه الضوء الأصفر الظاهر من النافذة، تجرأ مجدداً على إضاءة مصابيح الضوء القريب .

بعد فترة وجيزة، بدأ الطريق يمتد صعوداً.

ـ صعوداً ـ هذا غير معقول، فنحن في طريقنا إلى النهر، ـ قال هذا لليزيدية وراح يتقدم ويتراجع طويلاً على شريط ضيق لأجل أن ينعطف عائداً، وحبات المطر المتطايرة كالبعوض تلمع في ضوء مصابيح سيارته الأمامية. لكنه لم يعد يلحظ الآن وجود أي حاجز ولا ذاك المنعطف الشبيه بحرف S اللاتيني، بل لم يعد هناك شعور لديه بأنه يسير على الأرض، فكأنك تتحرك في أرجاء كون خلاب لا نهايه له. ولذلك امتدت يده بنفسها لتضع موسيقى "إكسينوكس" لجان ميشيل جار... فجان ميشيل جار ربما يتحمل هو أيضا قسطاً من الملامة على ما حدث لأندريه بعد ذلك بوقت قصير.

إلى اليمين، صعوداً، فنزولاً، ثم عبر جسر صغير... وحتى هذا الجسر الصغير لم يُعكّر صفو التجليات الصوفية المنصهرة مع الموسيقى.

استيقظ أندريه زامورتسيف من غيبوبته الصوفية هذه عندما بدأ المطر يخف. الآن لم يعد هناك ذاك الفضاء المريح الذي ذابت فيه الـ «فولفو»، فأضواء المصابيح انتشرت بعيدا جدا وكانت تخيف بحدتها وبياضها.

ـ إما نحن ضللنا اللّه يعلم أين نحن، وإما اقتربنا جدا من الهدف المنشود، ـ قال هذا الجروس، مع أنه لم يكن يعرف هو نفسه تماما أين يقع هذا «الهدف المنشود».

وكان صوت من داخل أندريه يعيده إلى صوابه لينصحه بالتوقف والانتظار حتى الصباح، غير أنه لم يكن يستطيع أن يجبر نفسه على التوقف عن السير الذي بدأه منذ يومين مجتازاً مسافة خمسمائة كيلومتر. وأخيرا، تذكر الحاجز التي مر به، فقرر أن يجد ملجأ يلوذ إليه. وبدأ ينظر كالأعمى إلى العتمة على أمل أن يجد وهدة مطمئنّة متواضعةً ومريحةً يمكن الوصول إليها بالسيارة، وأحيانا كان ينظر شزراً إلى جروس في ضوء صالون السيارة الضعيف؛ لينسى للحظة كيف تتحسس عجلات السيارة الأسفلت، ولينسى أيضاً الوهدة التي تصل إليها الطريق، وليسبح من جديد في هذا العالم حيث الخيال السحري والموسيقى، والأهم من ذلك حيث لا ماضي، ولا يهم ما سيكون عليه المستقبل.

لذلك عندما بدا له أخيرا ، أنه وجد الوهدة المطلوبة وانعطف بسيارته نحوها، تذكر متأخراً جداً أن عجلة القيادة راحت ترتجف ارتجافاً شديداً مثل يد سكّير. ثم أصدرت السيارة صوتاً حاداً وهي تهبط في حفرة واسعة، وعندما حاول أندريه - وهو يتمتم حانقاً "... أمَكِ، أبوكِ"! - أن يجبرها على الاندفاع إلى الأمام، بدأت تتدهور بسرعة إلى اليسار، فكانت هذه آخر "... أمَكِ، أبوكِ!" استطاع أندريه زامورتسيف أن يلفظها قبل أن يفلت العالم من سلاسله ، وقبل أن تنقلب سيارته مرتان ، مرة على سقفها، ومرة ثانية في عودة إلى وضعها الطبيعي. مثل هذا الشعور بانعدام الفضاء حوله انتاب أندريه ذات مرة وهو في الصف العاشر، آخر سنة دراسية في المدرسة الثانوية، عندما جاء إلى قسم الملاكمة، ومنذ الدرس الأول تلقى ضربة موجعة على عظمة وجنته كـ «أول تمرينة». عموماً، اتضح له أن الانقلاب رأسا على عقب وأنت داخل طنّين اثنين من المعدن أمر غير سار بالمرة . فإنك تشعر فجأة أن كل الهواء سُحب من بطنك، وأنك في لحظة من اللحظات تريد أن تنكفئ وتزمّ كالكلب ذيلك ، الذي للأسف كان قد ضمر وانقرض لبضعة ملايين من السنين مضت.

تقبلت اليزيدية «الشقلبة» في السيارة بعدم اهتمام أو إظهار لأية أحاسيس ، كعادتها الشيطانية خلال كل الأحداث السابقة في حياتها، فيما أنخرط أندريه على ما يبدو في نشيج غير لائق مؤملاً أن تضيع وتذوب في الموسيقى الكونية لجان ميشيل جارّ. وقد وصل أندريه زامورتسيف إلى نهاية الشقلبة سالماً معافى وهو متمسك بقوة بعجلة قيادة السيارة وضاغط بقدمه على الفرامل ضغطاً ما كان منه طائل، فقط أسنانه طقطقت من الهلع واصطدمت كتفه بقوة بالباب عندما توقفت الـ «فولفو» بصرير مخيف وقد مالت على جنبها عاجزة عن الحركة وعجلاتها لحسن الحظ على الأرض. وفي لحظة التوقف بقبق جان ميشيل جارّ، لكنه استمر في العزف ويقي هو السائدَ في عتمة الليل إلى أن سُمِع صوت أجش في المقصورة، يقول بالروسية:

- يا لها من شقلبة مَقلبة!!.

ثم أضاف الصوتُ نفسه، ولكن ذاك الذي كان أقرب إلى الصوت الحقيقي لموظف سوفياتي في الخارج هو أندريه زامورتسيف، قائلاً هذه المرة باللغة العربية:- الحمد لله، الزجاج سليم تماماً .

في الوقت نفسه فكر صاحب الصوت في أن الأكثر إثارة للدهشة ربما ليس بقاء الزجاج سليماً معافى، بل إن جَروس استطاعت أن تبقى جالسة تقريبا في نفس الوضعية التي كانت فيها طوال الطريق. فقط التصقت أكثر بالباب، وإن لم يكن هناك ما «تتكمَش» به.

- هل أنت بخير، يا جَروس؟

- نعم، بخير.

استمر جان ميشيل جارَ بالعزف، ولكن أندريه أدرك بعد أن استمع إليه قليلاً أن المحرك توقف.

- سأذهب وأنظر كيف هو حال السيارة من الخارج.

أخذ المصباح اليدوي ودفع بلطف باب السيارة. فانفتح الباب بسهولة، والقلب مفعم بإكتئاب حزين صادر عن آلة تشيلّو. ساعتئذ سحب أندريه كُلاّب غطاء المحرك ليفتح الغطاء وخرج في الظلام تحت رذاذ المطر الخفيف. من الخارج كان كل شيء في المحرك طبيعياً جدا، مع أن أندريه كان يفقه قليلا جداً في هذه الأمور. ولكن الأهم هو أن البنزين لم يكن يتسرب من أي مكان، وهذا في حد ذاته كان نجاحاً.

أطبق أندريه غطاء المحرك الطويل والثقيل ودار حول الـ «فولفو» متعثراً في مشيته بين حزَم العشب الرطب الشائكة. وكان يتوقع أن تبدو السيارة كما لو أنها قفزت من فيلم بوليسي من إنتاج هوليود، ولكن وإن كان ثمة على سطح السيارة وجوانبها بعض الخدوش والطعجات القليلة التي لا تفرّح القلب، فإن كل شيء بدا على العموم لائقاً للغاية. حتى أنه ظن في البداية أنه لم يحدث أمر جلل ، فهو سوف يجد الطريق، وينظف المسار قليلا ويرصفه بالحجارة، عند الاقتضاء، و يخرج من هذه الورطة. ذهب أندريه مضيئاً لنفسه السبيل بواسطة القنديل في

الاتجاه الذي كان يبدو له أنه جاء منه بمعيّة جَروس قبل أن تنقلب بهما السيارة. قطع قرابة خمسين متراً صعودا وهبوطا عبر التلال، فلم يعثر على الطريق، ولكنه بالمقابل رأى، إذ نظر إلى الوراء، أن أضواء الـ»فولفو» اختفت. فركض في الحال عائداً وقد اكتنفه بعض الذعر، فعثر عليها أبعد إلى اليسار مما كان يتوقع. فأصبح واضحاً لديه أن عملية الخروج بالسيارة من المحنة لا بد من تأجيلها حتى بزوغ الضوء.

باتخاذه هذا القرار، شعر أندريه بالارتياح واندسّ في مقصورة السيارة الحميمة والدافئة.

ـ لنخلد إلى الراحة، يا جَروس. عتمة، ولا طريق.

ولأجل القيام بشيء ما أيضاً أدار المفتاح. فـ «نبح» المارش بضع مرات بصوت مبحوح كما ينبح كلب في منامه، وأطفأت يده بنفسها «كونتاك» السيارة مرتعبة لكيلا يُسمع الأنين اللاهث للمحرك العاجز. نوع من خيبة الأمل قريب من الندم والتوبة أخذ يتولد في النفس شيئا فشيئاً كما تتولد الموجة. فماذا كان الداعي ليذهب إلى ما يشبه نهاية العالم تقريبا؟ ليدفن سيارته في هذا الصقع النائي بعد أن يُقِلّ معه وهو في إحدى محافظات سورية البعيدة فتاة نصف مخبولة؟

تذكر فجأة ذاك العصفور الذي هرع في إثر بعوضة فوق الطريق السريع فعجنه عجناً راديا تور شاحنة مسرعة كأنها محلّقة على أجنحة الريح. كان دائما يشعر بالشفقة على هذه الطيور الساذجة، وها هو الآن يشعر بالشفقة على نفسه.

وبحركة حادة جداً أطفأ المسجّل؛ لأنه كان يجب الحفاظ على البطّارية.

ـ سوف نستمع إلى الراديو.

ولكن شيئا لم يكن مسموعاً من مكبرات الصوت باستثناء ضجيج رتيب أشبه ببيض في مقلاة الزيت. خرج أندريه مرة أخرى ليجد الهوائي على الجانب الخلفي للسيارة مكسوراً.

ـ لعنة اللّه عليه! واللعنة على الشيطان!

على الرغم من أن الشيطان لا ذنب له في كل هذا! فذنبه كذنب مخترع ميزان الحرارة في أن درجة حرارة ابنتك مرتفعة مثلاً.

ـ مهلاً، هدوءاً، ـ قال لنفسه.

بدأ ينظر حوله. عجيب كيف أن عينيه بدأتا شيئاً فشيئا تميزان ما بين الأشياء. وقد تأكد ما كان قد اكتشفه وهو في طريقه إلى حيث التلال دكناء كالحة كسواد الليل وأكثر. ويبدو أنها لم تكن تلالاً، بل كانت جبالاً حقاً . عاد إلى الـ «فولفو» مبتهجاً ليزفّ إلى جَروس:

ـ اسمعي، يبدو أننا بتنا قريبين جدا من نهر دجلة!

وكما كان متوقعا، لم يترك هذا الفتح العظيم لدى اليزيدية أي انطباع. فقال زامورتسيف:

ـ حسنا، تعالي إذاً نشرب الكونياك، فهكذا سيمر الوقت بسرعة.

تناول زجاجة الـ «فارتسيخه» وقال:

ـ هلاّ شربتِ ولو قليلاً هذه المرة؟

فرفضت جروس.

ـ تريدين دجاجاً؟

أبعدت جَروس يد أندريه الممدودة إليها حاملة المأكل الشهي. وقد أصبح هذا التلامس بالنسبة إليهما معتاداً تقريباً، ولكن شيئاً يشبه التيار الكهربائي سرى في أوصال أندريه نكأ جراحاً قديمة. فقال على الفور:

ـ حسنا، كما تريدين. بصحتك، يا جَروس.

شرب أندريه الكونياك وقال ملتمِظاً بشفتيه كأبناء العامّة:

ـ أتعتقدين أني مستاء؟ لا شيء من هذا على الإطلاق! لا بل ربما كان

شيئاً جيداً ما حدث... على علاّته. وإلاّ فأنتَ تجلس وتجلس في مكان واحد كالقُعَدة لا تفارقه... لتبدأ حقا تفهم أبطال الماضي السحيق، فتريد أن تجترح أمراً جللاً حتى ولو دخلت في متاهة تعيسة...

«وهو ما حدث فعلاً»، رد على الفور صوت في داخله.

لكن أندريه ابتسم وحسب. لم يعد يهمه ذاك الـ «أنا» الحذر والخبيث الذي كان جالسا في داخله، وقد ساعده كثيراً على تحسس هذا الشعور القدح الذي في يده وهو لم يفرغ بعد من الكونياك. كما ساعده وجود جَروس معه بشكل كبير.

ـ أتعرفين، يا جَروس، يلزم المرء في الحياة عادة هذا وذاك وذلك، ولكني عرفت شاباً كان سعيدا تماماً لمجرد أنه كان شبيهاً بالكاتب سولجينيتسين... ـ وضحك فجأة ضحكاً متقطعاً، لكنه كان يدرك أن اليزيدية لم تكن تعرف على الأرجح من هو سولجينتسين هذا، فوجد بديلاً له وأكمل قائلاً: شبيهاً بالخليفة عمر عموماً.

كانت الأضواء البرتقالية على لوحة القيادة تهتز في عيني جَروس، وقد اعتقد أندريه أن الفتاة تضحك معه. ولم يكن ليلحظ أن جَروس بدت على نحو ما أقرب إليه من ذي قبل، وإن كان شعر بأصابعها الباردة على معصمه. ولكن هذا لم يكن شيئاً جديداً ـ أصابعها على معصمه، لذلك لم يفاجأ واستمر في مناجاته بالروسية والعربية معاً مازجاً إياها بضحك ينم عن غباء ظاهر:

ـ عافاك، يا جَروس، أحسنتِ، يا جَروس. السيارة عجلاتها إلى فوق، وأنت «مثل الطائر»: نفضت عنك غبار الحادث كأن شيئا لم يكن! ثمة من يتحدث عن الجنس اللطيف! الجنس الأضعف! نحن الجنس الأضعف، أما أنتن فأقوى وأكثر دهاء منا، تتظاهرن بالضعف فقط للاستفادة. صح؟

بعد أن خرجت من فم أندريه كلمة «صح»، ظل فمه نصف مفغور؟ لأنه وجد فجأة أن اليزيدية أيضا تتكلم. فهو لأول مرة سمع هذا الصوت ينطق بأكثر من ثلاث كلمات متتابعة، بل أكثر من ثلاث كلمات بكثير. وكانت الكلمات هذه غير مفهومة على غير عادة. أجل،

هـي، بطبيعة الحال، تتحدث الآن باللغة الكردية، أي باللغة التي كلّم بها اللّه آدم، حسبما يقول "الكتاب الأسود" المقدس عند اليزيديين، «مصحف راش».

«ته إذ كيريم كاووا بييتي، سودا سيريم دلبرنتي...»[٢٥]

شيء غريب. انطلقت هذه الكلمات مسرعة ومتلاحقة، كما لو أن إحداها كانت تخشى فقدان الأخرى، بعضها كان وكأنه يشكو، وبعضها الآخر كأنه يضحك، وبعضها أيضاً – بوسع أندريه زامورتسيف أن يقسم بأنه صادق في شعوره بدا حتى مهدداً متوعداً. كان يمكنه فقط أن يخمن تخمينا، أشِعر هذا أم صلاة، عندما أصبحت يدا جَروس، هاتان اليدان اللتان كانتا من قبلُ حذرتين، أكثر جرأة، فشدتاه شداً إلى هذه الكلمات. لم يكن ليفكر، بطبيعة الحال، أنها تحدثه عن أثمن ما عرفته: عن أسطورة بائع السلال وزوجته، وعن زوجة الأمير، وعن مصيرهم الرهيب.

«كورو باس بيك غوتين

هوا من تناني بونا سلكا دينه...»[٢٦].

لماذا كانت تقول ذلك؟ ربما اعتقدت أن أندريه يشفق عليها، وهي لا تريد أن يشفق عليها أحد، فقالت :

«أغيره كيتييه نوا ديليمين

ديشاوته تيدجي كيييتي دردە سلكه خويه ...»[٢٧]

كانت تتكلم وتضطرب مشاعرها جراء تلك الكلمات الرهيبة، ويداها تنزعان إليه مثل غزالين... أو حتى مثل ثعبانين ساحرين يخترقان الجلد ويضغطان على القلب... آه، كم كانت رهيبة تلك الكلمات!

«جميرا نيغونييه. مين كلياهوا

مين هيستييه به هويدي

٢٥ أنت أحلتني دجاجةَ أرضٍ مشوية، فقلبي سامه العذاب (بالكردية)

٢٦ أيها الضرير، كُفَّ عن هذا الحديث. لا يأتي إلى عيني النوم، وأنا ناديتك لا من أجل سلال حقيرة (كردية)

٢٧ النار أصابت مني الفؤاد، فها هو يتألم، وأنت تحزن على سلّاتك (كردية)

أرز أو أزمان مين سيتار ناكه

تودجي ديبه دجيميرا غونييه!»[٢٨]

شعر زامورتسيف أنه راح يستسلم عفواً لهذه الموسيقى السحرية، وعندما راحت أصابع جَروس تمسَد ذقنه غير الحليقة منذ صباح أمس، فعل ما كان يريد دائما أن يفعل: لامس شعرها. بل حتى أكثر: استشعر رائحته، وهي رائحة لاذعة قليلا، غريبة وغير معتادة. وهمست جَروس بشئ يمزق الروح شر تمزيق، وصارت كلها هنا، كلها – هذه الفتاة غير المفهومة والغريبة، كلها له، لأندريه.

وهنا خشي أندريه فجأة أن يكون هذا التصرف من جانبها مجرد عرفان وامتنان. امتنان على كونه أخذها معه بالسيارة... أعطاها مأكلاً ومشرباً... امتنان محسوب على العدَاد، إذا جاز التعبير... كما أن هذه القبلات فوق ذراع الفرملة باليد لا تنسجم بأي حال من الأحوال مع سيمفونية اليوم ونصف اليوم الأخيرين. ولكن ما ذا الذي يمكنه أن يعين رجلاً على مواجهة سحر امرأة؟ ربما فقط تذكّرُ امرأةٍ أخرى. فبدأ يمسَد شعر اليزيدية ممرراً إياه من خلال أصابعه، ومستنشقاً رائحته، ويقول:

ـ أنت رائعة، يا جَروس. أنت ناعمة ولطيفة، لأنك تعتقدين أن الحياة مثلما في الأغنية: كانت تجول في الحديقة، تجمع الأزهار، ومن أحبت سحرته، من أحبت فتنته...

ـ شو؟ .. شو؟ ..

لأول مرة أرادت أن تفهم ماذا يقول.

ـ لا شيء ذا شأن. هذه كلمات واحدة من الأغاني... استمعي إلى الآن، أنا الآن سوف أحدثك.

وقد فهمت حقا هذا الهمس المزعج (على الرغم من أن أندريه لم يكن يدرك متى كان يتحدث بالعربية، ومتى كان يتحدث بالروسية) فسكتت.

٢٨ ليست هناك خطيئة بالنسبة إلي. أبقيت قصري من دون صاحب، الأرض والسماء لا تخضعان لي، وأنت تقول لي: «خطيئة»! (كردية)

ـ أنا كنت أكتب لنفسي الأغاني، يا جَروس. لكن الحياة أكثر تعقيدا من الأغاني، وكلما عاش المرء أكثر، ارتبك والتبست عليه أمور الحياة أكثر. وهو يرتبك أكثر ما يرتبك في ذاته، يا جَروس. وحتى في أغانيه الخاصة التي يكتبها لنفسه يرتبك، ولا يعود يعرف حتى ماذا يفعل بها... أضف إلى ذلك العمل والسيارة والأصدقاء والمال والأطفال والأقارب... كم من الخيوط يتشابك ويتقاطع. تكثر الالتزامات والواجبات، ويقل الوقت... أسفي بالأخص على أولئك الذين هم في الوطن، وخصوصا الذين لديهم أطفال. وعلى الأصدقاء... تراهم أصحاء أقوياء، وإذا بهم فجأة يموتون، يا جَروس، تاركين خلفهم هؤلاء الأطفال إياهم مع أمهاتهم... ترسل إلى هناك، إلى بلد النقص الدائم في السلع، بلد الفوضى، ما في وسعك أن ترسله، وعندما نستطيع إرساله. تحور وتدور وتكذب وتتحايل. وفي بعض الأحيان لم تعد تفهم ما أنت تزعم وتؤلف: «لقد خسرت في لعبة الورق، خذني معك بالسيارة إلى منزلي، من فضلك، إن كنت لا تريد أن يظن بي أحدهم سوءاً ..؟ وأقاربي!! الأطباء وصفوا لهم كدواء الـ«كورن فلكس»، البوشار... البوشار لا غير! إذا كنت لا تريد أن يصبح أقاربك هؤلاء معوقين ..». أما معك، يا جَروس، فأشعر بالراحة والهناء. لأن في عينيك تنعكس السماء، وهذي التلال هنا، وليس فيك شيء غير هذا، لا. وأنا أيضا أتماهى معك. لذلك أشعر معك بأن الحياة في غاية البساطة والرقة... والسهولة أيضاً. ربما لأن شيئاً لا يحتجز حريتك في هذه الحياة.

بحلول نهاية هذا الخطاب الطويل والمشوش أحس أندريه أنه متعب للغاية، وأن كل الكلمات استُنفِدت، حتى أن الكونياك استنفد، وأن الوقت الذي كان مفعماً بنفاد الصبر كما عند بيتهوفن، يكاد الآن يخرخر كماء حلو مثلما عند فوريه[٢٩] مثلاً.

ـ هكذا. أفهمت؟ ـ قال عمداً باللغة الروسية.

نفضت جَروس شعرها، وتاهت عيناها عن أندريه، وأصبحت مرة أخرى تلك اليزيدية الغامضة غير المفهومة، الآتية من عالم بعيد، عالم لا تهدي فيه السماء أهل الأرض الكثير من البحبوحة وترف العيش، بل تهديهم الكثير من الغبار والتراب، وحيث كل شيء يذكّر بالجنة: الوديان الصغيرة

٢٩ المؤلف الموسيقي الفرنسي غابرييل فوريه

المزهـرة، المليئـة بما يثير الفضـول مما لم يكـن لأندريه زامورتسـيف أن يفكر حتى بوجوده أصلاً. كشجر البطم، على سبيل المثال...

بدأ البرد يخترق أجواء السيارة بعد أن خمد المحرك وفقد نفَسه الساخن. فتناول أندريه سـترته الفنلندية الأصليـة الدافئة التي كان قد أخذها معه من موسكو، ولمس جَروس بكتفها.

ـ الجو برد. ضعيها عليك.

لم تحرك الفتاة سـاكناً. راحت من جديد تنظـر في غير وجهة أندريه، ربما نحو الشـرق، حيث تخفَت وراء سـتار الظلام سنجار ولاليش وغيرها من الأسماء التي ألفتها. ولكن أندريه زامورتسيف أجبرها على أن تدخل يديها في كمَي السترة.

ـ والآن انظري إلى حيث يحلو لك.

أعطاها أيضا جوارب دافئة («البسـيها إذا أحسست بالصقيع»)، أما هو فلبس كنزة صوفية وسحب جانبي قبعته إلى ما فوق أذنيه.

ـ في الصبـاح... ـ قـال لليزيديـة، وقـد حلَق هـو أيضا بنظـره إلى آفاق ـ وحده ـ اللّه يعلم أين هي. وبدا غير قادر على العودة منها ـ سيتبين كل شيء في الصباح... كل شيء على ما يرام. ما دمت معي، فلا تخافي، أنا أفهمك، يا

جَروس... محزن جدا العيش على هذه الأرض عندما لا يرى أحد... العالم...

أراد أن يقول، «كما تراه أنت»، ولكنه مع ذلك لم يقله ؛ لأن أحداً ما أطبق فجأة على جفنيه، فانسابت تحتهما عتمة فارغة.

...بدايـةً كان خريـر ماء يُسـمع خافتـاً قريباً من هنا. ثـم بدأ الضباب الرمادي ينقشـع، ووراءه ما يشـبه الشفق... لا، ليس هذا بالشفق. إنه الظل ألقى بوشـاحه على الأحجار التي رصِف بها الفناء، والتي تتسـاقط عليها من الفـروع المتدلية أكواز الرمان الناضجة فتنشـطر. ثم تظهر قنطرة ضيقة، فدرج يهبط حلزونياً نحو عتمة حقيقية، وقريباً جدا من هذه العتمة صوت الماء المنادي نفسه، ذاك الكائن اللين العريكة، السحري الذي يهذي كل

الوقت من دون أن يقول ما يريد أن يقوله.

عندما تعودت عينا أندريه قليلا على السرداب الرطب والبارد، خيل له أن شخصاً ما يتحرك في العمق، كأنه حتى يمشي، وأحيانا هناك شيء يلمع لمعان فضة وهمية.

ثم إن هذا الشيء، أو الشخص قد توقف، وها هو أندريه يسمع صوتاً أشبه بتنهيدة.

- مَن هناك؟

اقترب الظل الغامض الأشبه بكومة من الريش، وخشخش بصوت خافت يكاد لا يُسمع. وفي بقعة من الضوء أومضت عين متطاولة في البداية، شبيهة بعين إنسان تقريبا، ثم ظهرت بقع ذهبية ضاربة إلى الفيروزي ذات ذيل عريض... أدرك أندريه ما هو الشيء الذي كان يلمع بغرابة في الظلام! إنه صوت فيلشتينسكي الخافت، صوت الكتب التي لم يتمكن أندريه من قراءتها وهو بعد على مقاعد الدراسة في المعهد...

- شيء لا يصدَّق!

ضحك الطاووس ضحكة خافتة، وضحك الماء أيضا معه. وقال بصوت هادئ ولطيف:

- لماذا لا يصدَق، أندريه سرغييفيتش؟ من قال لكم إنه يجب أن تكون هناك لزاماً ألسنة لهب وروائح منتنة... ماذا هناك أيضا من أساطير وخرافات؟ .. كقولكم مثلاً إن هناك سباقاً للخيول السوداء على موسيقى برليوز وأشياء غريبة عجيبة من مثل «ميروندور وترادِيون ومارِكسيل...».

تحرك الشخص المجهول في الظل مرة أخرى وسمِع له حفيف خفيف كحفيف الريح.

- كم أنتم تحبون الدرامية الرخيصة، إنه لأمر عجيب ومدهش! أقول لكم، إذا كنتم تريدون أن تعرفوا، عندما أرى كيف يصورونني هكذا... يصورونني بكلّيتي باللون الأسود... ويصورونني أيضا بين الكبريت والبروق... والضحك الجهنمي... وحتى أحياناً بذيل وقرنين!

أشعر وكأني ذاك...

ـ ذاك الطاووس المضحك، ـ قال معقّباً ذاك الصوت الصادر عن كثب، المفاجئ والصفيق. فارتجف زامورتسيف ؛ لأن ذاك الصوت لم يكن، أولا، صوت كائن مرئي، وبالإضافة إلى ذلك، كان شديد الشبه بصوت بترونيا سوسلوباروف.

غير أن محادث أندريه لم يعر التهجم الوقح الآتي من العدم أي اهتمام. وقال بعد برهة صمت:

ـ إنه لأمر مخز حقا أن يجعل الناس منك فزّاعة قذّاعة. هذا أنا (قال صوت خشخشة مرة أخرى في الظلام). هل أنا مخيف إلى هذا الحد، يا ترى؟ .. لماذا لا يرد إلى ذهن أحد ماذا ينبغي أن يكون عليه «عَزَ وجَلَ»[٣٠]، ذاك الذي جعل ملاكه وحشاً شريراً فقط لأنه رفض الانصياع إليه، إذا كنت أنا مخيفاً إلى هذا الحد؟ أقصد قصة إبليس المعروفة، تلك التي يحدثون بها الناس البسطاء في شأني... وأنت ماذا تعتقد، أندريه سرغييفيتش؟ ـ سمع أندريه زامورتسيف هذا السؤال يوجه إليه فجأة ففكر متسائلاً.

ـ أنا؟ لعله أمر يدعو للأسف والشفقة...

ـ علام أنت آسف؟

ـ كيف علني أقول لك... آسف إذا لم يكن هناك من له قرون وعنده برق ورعد.

ـ هم.م.م.؟

ـ أنا أعتذر، ولكني أعتقد ذلك، ـ قال أندريه بمزيد من الحسم ـ إنه مميز، معتاد... قاسٍ جداً وغدار. بل أيضا كليّ القدرة...

فكرر في إثره الطاووس قائلاً:

ـ تقول قاسٍ جداً وغدار وكليّ القدرة... فكيف إذاً لم أكن قادراً على حماية رعاياي من كل هؤلاء الباشوات والمشايخ والبايات ..؟ صحيح

٣٠ يقصد بـ «هو عَزَّ اسمُه» الرب الإله الذي طرد الملاك الذي لم ينصع لأوامره من الفردوس السماوي وجعله إبليساً في جهنم النار

أن البارود لدى الجنود خلال الحملة العقابية استعيض عنه بالغبار، ولكن هذا حدث مرة واحدة فقط...

فقال أندريه:

- أنا لم أفهم تماما ما الذي تعنيه. ولكن لا يزال ثمة أمر غريب... كيف مثلاً حال الحكايات؟ الروايات؟ غونو؟ برليوز المذكور؟

سُمع نفس طويل يشبه تنفس الصعداء.

- آه، يا أندريه سرغييفيتش! أرى أنها تعجبك، هذه الأدوات الرخيصة! لا أنكر أنه «عَزَّ وجَلَ» قرر أن الأمر يحتاج هناك حقا، في كل الأحوال، من يجعلكم، معشر البشر، تمعنون في التفكير. فقط من أجل إجباركم على قدح زناد الفكر وليس من أجل تخويفكم. ألستم أنتم أبناءه، ألستم أنتم أيضا متساهلين جداً مع أبنائكم؟ لذلك، ما من جحيم. كما ليس هناك كبريت وبروق. ولم تكن هذه يوماً موجودة. هل يمكن للمرء أن يحرق أبناءه، أن يقطعهم إرباً إرباً؟

- وماذا عن قصة الخطيئة الأصلية التي منها بدأ كل شيء من هذا القبيل؟

فهم أندريه من هذه النبرة التي يتكلم بها محادثه أن الطاووس قد طاب له المرح والابتهاج.

- بيني وبينك، من المضحك حقا اعتبار هذا خطيئة. فهل يعقل أن يوجد الخالق إنساناً عاقلاً ثم يتوقع منه أن يحجم عن المشاركة في صنع الخير والشر؟ .. لذلك طرد الرب الأفعى من الفردوس. وإني لأسمح لنفسي باستعمال تورية مفادها أن الأفعى لم تكن سوى كبش فداء... لقد حان الوقت لإعادة النظر في بعض الحقائق، وأنا ربما سمحت لنفسي هنا أن أكون محامياً. هذا على الرغم من أن السمعة التاريخية تصبح أمراً واقعاً يصعب دحضه.... بعضهم بالمناسبة يقول إن الأفعى سدّت بذيلها ثقباً في سفينة نوح إبان الطوفان.

أراد أندريه أن يسأل في معرض تعجبه: ومن هم هؤلاء «البعض»، ولكن الطاووس تكلم مجدداً فقال:

ـ ما دمنا قد دخلنا في محادثة من الروح للروح، أندريه سرغييفيتش، سأقول بصراحة إننا أنا ومعي «عَزَوجَلَ»[٣١] لم نعد نفهم حقا ما الذي تعتقدون أنتم معشر البشر أنه الخير ؛ وما ذا الذي تعتقدون أنه الشر ؟ لقد كنتم أذكياء ومحنكين لدرجة أن الأمور كلها خلطتموها بعضها ببعض... أن الحقائق كلها...

ـ... شوشتموها، ـ مرة أخرى أكمل عن أندريه صوت مزعج، كأنه صوت الطاووس إياه.

ـ نعم، ـ وافق ذاك ، وكأنه كان يحادث نفسه، ـ ربما كان هذا صحيحاً. أنظر هنا، على سبيل المثال، ـ قال هذا كحفيف جريدة في الغسق وقفل متخافياً فيما راح زامورتسيف يجهد عينيه ليرى ملامح ألفها وكانت ملامح عنوان الصفحة الأولى من الجريدة.

ـ أراك تقرأ جريدة «نيزافيسيمايا غازيتا» المستقلة!؟

ارتبك الطاووس، على ما يبدو، وطوى الجريدة وخبأها وأخذ جريدة أخرى من دون أن يكشف عن اسمها.

ـ مطربوكم، على سبيل المثال. يغنون، «وقد دعوت أصدقائي إلى حفل الإعدام بالجملة هذا...»، أما الناس عندكم فيعجبهم... (واستشهد بالقول) «...هذا التجديف الفكري المتفنن في عصر ما بعد النزعة الإنسانية» (وأصدر مرة أخرى حفيف ورق). فهذا واحد من المقتدرين القريبين من السلطة أسس شركة، بل قل «شُرَيكة»، «دُكَانة» خاصة به على حساب الدولة، وصارت حماته تسافر بالطائرة ذاهبة آيبةً على حساب الدولة أيضا... وهذه امرأة بلغت من الكبر عتياً وقتلوها لقاء ٥ روبلات... لن أقول في هذه العجالة شيئاً عن الإخبار والتجسس على الآخرين، عن القيل والقال في الصحف... (ظهرت الجريدة قليلاً ثم اختفت) اسمحوا لي، أيها السادة ـ الرفاق! أن أقول إنه يجب أن يكون هناك نوع، إذا شئتم، من ثقافة الشر! الشر يتطلب عذابات وابتهاجاً، يتطلب معاناة لكي يُستحَقّ! .. عباءةً سوداء، صرير أسنان... كرةً سحرية، لُفَاحاً سامّاً في منتصف الليل!... فكرة الشر العظيمة سخَفتموها بالابتذال والإجرام!

٣١ أي أنا الشيطان وهو الإله

.. هلاّ تذكر ما قاله هيغل؟

أدهش أندريه هذا السؤال غير المنتظر.

ـ هيغل؟

ـ نعم، هيغل، هو نفسه جورج فريدريش ويلهلم هيغل الذي قال: «المصدر الرئيس للفكرة الإلهية هو أن يعرف المرء نفسه». والشر أيضا يصح فيه ذلك، كما أفهمه...

فهم زامورتسيف من التوقف المفاجئ عن الكلام أن محاوره أصيب بالحرج، على ما يبدو، إذ لا يليق بشيطان أن يقول مثل هذا الكلام، حتى وإن ظهر في هيئة طاووس.

ـ حسناً، حسناً، ـ تناهى صوتٌ مرة أخرى، ـ لنترك هيغل وشأنه. يجب أن تفهم الشيء الرئيس : أنتم قتلتم الفكرة. الفكرة التي من أجلها خلِقت أنا! لعل شيئا ما لم يكن مدروساً كما يجب... أنتم تبحثون عن الحل في قوانين علم الحِيَل، وفي التحضير للاجتماعات . لقد استعضتم عني بأنفسكم، فبتُّ ضائعاً مثل طفل أمام خداعكم. لم يعد لدي ما أفعله بينكم يا معشر البشر! بل استعضتم عنه أيضا «عَزّ وجَلّ» بأنفسكم!
– اشتعلت عيناه وتقاربتا في العتمة فجأة، وأضحى أبو العينين للحظة يشبه ذاك المألوف في الكتب وفي الأوبرا ـ ولكن هل يقوى على العبء حامله؟ ـ سمِعت هذه الكلمات، وترددت أصداء ضحك مفاجئ في البعيد، فكانت هي أول مرة منذ بدء المحادثة يستشعر فيها أندريه الصقيع.

ثم سكن الصدى، لكن الصقيع بقي، وسرعان ما أدرك أندريه أنه لم يعد مستغرقاً في النوم. وبالإضافة إلى ذلك، أدرك أنه استيقظ لا بسبب البرد، بل لسبب آخر، السبب الذي يضطر من أجله أي أحدٍ للنهوض ليلاً من سريره الدافئ.

لبعض الوقت امتزج في وعي أندريه ظل الـ «فولفو» البارد بضباب الحلم الذائب، ولم يفتأ حياً في أذنيه صدى القهقهة الجهنمية. بصراحة، لم يكن زامورتسيف يمانع في البقاء وقتاً أطول في ذاك الغور حيث أبو

الريش الثرثار: ماذا بوسعه أن يقول أيضاً و يخبر. علاوة على ذلك، لم يفهم كل شيء : عن البارود والجنود، مثلاً. على الرغم من أن هذا، عموماً، ليس مهماً بما أنه من الواضح أن ما حدث هو استعادة لذكريات الماضي ، لما قرأه وهو في المعهد حول معاناة أجداد جَروس من جور الأمراء المحليين.

نظر إلى اليزيدية ليرى ماذا تفعل، فوجد الفتاة نائمة. على أية حال، كانت حاضرة في العتمة بلا حراك البتة.

فتح أندريه الباب بتأنٍ ، وخرج من السيارة. كانت الغيوم قد انقشعت فانفغرت فوق رأسه هاوية لامتناهية راحت ترتجف فيها النجوم. في الصحراء يظهر واضحا بشكل خاص كم أن النجوم حتى تبدو لا حول ولا قوة لها أمام رياح الأزل. فوالله، شئت أم لم تشأ، ستصدق أن الملك الطاووس يتمشّى في مكان ما هنا فعلاً بحكمة وحسرة...

غير أن زامورتسيف لم يجد الجو حاراً على الإطلاق فيما كان واقفاً في مهب الريح ، يقابل وجها لوجه نشأة الكون الرحيب. وأسف لأنه لم يكن يرتدي ملابس داخلية دافئة، وابتسم ابتسامة مشوبة بالأسى من جراء تذكره القول المأثور الذي طرأ فجأة على ذهنه : «الحياة كناية عن عملية تغير تدريجي في النظرة إلى الملابس الداخلية الدافئة».

وفيما هو قام تقريبا بكل ما من أجله اضطر إلى الخروج من الـ«فولفو»، أنطلق في مكان ما بعيدٍ جداً من هنا صوت هادر خفيض وخاطف، ربما كان دمدمة أو رعداً: «دمدم ..». ولم يكد الصوت يختفي حتى عاد مرة أخرى: « دمدم ..». دمدم ..». هذه الدمدمة المتكررة التي كانت تخنقها إلى حد ما المسافات ، كانت تأتي من الجانب الآخر، حيث كان العراق قريباً جداً. وبالطبع، أدرك أندريه أن طائرات الحلفاء في العراق، تحلق على بعد ثلاثين وربما أربعين كيلومتراً من هنا، أو بكلام أدق، الطائرات الأميركية- بما أن طائرات أي بلد آخر لا تطير من هذه الجهة، التخوم التركية- كانت تقصف منشآت المارق صدام . كان ذلك بمثابة تذكير غير سارّ بأن الإباء الأسطوري لسماء بلاد ما بين النهرين إباء خادع ، وأن مخلوقات آتية من أساطير مغايرة تماما تذرع الصحن الأسود

الضخم لهذه البلاد ذرعاً منزلقة هنا وهناك بثقة سيّد السماء والأرض: إنها طائرات F-111 التي يمكنها أن تعدّل شكل أجنحتها الهندسي، و F-15 "النسور" التي أطلق عليها اسم "ملوك السماء"، وF-16 "فوكون" و F-14 "طومكات" أي "القط"، وF-18 "الدبّور" وA-6 "الدخيل"، وF-117 الشبيهة بالخفافيش ذات القنابل التي تزن كل منها ٩٠٠ كلغ والموجهة بأشعة الليزر، وE-2C "هوكي"، وEA-6B "براولر"، وA-10 "الصاعقة" المعروفة باسم "المدمرة"، والطائرات الفرنسية "ميراج" F-1، والبريطانية "تورنادو" F 3 (الطرازان الأخيران هما من دون لقب تبجّحي)، والطائرات الضخمة B 52 - وطائرات التجسس "أواكس" KC-135، وتتوج كل هذه الباقة أقمار "كي هول" ("ثقب المفتاح") المحلقة فوق الكل في الغور الشفاف غير المنظور.

وجد أندريه زامورتسيف ينتابه شعور بخيبة الأمل أن هدير الحرب الذي سمعه يماثل قهقهة الشيطان الطاووس الصفيقة التي كان سمعها في الحلم.

فكر وهو يعود إلى السيارة، كيف انقشعت الأوهام وتكشفت أخيراً وحلت نهاية حكاية الشرق الجميلة. الآن لن يعود بالتأكيد يرى الطاووس في الحلم. فهو أضحى واقعاً من وقائع اليقظة.

وقد سُرّ ليقينه أن ذاك عاد ليقبع في المكان نفسه في مغارة تحت الأرض حيث خرير المياه.

- عجيب، كنت أعتقد أننا لن نلتقي مرة أخرى.

- في الواقع، أقول لك ليس لدي الكثير من وقت الفراغ، - خيل لأندريه أن الملك الطاووس بات يتحدث بلهجة أقل تكلّفاً من ذي قبل، بنبرة «خوشبوشية» تقريبا. - ولكن ما دمنا قد بدأنا حديثنا، فلا بد من استكماله...

- يعني، هذا ما تقضيه الشكليات، - سمع صوتاً كان يميزه من قبل، يشبه صوت بترونيا.

ـ حسنا...، وافق أندريه ـ أين كنا قد توقفنا نحن؟

ـ نحن؟ ـ سأل الطاووس مرة أخرى بصوت أصبح فجأة كريهاً جداً ـ. من تقصد بـ « نحن» ؟ لا داعي للخلط بين « نحن» و« نحن»، يا صديقي. في الماضي كانت « نحن» تعني الجميع، والآن هناك « نحن» و« نحن»، والبون بينهما شاسع.

ـ أنا لا أفهمك! ـ قال أندريه مستاءً من لهجة الطاووس. ـ هل فعلت شيئا ما غير ما كان يجب فعله؟ هل ارتكبت خطئاً ما بحقك؟

ـ فعلت، أنت دائما تفعل شيئا ما... أنا أفهم وأعترف بأن حياة الإنسان لا معنى لها، بطبيعة الحال، من دون فعل، من دون نشاط ما. ولكن نشاطك هو أساسا نشاط ضار وغير مجدٍ. هنا يكمن التناقض.

ـ لحظة، لحظة! أنا آسف، ولكني...

ـ نعم سمعت، سمعتك كيف رحت تتحدث متحمساً... عن أبطال الزمن الغابر، عن أن المرء يتوق لفعل شيء ما ذي شأن... ولكن لا لبناء منزل أو لزرع شجرة، بل على نسق المغامرين الصغار... والله، إني لأعجب كيف أن كل شيء عندكم من السهولة والبساطة بمكان! الحقيقة، بالنسبة إلي مثلاً، تعني الألم، إنها سرّ معذب ..!

ـ هذا سبق لك أن قلته، علام التكرار، ـ قال صوت آخر مجهول.

ـ حسنا، حسناً، بالطبع، لنكمل إذاً... مع أن لا شيء نكمله! الشيء الرئيس قلته: ليس هناك من جحيم، أندريه سرغييفيتش. الجحيم غير موجود إلا في العقول الواهمة.

وتدخل صوت مجهول قائلاً :

ـ وعن الشيء الرئيس.

ـ نعم ! ـ استدرك الطاووس قائلا، ـ بالضبط. لقد نسيت كلياً. كنت أود أن أقول أيضا إن الجحيم في جوهر الأمر، لا لزوم له. يكفي أن نحدق في ما حولنا لنرى أن لا لزوم له... لا حاجة به. كل هذه الأشياء البدائية:

المقالي، الكلاليب، الخلاقين... ما حاجتنا اليوم إليها؟ ما الحاجة ما دمتم تبتدعون بين الحين والآخر... لا يمكنني أن أعثر على الكلمة المناسبة من كلمات البشر للتعبير عنه.

ـ القبائح. – قال الصوت المجهول مساعداً.

ـ أحرى بنا أن نسميها الرذائل. – صحح قوله الطاووس وأضاف: ـ وما المشكلة! يمكنك، والحق يقال، أن تعثر على كل هذا في شخصك... لا داعي للذهاب بعيداً.

في لحظة انهار الوهم المحيط بأندريه فجأة كله كدَستة من ورق اللعب ألقيت في الهواء. انتزعته منه قوة شرسة وحملته كالمجنونة، وراحت تشقلبه شقلبة مهينة رأسا على عقب، ليتدلى ذراعاه وساقاه مثل دمية صنعت من خرَق، وتتطاير أعقاب ثيابه كمروحة. ومن حسن حظه أن هذا لم يستمر إلا لبضع لحظات، ولم يكد أندريه يصدر من حلقه صرخة: «آه! ..» حتى شعر بأن تحليقه المجنون انتهى، وأن ساقيه عادتا من جديد إلى الوقوف على أرض صلبة.

"! الوثائق!... كان هذا أول ما فكر به – لعلها انفقدت..!"

ولكن، ويا للغرابة، كانت وثائق السفر والمفاتيح، وحتى النقود المعدنية الصغيرة في أماكنها المألوفة في جيوبه. ربما كان على المرء أن يعجب لهذا لو لم يكن هناك أمر آخر أكثر غرابة: كان زامورتسيف في شقته... لا شقته التي يمتلكها، فتلك بقيت في موسكو ـ في شقته التي تركها في دمشق، حيث كان يعيش مع ميمي ويوليا والببغاء.

"ما هذا؟ كيف هذا؟ عدت فجأة إلى البيت..."

الغرفة التي وجد نفسه فيها ـ وهي تلك التي كان يعتبرها مكتبه ـ لم يكن فيها أحد. بل إن الشقة كلها كان يسودها الصمت والهدوء: لا جهاز التلفزيون ينطق ، ولا الببغاء تخشخش. وهي أصلاً لم يكن من المفترض بها أن تخشخش لأن الدنيا في الخارج كانت غارقة في عتمة: قد يكون حل المساء، أو أن الليل أرخى سدوله.

لم يكن أندريه يعرف ما هو كنه هذه الرحلة الغريبة العجيبة، وكيف صار في خلال ثوان في شقته المعتادة.

بيد أنه لاحظ أن مكتبه المرتب عادة بعناية باتت تغطيه أوراق مبعثرة كتبت عليها أشياء لم يفهمها، وما هو أغرب من هذا كله، مظاريف عليها عناوين وطوابع. وكضرب مطرقة على القلب لمح أندريه فيها رسائل ـ «ها» ، رسائل عشيقته السابقة، تلك التي كانت تأتي إليه على اسم بوكاسيوك. وكان بوكاسيوك يقبض على كل رسالة يتلقاها أو يرسلها مائة ليرة، ولكن زامورتسيف كان سعيداً بهذا لأنه يعتبره ضمانة حتى لا ينبس ببنت شفة عن المراسلات مستلمها الوهمي بوكاسيوك هذا، إن لم يكن خوفا من فقدان دخل إضافي، فخشية من عار افتضاح أمره كشخص شحيح وخسيس.

لم تكن لدى فيرونيكا عادة التفتيش في أغراضه و «فلفشة» أوراقه، ولم يكن أندريه يخبئ الرسائل الآتية بعناية فائقة: تحت الملفات الرسمية في الدرج السفلي إلى اليسار. ولكن يبدو أن واحدة منها... نعم، واحدة... ألقى بها على رأس كومة الملفات من دون أن يخفيها، ولعل زوجته، في تلك اللحظة، احتاجت إلى قلم أو ورقة... والباقي يمكن للقارئ أن يستخلصه...

راح أندريه يجمع الأوراق المبعثرة المكتوب عليها بخط صغير مدوّر تدويراً من دون أن يعرف لماذا يفعل هذا، وكانت عيناه تقعان من حين لآخر على مقاطع من جمل سخيفة وبلا معنى، وهو ما زاد وفاقم من ارتباكه.

في الوقت نفسه شعر أندريه وكأن إبرة حياكة رفيعة حادة انغرزت في بطنه جهة المعدة، ولم يكن يدرك كم من الوقت مرّ قبل أن تنغرس أخيراً في رأسه الذي بات فارغاً تماماً كالطبل فكرة محددة:

«وأين ميمي؟»

وهنا دخل الخوف المجنون وغير المفهوم كإبرة ثانية في الحلق. كف زامورتسيف عن جمع الأوراق (خيرا فعل لأن هذا العمل كان، بصراحة،

عملاً غبياً جدا وليس مفهوماً ما الحاجة إليه)، وسار إلى غرفة النوم على قدمين متعبتين حتى الإرهاق.

وفي غرفة النوم أخافه أكثر أيضاً الفراغ الذي تحدثه في النفس العتمة، وقد خفف منه قليلاً مصباح الطاولة. حينئذ هرع إلى المطبخ وهو يكاد يلهث. ثم إلى غرفة الاستقبال. وفي غرفة استقبال الضيوف رأى أخيرا كيف تحرك الريح الستر التي تخفي باباً مفتوحا يفضي إلى الشرفة، وشعر كيف يتدفق من هناك ليلفح الأقدام الهواء البارد. وعندما اقترب أندريه من الستارة محاولاً أن يلتقطها بيده، سمع من لجة الظلام وراء الباب صوتاً خافتاً لاشك أنه صوت فيرونيكا صوت فيرونيكا (أي ميمي) دون غيرها. وفي الوقت نفسه كان الصوت ذاك غريباً غير مألوف، كما بدا لأندريه، وكان إما صوت غناء وإما صوت صلاة. خرج أندريه إلى الشرفة، فرأى طيف زوجته وقد جلست على كرسي صيفي، مديرة له ظهرها، وملقية على منكبيها معطفاً خريفياً خفيفاً.

- ميمي، لماذا أنت هنا... في هذا البرد، ولم ترتد شيئا؟ - قال زامورتسيف بوجل.

بدت فيرونيكا وكأنها لم تسمعه ومرة أخرى قالت شيئا ما فيه رقة وترنيم.

انحنى أندريه يتملكه شعور لم يدر ما هو، أهو شعور بالبرد الآتي من الشارع، أو إحساس بالرعب والقشعريرة، وعانق زوجته من الخلف واضعاً يديه على كتفيها اللتين يسترهما المعطف قليلاً. حاول جاهداً أن لا ترتجف يداه كثيراً.

- فيرا... - ولم يتمكن بعد ذلك من قول شيء، اللهم إلا تلفظه بصعوبة بالغة بكلمتي: ها أنا ذا.

- آ... أنت... - قالت هذا من دون أن يهتز لها جفن؛ وكانت على كرسي بجوارها زجاجة من الجن وكأس. هذه الطريقة في الشرب الشبيهة بالسكر لم تكن من عادات سلطان يرونيكا، ولكن أكثر ما أدهش أندريه صوتها - كما لو أنها كانت تحدّث بصوت رخيم شخصاً غير مرئي

يجلس هناك على درابزين الشرفة المصنوع من الحديد، عن شيء عزيز في حياتها كانت تمتلكه وفقدته الى الأبد. ولدى سماع أندريه أنغام هذا الصوت سرت في جسده جسده كله قشعريرة، على الرغم من أنه لم يغص في معنى الكلمات التي قالتها.

ـ فيرا... صغيرتي، حبيبتي! ماذا تفعلين هنا؟

ـ أنا... – ردت عليه فيرونيكا، ولكن أندريه راعه إدراك أن فيرونيكا لم تكن تشعر في تلك اللحظة بوجود أي محاور على الشرفة؟ .. أنا؟ ـ وراحت تنظر بعينين واسعتين إلى المكان نفسه الذي كانت تنظر إليه قبل ذلك: إلى الليل، إلى القمر، وقالت بصوت هادئ وحالم: ـ لا أد...ري...

ـ فيرا، تعالي نذهب، ستصابين بنزلة برد هنا!

بدأ زامورتسيف ينهض بجسدها من الكتفين، وقد تدلّى مثل جثة هامدة، وقال ذاك الصوت نفسه غير المهتم بترنيم مشوب بالاكتئاب: ـ أنا لن أصاب... بالبرد...

ساعتئذ ، دسّ أندريه يديه تحت ركبتيها ونهض بالجسد شبه الهامد وحمله إلى غرفة النوم مردداً بذهول:

ـ فيرا، صغيرتي الحبيبة، ما بك؟.. فأجاب الصوت الغائب الحالم قائلاً:

ـ لا أد...ري...

شرع يتطلع الى عيني سلطان يرونيكا المفتوحتين على وسعهما، وحاول أن يلتقط نظرتها، لكنه لم يتمكن من ذلك كما لو أنه وزوجته باتا موجودين فعلاً في عالمين مختلفين تماما وعائشين في بعدين غير متقاطعين.

حينئذ بدأ يهزها من كتفيها، وكأنها بهذا ستفهم على نحو أفضل ما كان يقوله لها صراخاً، من دون أن يتعرف صوتَه المخنوق من الأسى:

ـ لقد انتهى كل شيء بيني وبينها! انتهى! ..

وكانت فيرونيكا تكرر بصوت رقيق:

ـ نعم... انتهى... انتهى...

وفجأة أدرك بوضوح ثاقب أنه لن يغير في الأمر شيئاً حتى لو سقاها الآن مستحلباً من حشيشة مهدئة، ولو قبل دون هوادة تلك الأصابع الهامدة، ولو ضرب رأسه بالحائط، وحتى لو سمح بقطع يده – فميمي التي عرفها قد ذهبت أدراج الرياح، بل يمكن قول هذه الكلمة الرهيبة: ماتت: ميمي الحبيبة التي وثقت به وثوقاً ساذجاً صافياً، لن تعود إليه... لن تعود أبدا.

نعم. أبداً. أبداً.

ـ فيرا، صغيرتي... ماذا تريدين مني أن أفعل؟ ماذا؟ .. قولي شيئا، بربك!

ودارت في رأسه فكرة: لكان من الأفضل لو ضربتني... طعنتني بسكين... إنه لجحيم هذا، يمكنه أن يجعل المرء في عصفورية! .. وما كاد أندريه يفكر في ما آل إليه أمره من جديد حتى انتهى تحليقه الفظيع المستجد إلى العتمة التي ألفها، والتي أخفت في طياتها خرير الماء المتدفق بهدوء.

ـ حسنا، ما انطباعاتك، أندريه سرغييفيتش؟

لم يدرك زامورتسيف في الحال، وقد أصابه الذهول مما رآه وعايشه، أن الرحلة القصيرة هذه لم تكن أكثر من صورة تبين كنه تلك المحادثة التي جرت بينه وبين الطاووس، والتي، كما اتضح، تواصلت. وبينما كان يعود إلى رشده، تمكن صوت مزعج لم يفهم من أين أتى من الدخول على الخط قائلاً :

ـ لعلك لست بأحمق، يا صاح، وقد كان بوسعك أن تعرف مسبقا، إلى أي درك قد تصل الأمور.

هذا الصوت المزعج الكريه هو، والحق يقال، ما أخرج أندريه من ذهوله.

ـ أنا عموماً... ربما كنت فعلاً...ولكن... ولكن من ناحية أخرى...

نعم،! – قاطعه الطاووس، وهو يتحرك في العتمة كبقعة متحركة. نعم! – وكان يتحدث بهدوء، ومن دون تشفٍ، وبشبه تعاطف. ـ أنا أعلم، أعلم: من السهل أن يعيش المرء على وجه البسيطة عندما يكون هناك الكثير من الناس الذين هم أكثر شرفا واستقامة منه... عندما تبدو الحياة كأنها لهو أطفال، وعندما تعتقد أن كل فرية ، كل نزق سوف ينتهي إلى سلامة ودون عواقب... أنا أفهم كم هو صعب أن يُنتهَك هذا النظام اللطيف (سمع أندريه تنهيدة طويلة). ولكنه في بعض الأحيان يُنتهَك، وإلا فكيف يمكننا أن نصل إلى القناعة بضرورة تحقق العدالة والإنصاف، هذه القناعة الموجود في كل أحد من أبناء البشر؟

ـ لنحاول إذاً! فجأة صرخ صوت آخر، صوت غير مألوف تماما، ثم بدأت الضربات الخافتة المتكررة تنفقع، كما لاح لأندريه، في رأسه بالذات.

وجد أندريه نفسه مرة أخرى في الـ»فولفو» وارتعدت فرائصه إذ سمع أحدهم يدق بنفاد صبر على الزجاج فوق أذنه مباشرة. كان الليل قد تحول إلى شحوب وأصبح شبه شفاف مثل سكر نباتٍ ممصوص، لذلك كان يمكن للمرء أن يستشفَ الطارق بوضوح كافٍ في لبَنِ الفجر الشاحب. وقد اختفى بسرعة الانزعاج الذي سمَم اللحظة الأولى من عودته إلى العالم الواقعي (كان أندريه يخشى أن يكون من يقرع الزجاج راعياً ملحاحاً من الرعاة المحليين، أو واحداً من رجال المخابرات، وهذا ما سيكون أدهى) بمجرد أن رأى وجهاً أوروبياً من دون أدنى شك.

حين التقت عينا هذا الذي يعلم الله وحده من هو عيني أندريه، ابتسم، كما بدا لزامورتسيف، كأنه حسد نفسه على حسن حظه، فأضحى واضحاً تماماً حتى من خلال ضباب الصباح أن الرجل لا يزيد عمره عن الثلاثين عاماً (لا سيما وهو بقبعته ذات الرفرف الأمامي الطويل!). توقف الشاب صاحب القبعة أخيراً عن الطرق على الزجاج وارتسمت على وجهه ملامح نظرة ودية، ومع النظرة تسربت إلى صالون السيارة الـ "HI!" أي الـ "مرحبا!"، وهذا يعني أن "الآتي من خلف الضباب" كان ينطق باللغة الإنجليزية.

اعتصر زامورتسيف من عينيه آخر القطرات من سَمَ النوم وقام بحركة ما. ولكنه في البداية راح يتطلع: كيف حال جروس؟ وبطبيعة الحال، كانت عينا اليزيدية مفتوحتين تراقبان بهدوء من دون أي أثر للنوم فيهما كل هذا المشهد السينمائي، كما لو أنه كان أمرا مفروغا منه أن يأتي إليهما في هذه الزاوية المنسية (وهي حقاً زاوية، إذا تذكر المرء هيئة الحدود الدولية هناك) من خلف ضباب الصبح رجل يرتدي مثل هذه القبعة السخيفة ليتحفهما بكلمة الترحيب "!HI".

ارتسمت على وجه أندريه ابتسامة مصطنعة حاول من خلالها أن يقول: ليست لدي أي فكرة من هو هذا "الزبون"، وخفض الزجاج قليلاً. فتدفق برد السهل المستيقظ من نوم على الفور إلى مقصورة الـ"فولفو" مشيرا بفظاظة إلى أن ركاب السيارة قد نعموا بدفء يحسدون عليه، والآن كفى. ثم سمع زامورتسيف هذه الكلمات المثيرة للدهشة :

-Hi, folks! Which country am I in?[32]

فأجابه أندريه:

-You are in Syria[33]
-This is really great! [34]

هذه المرة سَرَ الأجنبي ذو القبعة المشهودة أندريه وجروسَ ليس فقط بأسنانه البيض، بل أيضاً بصرخة أطلقها تشبه صرخة الهنود الحمر. ولكم أعجبه أن شعر بالبرد بالذات في ضباب سوريا (ألاّ يبرد امرؤ في سترته التي هي من دون طوق ربما كان أمراً مستحيلاً). ولاحظ أندريه على أحد كمَي سترته علماً أميركياً صغيراً، وعلى الكمَ الآخر صورة مستديرة الشكل غير مفهومة. كان يمكن للسترة أن تكون لا بأس بها لولا تلك الجيوب الخرقاء على الصدر.

٣٢ مرحبا، أيها الشعب! في أي بلد أنا؟
٣٣ أنت في سوريا
٣٤ رائع!

بصراحة، كان زامورتسيف ميالاً إلى أن يغلق نافذة السيارة سريعاً في عالم بات متجمداً بعد ليل صَقِع، ولكن ذاك ابتسم كعادته ماداً يده وقائلاً:

ـ أندريو مان، ـ ثم قال شيئا أيضاً ولكنه كان غير واضح.

ـ تشرفنا، ـ قال أندريه بأدب هذه الكلمة بالإنجليزية وقد حفظها من أيام الدراسة في المعهد ورد عليه معرفاً بنفسه : أندريو زامورتسيف.

بعد ذلك، أومأ بيده مثل بدوي يدعو ضيفاً إلى خيمته ، وقال متباهياً بمعرفته العربية: ـ تفضل، حوّل!

ثم دله على الباب الخلفي في الجانب المقابل (لأن الجانب حيث كان الحديث يدور بينهما كان فيه الكثير من المتاع المبعثر)، ففهم أندريو الأجنبي القصد من وراء إشارة أندريه تلك وقال:

ـ أوكي.

وفيما كان الشاب يدور من حول غطاء محرك السيارة، تمكن أندريه من القيام بثلاثة أشياء: استطلاع الملابس الغريبة التي كان ذاك يتغندر فيها استطلاعاً أكثر تفصيلاً، وإضاءة اللمبة في المقصورة وإلقاء نظرة سريعة على الساعة. وكان الوقت الظاهر على الساعة منطقياً تماما: ٥,٠٧ فجراً. وفي ما يتعلق بالملاحظة الأولى، تبين له أن السترة التي كان يرتديها سميه أندريو لم تكن البتة سترة، ذلك أن الجزء الأعلى منها كان يتحول في الأسفل إلى سروال، وكان السحاب العريض الفولاذي يختفي بين الساقين. وعندما دخل "الوافد من الفضاء الرحب" بشاراته وحذائه المربع الشكل سيارة الـ "فولفو"، كان يمكن للمرء بكل ثقة أن يصفّر ويكبّر في الحال اندهاشاً:

ـ اللّه أكبر!

ـ Hi! قال أندريو مان مرة أخرى بمرح شديد، ومدّ يده إلى زامورتسيف، فصافحه أندريه ليجد أنها قوية أكثر مما تصوّر.

ـ ما كنت أظنك مهماً بهذا القدر، يا أندريو.

ـWhat?[35] ؟

ـ أقول، ـ قال أندريه وهو يختار بعناية الكلمات الإنجليزية المناسبة ويستبعد الكلمات العربية، ـ لم يسبق لي أن رأيت بأم العين طياراً أميركياً. أنت طيار، أليس كذلك؟

ـHey! Where are you from?[36]

ـ قال الأميركي بدلا من الجواب عن السؤال المطروح.

ـ لا تخف، ـ قال أندريه باللغة الروسية مطمئناً إياه وعرّفه بنفسه :

ـI am Soviet.[37]

ـSweden?[38]

ـNo. So-viet. Understood?[39]

هذه المرة صدر الصفير عن أندريو مان.

ـYou must be kidding![40]

ـ هو لا يصدق، ـ قال زامورتسيف لليزيدية ساخرا – حسنا، ماذا أقول له يا جروس، إيه ..؟

اهتاج الأميركي اهتياج طفل ، وقال بسعادة الطفل أيضاً:

ـ أوه، Vodka, perestroika, na zdorovie[41]، ـ ثم واصل كلامه بسرعة لدرجة أن أندريه كاد لا يمتلك الوقت الكافي لفهم ما يقول:

٣٥ ماذا ؟
٣٦ من أين أنت ؟
٣٧ أنا سوفياتي
٣٨ من السويد؟
٣٩ لا. سو-فياتي. هل فهمت؟
٤٠ لا بد أنك تمزح!
٤١ فودكا، بيريسترويكا، بصحتك!

اللعنة، ـ لم أكن افكر يوما أني سألتقي..! هل أنت حقا روسي؟ .. الروس كلهم... (وأوضح بإيماءة ما أراد قوله) «عتاعيت»، عتاريس... وسُمْر كذلك.

ـ لماذا سُمر؟ ـ تفاجأ زامورتسيف مندهشاً.

ـ لا أعرف، عندنا في الأفلام هم دائما سُمْر. ذوو لحى وحواجب ضخمة.

ـ تصورات عجيبة غريبة!، ـ تمتم أندريه، ـ إنهم يعرفون هناك كيف يلعبون بعقولكم.

لم يدر أندريه لماذا في تلك اللحظة راودته أغنية عن سان فرانسيسكو، كان وأترابه يغنونها وهم أطفال في فناء البناية:

«هناك الآنسات ترقصن عاريات

هناك السيدات تختلن في الفراء،

ويترك الخُدّام لحاهم خاضعين،

ويلبس اللصوص معاطف الأسياد...»

لذلك لم يسخر من التصورات الغريبة والمريبة عن روسيا لهذا الأجنبي، بل سأله بدلا من ذلك:

ـ ما بك، يا أندريو، أنت تطير هكذا، بهذه القبعة؟

ـ بالطبع لا. وفقا للتعليمات، خلعت الخوذة ورميت بها بعيدا. أما القبعة فهي دائما معي، هنا، ـ وربت الأميركي أندريو على ساق بنطلونه التي خيط عليها الكثير من الجيوب. ـ لقد فكرت فقط في أني لو ظهرت على روسي وأنا أرتدي الخوذة، فإنه سيفعل فعلته في سرواله. فضحك كلاهما حتى القهقهة. لا لأن النكتة كانت تنم عن ذكاء، ولكن لأنهما كانا جذلين أصلاً.

ـ وماذا، السيدات (الـlady) لا يبتسمن؟ ـ سأل الأميركي وهو يدل بعينيه على جروس.

ابتسم أندريه وقال في نفسه: يلاّ، تملق ما شئت، فهي لن تقدّر تملقك

هذا لأنها لا تعرف ماذا تعني كلمة "سيدة"، ـ هنا أنت لست في أميركا ولا في أوروبا.

ـ أقول لك، هذه السيدة ليست هيّنة. هي من السكان المحليين، ولكنها ليست مسلمة (اندهش أندريو اندهاشاً مفرطاً: "أوه!"). هي يزيدية. أنت، بطبيعة الحال، لم تسمع بهؤلاء؟ لم تسمع طبعاً. اليزيديون هم من عبدة الشيطان.

ـ أوه! ـ قال الأميركي من جديد ـ إنها زوجتك؟

ـ لا.

ـ صديقتك؟

ـ أوه، لا...

ـ I see[42]... وماذا تفعلان هنا؟ تعبدان الشيطان؟

ضحك كلاهما مرة أخرى. إنه مرح هذا الأميركي أندريو. وهو ربما شبيه بأولئك الذين في الأفلام. لا في أفلامنا، طبعاً، بل في أفلام هوليود.

ـ إذاً، تقول نحن نترك لحية؟ ـ سأل أندريه من جديد ـ. فعلا، يعرفون جيداً كيف يغسلون أدمغتكم... قل لي، هل أنت طيار في سلاح الطيران البحري؟ Navy aviation؟

ـ لماذا؟ أجاب أندريو مان تعجباً.

ـ بدلتك ذات لون أزرق غامق.

ـ لا، ليست بدلة الطيران البحري زرقاء. هي عندهم خضراء.

دهش زامورتسيف مرة أخرى من المنطق الأميركي الغريب: حتى الحمار يعرف أن رجال البحرية ينبغي أن يكون لون بدلتهم أزرق، وليس أخضر.

ـ وكيف اسقطوا طائرتك؟ بصاروخ؟

أجاب أندريو بتقطيبة غير محددة المغزى، ولم ينبس ببنت شفة.

٤٢ فهمت.

obeikandi.com

"الصواريخ لدى العراقيين هي صواريخنا السوفياتية، لذلك قطّب الرجل وجهه"، هكذا فسّر زامورتسيف لنفسه تجهم أندريو ولم يصرّ على الجواب.

وبصفة عامة، ليس باللائق تماماً تذكير صقر أميركي فخور من صقور الجو بأن الريح لن تصفر في ريشه بعد الآن، ولكن، أولا، لا داعي لأن يحاول الظهور بمظهر من جاء في رحلة "أوتوستوب" إلى هذه الأصقاع، وثانيا، كان يمكن أن تنتهي الأمور بالنسبة إليه إلى ما هو أسوأ بكثير. في النهاية، هناك أيضا الفضول البشري العادي.

ـ عذرا، أندريو، إذا كان لا يسرك تذكر هذا... أنت جئت من تركيا؟ فكر الأميركي لحظة، ثم أجاب بالإيجاب.

ـ وماذا قصفت بقنابلك؟ صمت برهة ورد بتهذيب:

ـ لا أعرف.

ليذهب الى الجحيم! هو لا يريد أن تسأله لا عن هذا ولا عن ذاك. هو على الأرجح قصف قاعدة القيَارة العسكرية الجوية، ففي "نيوزويك" الصور موجودة وهو رأى المخطط. وطائرته هي بالتأكيد من طراز F-111 وذات الأنف الطويل والجناحين المتغير شكلهما – ويريد هذا الصبي أن يجعل من الأمر سراً عسكرياً... مع أن F-111 ليس بها طيار واحد أصلاً، وربما لم يكن أندريو وحده. في النهاية، ربما كان اسمه لا أندريو مان، بل ليلاند ستيفس أو رونالد همفري...

ـ صدام... قال الأميركي أندريو وقد شعر أنه من الأفضل نزع فتيل التوتر في الموقف، ـ صدام ـ وأظهر كيف أن صدام حسين سيشنَق، وكيف سيكون وجهه كالحاً، وكيف سيتدلى لسانه. واندس خصيصاً بين ظهري المقعدين الأماميين متوجهاً إلى جروس ؛ لأجل أن تنظر هي أيضا إلى أعلى ، وتبدوَ أيضا فرحة.

ولكن ما بالهم قد صبوا كل جام غضبهم على صدام؟ لماذا كل هذه الحرب الشعواء على صدام؟ هو مجرد واحد من أمثال نبوخذ نصّر، ولكن

غير ذكي الذكاء الكافي. وإذا نظرنا ملياً في الأمر رأينا أن الطغاة والمجرمين هم على أية حال من يصنع التاريخ. وكل من تبقى من بني البشر يحاولون وحسب تصحيح مسار الأمور...

ـ قل لي، هل أنت من السفارة؟

انصرف زامورتسيف عن عادة السخرية في طرح آرائه وقال:

ـ لا، أنا... في تجارة.

فكر لحظة، وأضاف:

ـ ربما لاحظت أن رقم سيارتي دبلوماسي... وذا شريط أحمر؟ أرقامنا نحن السوفييت هنا جميعها هكذا.

ـ نعم، أنتم هنا أمّة ذات خصوصية. ربما لديك خريطة لهذه الأماكن؟

ـ نعم، ولكنها ليست جيدة جدا. هي للسياح.

دس زامورتسيف يده في علبة تابلوه السيارة وأخرج منها الخريطة وقد خجل من حالتها التعيسة. ولدى رؤية أندريو ورقة ممتزقة من أوراقها وقد لوّنت بألوان سياحية سارّة، بدت عليه أمارات الحزن.

ـ ليس هناك غيرها؟

فكر زامورتسيف: «كان أجدر به ألا يضيع خريطته».

ـ غيرها؟ لا، آسف.

فسأل الأميركي ما لا بد من سؤاله:

ـ أرجو أن تريني أين نحن الآن.

ـ تقريبياً، حسنا؟ ـ قال أندريه قاصداً بقوله أنه لم يكن يعرف هو نفسه إلى اين أخذه الليل المدلهمّ.

ـ أوكي، تقريباً، ـ وافق أندريو مان واضعاً في اعتباره أن خريطة مثل هذه لا يمكن أن يُطلب منها الكثير من الدقة.

ـ هكـذا إذاً، تمتـم أندريـه. وراح يبـين علـى الخارطـة الرميـلان : قطعناها، إذاً نحن في مكان ما من هنا... وإلى هنا.

ـ ولكـنْ هنـا أربعـين كيلومتراً تقريبـاً، ـ قال الأميركـي وهو غير متيقن.

ـ نعم، صحيح. رؤيتك ثاقبة.

كان الطيـار الأميركي ينظـر إلى إيماءات أندريـه المفعمة بالبهجة نظرته إلى حركات مخبول.

ـ ألا تعرف أين بدقة أكثر ؟

ـ نحن... (كيف تكون باللغة الإنجليزية «ضِعنا»؟) ضللنا الطريق في الليل، أتفهمني؟

ـ أي أنكما سرتما بدون طريق ما يقرب من خمسين كيلومترا؟

يـا له مـن أميركي مزعج وممـل! ربمـا كان غبياً، «طلطميسـاً»، شـخص غـيره كان مفترضـاً بـه أن يكـون قـد لاحـظ علـى الفـور أن الـ«فولفـو» تحمل علـى لوحتها الحـروف المألوفة: SYR أي سـوريا، مفهوم؟ وهو: !«...Which country» "[٤٣]

ـ حسـنا، قال أندريو، بعـد أن لان قليلاً عندما لاحظ صمت أندريه عن غير رضى. – وهذه... المالكية... هل هي بعيدة؟

ـ لا أعرف.

ـ Well[44]. ومتى نذهب إلى هناك؟

ذكّر هذا زامورتسيف بشيء ما، وبدلا من الرد على السؤال قال:

ـ أنا آسف، يجب أن أطفئ اللمبة، أو تفرغ البطارية.

٤٣ من أي بلد ...»!
٤٤ حسناً

أطفأ أندريه الأنوار في مقصورة السيارة، ثم أدرك أنه لم يجب عن سؤال الأميركي، وتذكر مرة أخرى بأسف وحسرة ما حدث لـ «محروسته» الزيتونية اللون[٤٥]، وضرب بكفه عجلة القيادة، وقال فقط بالروسية:

ـ كوكو![٤٦] آه منك يا سيارتي العزيزة. أنت خربانة؟ ألا تريدين أن تشتغلي؟

من المؤسف أن لا يكون بترونيا هنا الآن، فيفسرَ لهذا الأميركي بسرعة ما يجب تفسيره.

أما الأميركي فكرر القول:

ـ كو ـ كو... لماذا، يا ترى، لا نذهب بهذه الـ «كو ـ كو» إلى هناك؟ وابتسم ابتسامة الأميركيين المعروفة بأنها لا تشوبها شائبة، ولكنها تثير الاشمئزاز ولا تقدم أو تؤخر.

ـ أُف! التعامل معك صعب، كم أنت في عجلة من أمرك، يا صاحبي! .. (ثم باللغة الإنجليزية) سيارتنا تعطلت. نحن، بالمناسبة، لم نأت إلى هذا المكان بإرادتنا، بل، يمكن للمرء أن يقول، تدحرجنا إلى هنا «دركبةً»... وانكسر الهوائي، بالمناسبة، ونحن «نتدركب» في الطريق... لذلك، آسف، لم نسمع ما أذيع عبر الراديو من أنك شرَفتنا.

لم يتفاعل أندريو مع نكتة أندريه. فسأله هذا الأخير:

ـ اسمع، ألا تفهم بالسيارات؟

ـ بين بين، ـ قال الطيار متهرباً.

ـ أي مثلي، قال زامورتسيف بضيق. – كل شيء في مكانه إلا الـ «مارش»، فهو لا يتحرك ولا يدير المحرك. ماذا يمكن أن يكون هذا؟

ـ ربما... قال أندريو مان شيئاً غير مفهوم تماما بالإنجليزية.

ـ هل يمكنك اصلاح هذا؟

٤٥ سيارته الـ «فولفو»

٤٦ أداة في اللغة الروسية تقابلها باللهجة العربية الدارجة كلمة «بَخّة!» عندما تخبئ الأم شيئاً ما عن الطفل، ويقصد هنا أن السيارة لم تعد تسير.

فكر الأميركي وقال بشيء من حسن النية.

ـ في هذه الظروف غير المواتية أخشى أن لا أستطيع ذلك، ـ وقد انحسرت عن وجهه للمرة الأولى لبضع لحظات علامات الابتهاج المصطنع.

ـ اسمع، ـ قال أخيرا. – سأعود قريباً، أوكي؟

ـ تفضل. هيا، ما دمت بحاجة إلى ذلك.

ـ سأذهب الآن، ربما لن أعود قبل مضي عشرين دقيقة. لا تقلق ولا تبحث عني. أوكي؟

ـ واضح. ظننت أن عندك...

ـ لا، ليس هذا، ـ عاد أندريو كما كان من قبل: رجلاً من هوليود – فليكن هذا الذي ظننت عند أعدائنا. أليس كذلك؟

شاهد زامورتسيف كيف أنه راح لفترة طويلة يخطو في السهوب السورية، و يختفي شيئا فشيئاً في الضباب الصباحي.

ثم انتقل بعينيه إلى جروس. كأنه نسيها نسياناً كلياً. فالأميركي الذي سقط من السماء شيء من المؤكد أنه غير عادي، يشتت الفكر.

ـ هل تعرفين من هذا؟ (اليزيدية كانت تنظر إلى أندريه بطاعة وإذعان وتستمع إليه بصمت، وهو ما كان قد تعوّده) إنه طيار. كان يطير هناك، في سماء المنطقة. أميركي. أتفهمين من هو الأميركي؟

أشارت بعينيها أن نعم.

ولم يكن يعرف ماذا يقول بعد. أمس كان ثمة الكثير مما رآى أن من الضروري قوله لهذه الكائنة الشعثاء الشعر غير المعروف لونه، والآن لم يبق شيء يقوله. لأمر غريب.

كما أنها كامرأة كانت تعجبه هذا الصباح أكثر.

وفكر في نفسه ساخرا: «إن التجار الروس لضعفاء أمام الغجريات».

ـ أيـن هو يا ترى والدك هذا؟ ـ قال هذا، طبعاً، بالروسـية لكيلا يؤذي مشـاعر الفتاة، على الرغم من أنها لم تكن علـى الأرجح تتمتع بمثل هذا الشعور المرهف – إلى أين أذهب بك الآن، يا عزيـزتي؟ ..

ولكـن هـذا الاهتمام الصـادر عن رجـل بالغ حل محلـه وغطى عليه اعتزاز صبياني. للأسف، هو لم ير لا النهر الكبريتي، ولا الجبال الأرجوانية الـتي كان يحلم بها وهو في الحمام الشـعبي، ولا حتى ما تبقى من الجسـر الرومانـي البائـس، ولكنـه بالمقابـل يقبـع الآن الله يعلم أين في سـيارة انقلبت فيه مرتين مع عابدة الشيطان ومع طيار أميركي أسقطت طائرته في سماء العراق. فهل من يمكنه أن يفخر بمثل هذه الصحبة غيره!

ظهر أندريو مان ، مثلما سـبق له أن أخطر أندريه، بعد حوالي عشـرين دقيقة. وسرعان ما طلع الفجر فتسنى لزامورتسيف أن يرى أندريو مان وهو متألق بزيه الرائع.

ـ اسمـع، ـ قال عندما راح الأميركـي مجدداً يدخل سـيارة الـ «فولفو»، ـ رائعة بدلتك! (عجيب أن هذا الشـاب لا يـبرد تقريبا في هذا الجلد الرقيق الذي عليـه ـ تحميه ، على ما يبدو، الملابس الداخلية الدافئة، مثلما كان يفعـل في زمـن مضى الفرسـان). لعمـري، لم أر يوماً هذا الكـمّ الهائل من الجيوب، أقسم بالله!

ـ Sure[47]، ـ قـال أندريـو مان؛ كان واضحا للقاصـي والداني أنه فخور حقا ببدلته تلك. ـ هذا للقلم (ربّت بنفسه على كمه الأيسر)، شيء مريح جـدا، مـع صمام... وهنا ـ flare[48] (وسـحب من مكان مـا في منطقة الورك شيئا يشبه قلم رصاص ثخيناً)، ألا تفهم؟ بف..ف...ف..أفٍّ منك! ..

بدأ الأميركـي يحرك يده في الهواء بما يشـبه حركة مشـلولٍ، ففهم أندريـه:

ـ آ..ا...! سهم إشارة.

٤٧ بالتأكيد
٤٨ سكاي روكيت = سهم إشارة

ـ... وشعلة أيضاً (وعرض شمعة سميكة ملونة)... مرآة إشارة... («مجموعة أناقة لباربي»)، ـ قال زامورتسيف، ولكن الأميركي تحمّل بدبلوماسية سوء اللباقة هذه من جانب أندريه)... وهنا سكين... ومسدس... (طبعاً، أيّ طيار من دون سكين ومسدس!). وهذه... ، ـ رجعت يده من ساقي البدلة إلى الجزء الأعلى وربّتت على جانبي الصدر. ـ هذه، يجب أن أقول، من الصعب استخدامها لأنك عندما تحلق وأنت في قمرة القيادة تعيق حركتك الأحزمة. Understood؟[49]

ـ واضح، ه قال بمرح أندريه الذي لاحظ أن بعض جيوب أندريو المنتفخة قد تغاضى عن ذكرها وتوصيفها. وأنت، كيف جرت أمورك «هناك»؟ كل شيء على ما يرام؟ كل شيء أوكي؟ ودل بعينيه على السهوب وراء الزجاج قبل أن يطلع الفجر.

تردد الأميركي قليلا، ثم أمال رأسه قائلاً:

ـ أوكي.

ـ مهلا، قل لي بربك هل يمكن أن يكون عندكم «مش أوكي»؟

ـ أخشى أن أخيب أملك، ـ قال أندريو مان متفاخراً بابتسامته العريضة التي بانت من جرائها كل أسنانه.

ـ لقد ذهبت بغية الاتصال عبر اللاسلكي، أليس كذلك؟ كيف؟ نجحت في ذلك؟ ماذا قالوا لك؟

لم يجب الأميركي بشيء، فقط ضحك، لكن ضحكته تلك لم تعجب أندريه. علماً أنه، من ناحية أخرى، يحق له كرجل عسكري أن تكون له أسراره؟

«رَجُلنا كان سيبوح بكل شيء ويبين كل شيء في الحال»، فكر زامورتسيف.

٤٩ أفهمت

ـ Look![50]! ـ ربت أندريو مان على كتف أندريه وأشار إلى شريطة ما فوق مكان القلب، وقال وكأنه يبوح بسرّ رهيب: ـ هل تعرف ماذا كان هنا؟ الاسم، والرقم والرتبة... وهنا squadron patch[51]. ولكن كل هذا كان يجب علي أن أزيله على الفور... وهذه، ـ قال من جديد بصوت عال ومرح، هذه optional patch[52]، اخترعت هذا بنفسي. أترى؟ ما رأيك؟

استدار نحو زامورتسيف لكي يرى هذا أفضل على الكم الأيمن النسر الذهبي وعلى رأسه قمر، ومن حوله نجوم وأجنحة. وفي الجزء العلوي كتب: «No strings, no mirrors, just guts[53]» وفي الأسفل: «Fortes fortuna juvat[54]». بدا لأندريه أن كثرة اللون الذهبي مع الأزرق والكتابة باللاتينية دليل على خيلاء مفرطة، فأجاب بضبط النفس:

ـ لا بأس.

ـ نعم، هذا صحيح، هذه الشارة ليست غاية في الحسن. عندي أفضل منها بكثير. رأس ذئب مزمجر مع عبارة: "No mission too demanding"[55]. ولكن لا يمكن ارتداؤها في وحدتنا العسكرية. أنا أرتديها... (وغمزه) for girls[56].

ـ إذاً أنتم أيضا عندكم صرامة، انظر! استغرب أندريه.

ـ نعم، يا صديقي! ـ طمأنه أندريو مان وربّت مرة أخرى على كتفه.

ولكن شيئا ما لم يكن ينم عن حميمية في جميع تلك الابتسامات والمجاملات. كان ثمة جدار نفسي سميك يفصل بين الشخصين.

٥٠ أنظر!
٥١ شارة أو لصوق تجميلي مع شعار السرب (الذي يخدم فيه)
٥٢ شعار الطاقم أو ما يدل على التزام الطيار بطائرته وتكريس حياته لها
٥٣ «لا طلب نجدة ولا أوهام، فقط اعتماد على الذات»
٥٤ النصر نصير الشجعان (لاتينية)
٥٥ ليست ثمة مهام عصيّة
٥٦ من أجل الصبايا

ـ إذاً، ذلك الـ patch[57] أعلقه من أجل البنات. الفتيات تعجبهن مغازلة ذئب، وابتسم ابتسامة عريضة كتكشيرة ذئب وغمز جَروس مصوراً بذلك "باتشه"، ثم غير تكشيرة الذئب العريضة إلى ابتسامة المرح المألوفة التي ذكَرت أندريه أكثر فأكثر بمسرحية موسيقية مرحة على نسق مسرحيات برودواي.

وقال صوت في داخله متسائلاً: ماذا علّه يفكر بشأنك، هذا الإنسان؟

كأن الأمير كي شعر بموقف أندريه النقدي مما يراه منه، فكفّ عن «تنوير» صالون الـ «فولفو» ببياض أسنانه من خلال تكشيرته، وعاد ليظهر بمظهر الضيف المدرك لأصول أدب الاستضافة:

ـ حسناً، يا صديقي الروسي، ما الذي تفترض فعله الآن؟

ابتسم زامورتسيف ابتسامة عريضة.

ـ لقد زودتني بفكرة لذيذة.

مدّ يده متطاولاً صوب حقيبة وضعها على المقعد الخلفي وأخرج منها زجاجة شبه ملآنة من كونياك الـ «فرتسيخه». فأدخل مرآها البهجة والمسرّة إلى نفس أندريو مان.

ـ أوه! الآن تأكدت من أنك فعلاً روسي!

وليس أقل من سروره بالكونياك كانت فرحته بالطعام المنزلي الذي كانت أعدته ميمي، زوجة أندريه.

ـ أوه! Gorby snack![58]

ـ هذا زوجتي حضّرته.

بقّ زامورتسيف هذه الكلمات ثم تدارك الموقف قائلاً في نفسه: ما كان من الضروري أن أقول ذلك.

ـ أوه! إذاً أنت أيضا متزوج!

٥٧ اللصوق، الشارة
٥٨ مازة غورباتشوفية!

نظرت عينا الأميركي إلى شعر الصبيّة اليزيدية الأشبه بسحابة دكناء، بحسب ما تخيله أندريه، باهتمام مفرط.

ـ أنا لا أفهم.. ما شأنك أنت، ـ غمغم بهذه الكلمات بالروسية وأودع الطيار الأميركي غطاء البلاستيك العائد للترمس. Take this[59].

ـ لنشرب كاس الـ perestroika[60]!

اعتقد أندريه ينتابه شعور السخرية مرة أخرى أن الأميركي يريد أن يفعل شيئا يسترضيه به. وناول جَروس ما تبقى من الدجاجة بعد الأمس، فأخذتها الفتاة وأشاحت بنظرها عنه مجدداً.

وبعد أن شرب كل من أندريه وأندريو مان الخمسين غراما من الكونياك وانتقلا الى المزة قال أندريه :

ـ بالمناسبة، يا أندريو، قد لا يعجب نخبك أحدهم في معرض شُربك له في مكان آخر.

توقف الأميركي عن مضغ الطعام وسأل:

ـ وأنت، هل يعجبك؟

ـ أنا لم أفكر يوماً في الأمر ملياً.

ـ آ! أنت إذاً بلشفي!

ـ لا... أعني... (بالروسية) كيف أفسر لك ذلك، أيها الأميركي الزمكَ؟ (ليت بترونيا هنا الآن، لكان نطق بتركيبة ما معقدة كالحزَورة على سبيل القول: "الحزب الشيوعي السوفياتي كمظهر حي من مظاهر سذاجة الشعب الروسي"). أنت تعرف، يا أندريو، أن الناس مثل النمل: فمهما خرّبت وكر النمل، فإنه سيعود و يخلق وكراً مثله.

ـ أليست البيريسترويكا شيئا رائعاً! إنها خطوة هائلة!

---

٥٩ خذ هذا

٦٠ البيريسترويكا

ـ هائلة، ـ قال أندريه. أنا صرت بالفعل أخشى أمراً: كلما كان الهدف هائلاً كان الخداع هائلاً أكثر... هاتِ أصبَ لك الشراب مرة أخرى.

نظر إليه الأميركي وعلى وجهه أمارات الشفقة.

ـ أنت لست بديمقراطي!

ولكنه في الوقت نفسه لم يتمنع عن مد غطاء الترمس ليصب له أندريه المزيد من الكونياك. فقال أندريه:

ـ كان اللّه بعونهم، هؤلاء الديمقراطيون ومن لف لفهم! بصحتك، يا أندريو... انظر، إن جوَنا الآن هنا ذكّرني بمكان وجدت نفسي فيه خلال فترة شبابي. هناك أيضا، راحوا يشربون بفنجانِ الشاي أيَّ شيء إلا الشاي. هذا على الرغم من أن المكان ذاك كان يسمى بمشرِبة الشاي أو الـ «تشاينايا» (لفظ هذه الكلمة بلكنة إنكليزية لا تخلو من تأنق). هل أنت تعرف ماذا تعني كلمة «تشاينايا»؟ .. إنها تعني أن تنهض في الصباح ورأسك «مدووخ» يمزقه الصداع وملابسك اللّه يعلم بما هي ملطخة، ومن فمك اختفت حشوة «الرصاص». أفهمت؟ ..

أكد الأميركي أنه فهم، فمَشرِبَة الشاي الروسية أو "تشاينايا" مكان رهيب.

ـ متى كان هذا ..؟ في عام ثمانية وسبعين؟ نعم! كان الوقت ربيعاً، والثلج لا يزال مفترشاً الأرض. أرسِلنا يومذاك إلى بلدة "سيشا" بالقرب من مدينة بريانسك... في هذا الوقت كان قمرنا الصناعي السوفياتي على وشك أن يسقط فوق أراضي كندا، وكان العسكريون يستعدون للبحث عن الحطام في تلك الأصقاع، ولأجل هذا تم جمع الطلاب من جميع المعاهد ودرِّبوا على العمل كمترجمي طيران. فبريانسك، كما يظهر، قريبة الشبه بكندا! ـ ضحك أندريه وضحك إثره أندريو الأميركي، مظهراً أنه يفهم أن بريانسك لا تشبه كندا، وأضاف أندريه: ـ لقد عشنا هناك في ثكنات، ولكننا كنا نرتدي ملابس مدنية ونتغندر أمام الفتيات بلباسنا المضحك. ولكيلا نفقد كل انضباط، أتي بوحدتنا

العسكرية إلى سهرة ديسكو لنعزف هناك نحن و «العازفون» الهواة المحليين. ولكن كان هناك أمر بغناء أغنيات روسية فقط. وكانت تتحقق من هذا الأمر الدائرة السياسية المحلية في شخص عسكري برتبة رائد. حاولت مرة أن أعزف شيئا من أغنيات "البيتلز"، فقيل لي لا تعزف هذا على المسرح بعد الآن.

ـ غير معقول! لماذا؟

ـ ربما... ولكن عندنا كل شيء ممكن... وإلى كندا لم نسافر لسبب ما، بل عدنا إلى موسكو. وفي آخر سهرة ديسكو قبل أن نغادر بيوم واحد ذهبت إلى الرائد وقلت له: «هناك أغنية جيدة جدا، مناهضة للحرب، عن الطيارين الأميركيين الذين رفضوا إلقاء قنبلة ذرية على فيتنام...» – لم يتمكن زامورتسيف من المضي في الحديث لفترة من الوقت ؛ لأن أندريو مان كان يضحك ضحكة طفولية جدا أصابت الراوي بعدواها أيضا، فقط جَروس لم تضحك، ولكن أندريو لاحظ أنها كانت تستمع بانتباه شديد، كما لو أنها تفهم. باختصار، تقريبا مثلما كان بالأمس... أما الرائد ففكّر وفكّر ثم قال: "حسنا، امضِ". فغنّيت...

أخذ زامورتسيف يدندن بخفوت على ركبته إيقاعاً حنوناً وراح يغني:

I once had a girl,
Or should I say
She once had me...[61]

وهناك حيث كان يجب أن يكون دفّ، راح يطرطق بأصابعه.

...She showed me her room.

Isn›t it good

Norwegian wood?..

She told me she worked in the morning

٦١ كانت لي ذات مرة فتاة، بل قل كنت أنا لها...

And started to laugh.
I told her I didn't
And crawled off to sleep in the bath...[62]

(عند هذه النقطة غمز أندريه جَروس)

And when I awoke I was alone,
This bird has flown.[63]

أظهر الأميركي أنه شديد الاهتمام ومعجب بما يسمع، على الرغم من أن أندريه كان يشك في كون أندريو، في سنوات شبابه، مجنونا بـ «البيتلز». فلعل معبود جيله كان رود ستيوارت الذي درج على القفز على خشبة المسرح بكلسونه الوردي اللون.

So I lit a fire,
Isn't it good
Norwegian wood?[64]

- أنت رجل رائع! - قال أندريو مان، عندما انتهى زامورتسيف من الغناء - يجب القول إن نظامكم السابق كان تعيساً، رجال أمثالك ويُتعامَل معهم بتلك الطريقة!

هذه الكلمات نفَرت أندريه. لا لأنه كان يحب كثيراً النظام الذي كان يعيش في ظله مع ميمي ويوليا وبترونيا والببغاء وجميع الباقين. ما نفَره كان ثقة الأميركي المفرطة بنفسه. شيء مدهش! لا يمكن أن يكون عندهم لا ستالين ولا بريجنيف. عندنا يمكن، وعند آخرين يمكن، أما عندهم فلا يمكن! من قال لهم هذا؟ تأسف أندريه مرة أخرى أن بترونيا ليس هنا الآن.

٦٢ ... دلتني على غرفتها. أوليس شيئا جيدا، الخشب النرويجي؟ .. قالت لي إنها تعمل في الصباح وبدأت بالضحك. قلت لها أنا لست بحاجة، وزحفت إلى الحمام كي أنام ...
٦٣ وعندما استيقظت كنت وحدي، فيما الطائر طار بعيداً
٦٤ حينئذ أشعلت النار، الخشب النرويجي شيء جيد، أليس كذلك؟

ـ كيف أن كل شيء عندك، يا سَميَي، بهذه السهولة والبساطة! وأخيرا ، تكشفت لنا الحقيقة، أليس كذلك؟ ولكن هذا، بالمناسبة، صدقني، هو القيمة الأكثر تغيراً. قد نكون نحن الروس الوحيدين الذين نعرف هذا أفضل من أي أحد غيرنا. هناك اليوم زعيم مؤلّه، وغدا قد لا يوجد، وقد يظهر بعد غد مرة أخرى. اليوم الأرض مسطحة، وغدا كروية، وبعد غد مفلطحة. ولاحظ معي! ـ في كل الأوقات يقال إنها الحقيقة بعينها!

راح الأميركي ينظر وترف عيناه. إما أنه كان صعباً عليه للغاية فهم ما تتفتق عنه عقول التكنوقراط، وإما لأن زامورتسيف قال هذا بغير اللغة الإنجليزية.

ـ بأي لغة أنا قلتُ هذا، يا ترى؟ ـ سأل أندريه جَروس ثم تذكر: أوه، كم أنا ساذج ! ـ إنها لا تفقه لا الروسية ولا الإنجليزية، و لن يمكنها تالياً الإجابة عن هذا السؤال.

وفكر في نفسه أنه أفرط في الثرثرة. فلماذا قال وغنى كل ما قاله وغنّاه، كما لو أنه لأول مرة يرى أميركياً؟! اللوم يقع في كل هذا على الكونياك ومولیكوف الذي يسر لي رؤية الجبال الأرجوانية. وعلى غير ذلك من الأحداث المختلفة الحزينة التي تجعل من السوفياتي العادي المتزن شخصاً عصبياً يشبه بطل فيلم عن المثقفين. لا سيما أن لا ضرورة لأن يطلع المرء من جلده ما دام قد بات واضحاً أن أمتع الأمور بات وراءه وأن كل المغامرات قد وقعت ، وأن أمسية الامتاع قد طالت أكثر من اللازم ولم يبق سوى الجزء الأخير منها، أي، إذا جاز التعبير، الختام الرسمي للعرض الذي سيتخذ شكل تسليم أندريو مان وجَروس إلى السلطات المحلية. وسيكون من الأفضل تمثيل هذا المشهد في أسرع وقت ممكن، هذا المشهد المضني خاصة ؛ لأنك تشعر كيف أن الكل وراء الكواليس بات جاهزاً ، وينتظر الإشارة لإسدال الستار.

بعد أن تأكد زامورتسيف من أن شيئا لم يبق من الكونياك قال:

ـ ما بالنا لا نزال جالسين؟ لنذهب ونبحث عن الطريق! – ضغط أندريه بأصابعه على أرنبتي أنفه وخنّ كصوت راديو أجش: ـ كما درّسونا ذات

يوم في بلدة «سيشا» بالقرب من بريانسك:

Tower, this is Aeroflot number one, one, two, five, seven. Request permission to start the engines[65]

رأى وهو مفعم بالفرحة كيف أن عيني أندريو زادت استدارتهما من شدة الدهشة.

ـ أوه ..! قال متشككيا ومندهشا في آن. ثم أمسك قبعته الزرقاء، وسحبها إلى الأمام لتصل إلى الحاجبين، وهمس بعد أن حرك قليلاً من تحت رفرفها الواقي الطويل فكه الأسفل، بصوت رسمي لا أقل إثارة للاشمئزاز من صوت زامورتسيف:

ـ Permission is granted[66]

ـ Roger. Out [67]

هدرت توربينات زامورتسيف، فأمر أندريو مان ساعتئذ:

ـ Proceed to taxi strip number two!![68]

استمر أندريه في عملية تسخين المحرك، فلفَ في ورق «مُجَعلَك» بقايا المزة التي كانت أعدتها له ميمي، وأعادها إلى الحقيبة، ثم توقف عن الهدير ليقول لجروس:

ـ ضعي عليك معطفك، تعالي نذهب للبحث عن الطريق.

ـ اسمع، بأي لغة تتحدث؟ سأل أندريو.

ـ باللغة العربية.

ـ أنت تتكلم العربية أيضاً؟ يا رجل، هذا شئ مدهش !

٦٥ ـ برج المراقبة، معك طائرة الـ «أيروفلوت» الرقم واحد، واحد، اثنان، خمسة، سبعة. أرجو أن يؤذن لي بإطلاق المحركات.

٦٦ أمنحك الإذن

٦٧ مفهوم!

٦٨ اتبع خط السير الرقم ٢.

ـ كيف لي برأيك أن أتفاهم معها من الآن فصاعداً ؟ سحب أندريه المفتاح من قفل إشعال محرك السيارة وقال بحدة كي يمنع الأمير التحديق كثيراً في اليزيدية:

ـ Tower, this is number one, one... как там дальше, черт побери... seven. Request permission to take off.[69]

قال هذا ومن دون انتظار الاستجابة لطلبه خرج من الـ«فولفو» ، وقال لليزيدية:

ـ يلاَ!

وإذ وجد نفسه في الهواء الطلق، انتظر لحظة، ولكنه سرعان ما اكتشف أن لا الأميركي ولا جَروس في عجلة لأن يذهب في إثره، فانتابه شعور غريب بالامتعاض، وأدخل رأسه مجدداً إلى صالون السيارة.

أندريو مان استطاع خلال هذا الوقت أن يحشر نفسه بين المقعدين الأماميين وأن يبيّن لجروس، وأسنانه تلمع تحت رفرف قبعته، أية مسكة يلزم سحبها لفتح الباب. وخلال ذلك، كان يضيف بمرح طبعاً كلمات ثرثرة لا معنى لها باللغة الإنجليزية.

شعر زامورتسيف بالامتعاض أكثر فأكثر. أولا، لأنه كان بإمكانه أن يقول بنفسه لليزيدية كيف يمكنها الخروج من السيارة – ذلك أنها، في واقع الأمر، لم تقم ولا مرة من قبل بهذه العملية. الى جانب ذلك، خيل إليه أن في نظرة جَروس، عندما راحت ترمق بارتياب الأميركي، شيئا ما يميز فتاة قروية عادية ، تحب الاستماع إلى البا نجو وعلك العلكة. وهو أراد أن تبقى جَروس الأخرى، جروس التي تهمس بكلمات غريبة غير مفهومة يتوقف لها القلب عشقاً.

أدرك أندريو مان أن الروسي ما كان ليكف من دون سبب وجيه فجأة عن أن يكون بمثابة طائرة، ولذا لوح له بيده:

٦٩ برج المراقبة، هذا هو الرقم واحد، واحد ...سبعة. أطلب إذناً بالإقلاع.

ـ حسناً، حسناً، سنخرج، ـ هذه الـ" نحن" أثارت اشمئزاز أندريه أيما إثارة.

ـ لماذا لم ترتد سترتكِ؟ ستبردين... ـ قال أندريه لليزيدية بشيء من لهجة الآمر الناهي الشاعر بالمسؤولية عنها ، وعن صحتها عندما خرجت من السيارة.

كان كلامه صارما جدا، مما جعل الأميركي يظن أنه يؤنب الفتاة على شيء فعلته مرتبط به بالذات. وقد كان من غير السار أن يتصور أندريو حقا أن ثمة غيرة منه يبديها زامورتسيف ، فقرر لذلك أن يقول له شيئا لطيفا، فأشار أندريه إلى السماء قائلاً:

ـ أنت حقاً رجل شجاع. أنا مثلاً لست صالحاً لأن أكون طياراً، إذن سأسقط بطائرتي في الحال.

رد الأميركي مشيراً إلى "الطعجات" على سقف الـ «فولفو»:

ـ كفاك تواضعاً! أنت أيضا رجلٌ نِعمَ الرجل!

ـ أنا فقط مرح وأحب الحياة ليس أكثر، ـ قال زامورتسيف بحسرة – مثل جَدّي. كان لا يترك هواية الغناء أبداً. تارة يغني أغنية "حبّ الشاب الملعون"، وتارة شيئاً آخر... عندما تقاعد، راح يمارس قراءة الروايات، ويبدي معاناة شديدة مع أبطالها. ذات مرة، أثناء تناولنا وجبة الإفطار، بدأ فجأة يحدثنا: «هل يمكنكم أن تتخيلوا ذلك؟ قال الأمير فادبولسكي..»

باتت الرؤية جيدة في كل الاتجاهات تحت قبة السماء العالية والباهتة اللون ذات البقع الرمادية غير الواضحة، الواعدة بظهور السحب. وكان هناك شعور بأن الشمس على وشك أن تظهر فتضيء السهل الهادئ وأشباح التلال (ربما كانت تلك حتى جبالاً) التي كانت تُرى تارة قريبة وتارة في البعيد. كان الجو هادئا جدا، كما يجب أن يكون عليه قبيل طلوع الفجر، وكان يسمع فقط طنين الذباب. مشهد مدهش! من أين يأتي، يا ترى، الذباب إلى مثل هذه الأماكن المقفرة؟

ثم في مكان ما سُمِع طَرْقٌ غير مُعجل. وكان هذا الصوت مألوفا لأندريه، فقال للأميركي موضحاً مصدره :

- إنها خنزيرة بئر لسحب الماء.هذا يعني أن نهر دجلة يقع في الجانب الذي يسمَع منه طرقها هذا.

إلا أن الصوت كان ينتشر بسهولة ليملأ كل الأرجاء. ثم تناهى إلى المسامع هدير محرك سيارة، ولكنهما، رغم إدارته هو أندريو رأسيهما في كل الاتجاهات، لم يعثرا على شيء يشبه سيارة. سحر ساحر!!! فقال أندريه:

- من الواضح، أننا هبطنا من هنا. علينا أن نرى، ربما كانت هناك آثار إطارات، ذلك أن المطر كان قد توقف تقريبا عندما حدث ما حدث معنا... صعدوا المنحدر الطينيّ الذي كان قد أضحى تقريبا جافاً تماما، كما لو أن الأمطار لم تهطل على الأقل منذ يوم يأكمله. مشت جَروس وراء أندريه وأندريو من دون أن تتخلف عنهما. وكان أندريو يرمقها بنظرة خاطفة بين الحين والآخر .

- قل لي بربك، كيف هم يعبدون الشيطان؟ - سأل أندريو فجأة زامورتسيف.

- وهل أنت في حاجة ماسة إلى معرفة هذا؟

- فقط، مجرد تساؤل بريء... إن هذا مثير للاهتمام حقا، - قال أندريو مان مكرراً بعد قيامه بخطوات قليلة.

كان أندريه، عموماً، يتصور ما هو كنه هذا الاهتمام من جانب سميّه الأميركي. لا سيما أنه كان أكبر منه سناً. من المؤكد أن الشاب هذا عانى الكثير، فليس كل يوم تُسقَط طائرتك المقاتلة. وكان أندريه بالمناسبة يتعاطف معه كثيراً. ولكن الطيار الآن هدأ قليلا بعد أن أسقطت طائرته وبات على يقين من أن الحياة مستمرة، وأنه سيعود لا محالة مرة أخرى إلى حياته المعتادة وأصدقائه الطيبين. ولذا لم يكن من العجب في شيء أن أخذ يشعر بطبطبة أكفّهم على كتفيه، ويرى

وجوههم ويرى الترقب في أعينهم بافتراض أن يعرض عليهم ، ولو بشئ من التحفظ بعض التفاصيل حول كيفية سقوطه من سماء غريبة، وحول أسفه على طائرته ذات الخطوط الشبيهة بخطوط لوحة الشطرنج على الأجنحة، وحول شعوره وهو يخبئ مظلته وخوذته بعد أن سقط عند صدام في العراق، وحول ظهور سيارة ليموزين فجأة من بين الضباب والسحاب فيها شخص روسي حقيقي، وكيف أنه شرب الكونياك مع هذا الروسي و... وكان يفترض ألا ينقطع حبل الغوص في هذه التفاصيل لأن ذلك سيكون أمراً مسليا لرفاقه. بالإضافة إلى أنها سوف تبقى مع أندريو مان مدى العمر، فهي الآن ملك له ولأسرته، وسوف تمتلكها زوجته، وبعد ذلك سوف تنتقل بالوراثة إلى أولاده...

ـ إلى أين نحن ذاهبون؟ ـ سأل الطيار.

توقف زامورتسيف. حقا – إلى أين؟ راح من باله أنهم ذهبوا للبحث عن آثار الـ «فولفو» التي ينبغي أن تفضي بهم إلى الطريق. بالإضافة إلى ذلك، وجد فجأة أن الشمس قد بدأت تطل من خلف تعرجات المنظر الطبيعي، وتضيء كل الأرجاء، وأن سحباً خفيفة معلقة بحبال السماء فوق الجبال البعيدة، كما لو الجبال رافعة قبعاتها.

ـ أعتقد أنني أغفلت المكان، ـ قال زامورتسيف ـ ربما استدارت السيارة عندما انقلبت بحيث أننا بتنا نذهب الآن في اتجاه مغاير. أنت أيضا ألم تلاحظ أي شيء، يا أندريو؟ أنظر، أترى... دعونا نصعد إلى تلك التلال ونرى.

وبينما هم يكملون رحلتهم ، عاد الأميركي إلى موضوعه المحبَّب:

ـ لماذا لا تريد أن تخبرني عن هؤلاء... الذين يعبدون الشيطان؟

ـ إنها لقصة طويلة، وشرحها قد يطول. ـ قال زامورتسيف.

ـ حسنا، إذا كنت لا تريد أن تخبرني، فأنا سأسألها هي.

توقف أندريو مان منتظراً جَروس. ولجهله، مثلما زامورتسيف بالأمس،

أن الشيطان قد لا يكون لزاماً ذو ذيل وقرنان ، سأل الفتاة اليزيدية بتهذيب ولباقة:

ـ إذاً، سيدتي، أنت تؤمنين بالشيطان، أليس كذلك؟

انحنى صوبها وحرك حاجبيه الشقراوين تزلفاً، وراح يطرح أفكاره وتصوراته التي اكتسبها من خلال مشاهدته أفلام هوليود:

ـ سيدتي الشيطان، كيف تفعلون هذا؟ كيف تعبدونه؟ أترقصون؟ أتغنون؟ أم تقدمون الأطفال كقرابين؟

بطبيعة الحال، كان يعرف أنها لن ترقص ولن تغني له، فقط كان يجب أن يقول شيئا ما على الأقل بهدف استكمال وإغناء «القصة التي حصلت له»، فقال ملحاً على سؤاله ومبتسماً ليخفف من وطأة إلحاحه:

ـ أرى، يا آنستي، أنك لست تلك الصامتة المسحورة أبداً كما تبدين.

ما أسمَكَ ، أندريو مان هذا!

وفجأة حدث ما لم يكن يمكن لزامورتسيف أن يفسره ، كان أمراً مستحيلاً وكئيباً : فقد مدت جروس يدها ومسدت بها خد الأميركي. هي، في الواقع، لم تمسَده، بل لامست بإصبع أو إصبعين ذاك الخد المستدير. ولكنه كان غير مسرور من كونها، حسب ما خيل إليه، رغبت أن تفعل ذلك. وكان أكثر ما أزعجه أن تلك الحركة كانت مماثلة لتلك التي قامت بها ليلاً في السيارة، عندما لمست خد زامورتسيف. هذا مع العلم أن الأميركي هو بطبيعة الحال أكثر شباباً وطراوة منه، على الرغم من أنه سقط من السماء، فحتى الشعيرات في أنف زامورتسيف بدأت تشيب.

ـ ماذا تفعل، يا أندريو؟ ـ سأله أندريه بصوت يفصح عن موقفه ، موقفِ المنزعج مما يجري.

ـ أنا؟ لا شيء، ـ رد أندريو بصدق تامَ.

ـ انتبه وتذكر، هذه الفتاة أنا مسؤول عنها.

ـ أنت لا تريد إذاً حتى أن أتحدث إليها؟ صدقَ إذاً ما كنت أظنه من أنك بلشفي!

لا يمكنك طبعاً أن تفسر له كل شيء، فهو مجرد جندي، وإن كان جندياً أميركياً. ولكن كان يجدر به ألا يحشر نفسه ويتدخل في حياة شخص آخر. فهو هنا، إذا جاز التعبير، عابر، كغيمة عابرة.

ـ أتعرف؟ أنتم، أعني الأميركيين، سيأتي يوم تقعون فيه في فخ.. كان يريد ان يقول له بالإنجليزية: في فخ غطرستكم السخيفة، ولكنه لم يعثر على الكلمات المطلوبة... فأومأ إلى أندريو بما يشبه الريش يضعه السلطان خلف رأسه فوق العنق.

بعد ذلك، أمسك بيد اليزيدية، بأصابعها النحيفة الرقيقة، ولكن القوية والخشنة على غير توقع منه، مثلما عند طائر، وسحبها مجدداً إلى السيارة من دون أن يهتم بما إذا كان أندريو مان يتبعه أم لا. ومع ذلك، لم يعد أندريه غاضباً على الأميركي.

وقال لائماً نفسه، أولست أنت نفسك مذنباً في كل هذا، حين رحت تغوص في تفاصيل واختراعات لا طائل من ورائها ! ألست أنت الذي كل شيء في هذا العالم معقد بالنسبة إليه!... والأهم من ذلك هو أنك أردت له أن يكون كذلك، أردت لأنهار الكبريت أن تغلي، ولجبال الأرجوان أن تنزلق، ولحبات الرمان الناضجة أن تتساقط وتتفجر على الحجارة، وللطاووس الشيطان وخطبه المخدّرة للوعي الإنساني أن يتألق ... أردت على الأقل أن يكون ثمة شخص كبترونيا. وهناك من يعجبه أن تكون الأمور أكثر بساطة. خاصة أنك تعرف جيداً أن الطاووس غير موجود أصلاً وأن فيلشتينسكي قد تقاعد منذ فترة طويلة، وأن القصة وصلت إلى نهايتها.

وصل زامورتسيف وهو يجر جَروس من يدها إلى مكان بات ممكناً أن يرى منه سيارته الـ«فولفو» المعزولة، فرأى بحذاء السيارة بضعة أشخاص في لباس عسكري ـ ربما خمسة أو ستة. واحد من هؤلاء الأشخاص – كما

بدا من بعيد لأندريه – راح يسحب مقبض الباب (جيد أنه لم يجد عناء في إغلاق كل أبوابها عندما خرجوا منها وذهبوا!).

«آها! رجال المخابرات استيقظوا!» ـ فكر زامورتسيف بتشفٍ.

أمسكت يد الأميركي بكتفه (بات من جديد قربه إذاً!)

ـ يا رجل، من هم هؤلاء الناس؟

ـ الـ «كا.جي.بي. المحليون ربما» ، ـ قال أندريه لأجل أن يفهم أندريو.

فقال أندريو مان وصوته لم يعد يتميز بالصفاقة المعهودة فيه، على طريقة أهل برودواي، بل تحول إلى صوت طيار عادي وخشن ، طيار الله أعلم أين سقطت طائرته:

ـ هذا أمر لا يعجبني! هؤلاء أخشاهم كثيراً.

ـ ما بك؟ لا تخف، إنهم سوريون! ـ قال زامورتسيف وقد شعر بأن يد الطيار راحت تشده بعيدا عن الـ«فولفو» ـ دعني وشأني، أنا لست غورباتشوف، لست غوربي، يا حبيبي!

أولئك الملتفون حول الـ «فولفو» لم ينتبهوا في البداية إلى الثلاثي المرح، وبما أن النسيم كان يهب مدبراً من صوبهم، فإنهم لم يكونوا يسمعون ذاك الجدل الدولي كله بين أطراف الثلاثي المذكور. ولكن حدث بعد ذلك ما كانت قد حذرت منه في مرحلة الطفولة أفلام السينما والكتب المفضلة: في اللحظة غير المناسبة استدار رأس أحدهم، وفجأة هرع الأشخاص بلباس الكاكي بصمت وتركيز إلى حيث كان زامورتسيف ومان وجَروس ناسين الـ «فولفو» كلياً.

ـ عجلوا! قال الأميركي بشيء من الصراخ تقريباً – لنهرب من هنا!

أراد أندريه أن يقول شيئا يسخر فيه من الوضع المستجد، ولكن شعور الأرنب الذي اشتمّ رائحة الثعالب المفترسة وهي تقترب بشده إلى الاتجاه نفسه. فهربوا مع جَروس، وقد شد بعضهم على أيدي بعض، كما لو كانوا أطفالاً في مخيم الطلائع الصيفي.

ـ من تعتقد أن يكون هؤلاء؟ ـ سال أندريو زامورتسيف.

ـ لا أعرف. أنا لا أحبهم.

بعد مرور بعض الوقت، قال أندريه:

ـ هم سوف يلحقون بنا ويدركوننا في النهاية.

ـ أجل، ـ قال الأميركي.

كانت جَروس تركض بسرعة، وما كان يثير الدهشة أنها راحت تفعل ذلك من دون أن ترفع ولو سنتيمتراً واحداً تنورتها الخضراء القبيحة الشكل.

ـ أندريو، اسمع، إنهم ليسوا فعلاً سوريين. ـ قال زامورتسيف، بشيء من الخوف فجأة، وأضاف:

ـ السوريون ما كانوا ليسكتوا عما رأوا... أتعتقد أنهم...

ـ تعالوا إلى هنا! ـ قال الأميركي بلهجة الأمر، بدلا من الرد على سؤال أندريه.

انزلق بحذائه الرائع عبر المنحدر إلى وهدة حفرها على مدى آلاف السنين جدول صغير في السهل المنبسط. أما زامورتسيف فأحس أنه ينزلق إلى الأسفل في إثر أندريو كما لو أنه ينزلق على إسكي التزلج. وانشغل فكره على الفتاة اليزيدية خوفا من أن تسقط وتتعثر، غير أنه سقط أولاً، ثم سقطت بعده جَروس. وعندما رأى الطيار كيف أنهما يتدحرجان على الطين، قفز يريد أن يوقف الرجل الروسي على قدميه، ولكن زامورتسيف لم يتح له هذه المتعة. فقفز هو نفسه وأمسك بيد جَروس، بينما أمسك الأميركي بيدها الأخرى، كما لو أنهما كانا في طريقهما لقسمة الفتاة إلى نصفين، ولكنهما بالتأكيد لم يقسماها، بل فقط سحباها بعيدا عن الأرض وحملاها حملاً، غير مهتمين بما إذا كانت تلامس قدماها الأرض أم لا.

كان العـدُوّ بغيـة الفـرار في تلك الوهدة ، أكثـر صعوبة مما كان عليه فوق بما أن مجرى الجدول شبه الجاف كان مرصوفاً بالحجارة المتناثرة هنـا وهنـاك. وكانت تبرز في بعـض الأماكن نتوءات مـن كتل رمادية كبيرة مثقوبة كالإسفنج مثيرة للاشمئزاز فوق أرض شبه حمراء.

تمتم أندريه قائلاً وهو يلهث من عناء الركض، وربما من شيء آخر:

ـ مثلما عند نيتشه: «اخترع لنفسك هدفاً ومت من أجله...»، ولكني لا أوافقه هذا الأمر الأخير... هذا الشيء الأخير لا أوافق عليه أبداً...

أصبح الجدول ضحلاً أكثر فأكثر ومتشعباً. ففي هذا المكان التقت بضعة مجارٍ كانت تنتعش إبان سقوط أمطار غزيرة. وكانت الأرض هنا شـبيهة إلى حد ما ببطانية مسـحوقة . وترتفع هنا وهناك شـجيرات هزيلة مستوحدة.

سـحب أندريـو مان جَـروسَ عبر المنحدر إلى أعلى، مـا اضطَر أندريه إلى اللحـاق بهما اضطـراراً، يعذبه إدراكـه أن رجال المخابرات هم على وشـك اللحـاق بهـم وإدراكهم. وتذكـر أن الأميركي كان قد أشـار إلى وجود مسدس في حوزته. لا بد أن يكون لديه مسدس فعلاً أو بندقية آلية ما!

ـ أندريو، أندريو، ـ قال زامورتسيف، ـ استمع إلي...

ولكن الطيار نظر إليه نظرة معبرة جعلت السـؤال محشـوراً في حلق أندريه. فقد أطبق أندريو يده الطليقة على فمه عارضاً على زامورتسيف أن يفعل الشـيء نفسـه، ثم أشـار باليد نفسـها إلى الأمام أن تعال بسرعة إلى هنـا. نظر أندريـه بريبة في الاتجاه الذي دعاه إليـه بإصرار الأميركي: ربمـا كان الطيار اكتشـف مكاناً سـحريا، ولم يبق إلا القـول: افتح يا سمسـم!؟ ولكن فجأة بات الاسـتمرار في السـير مزعجاً كمـا كان من قبل، فهذا المزيج من الحجر والطين والعشـب الشـتوي الوضيع أثار في نفس زامورتسيف شعوراً بتجشؤ مرير.

أوصل أندريو مان رفيقيه إلى أخدود غير عميق وقال بهمس رهيب:

ـ انبطاح!

ـ تماما مثلما في أفلام هوليود، ـ همس زامورتسيف هو الآخر مازحا.

ـ انبطاح! همس الأميركي مرة أخرى – ترجم لها.

ـ هيا، جَروس، انبطحي، استلقي على الأرض... هنا، ـ قال لها أندريو. ـ هكذا ينبغي. هذا ضروري للغاية. انبطحي واستلقي بصمت وهدوء، ولا تتحركي... ـ وأراد أن يضيف: «ولا تتكلمي»، ولكنه شعر أن هذا لم يكن من الضرورة بمكان أن ينصح به اليزيدية الصَموت أصلاً.

أظهرت بعينيها أنها فهمت وأنها موافقة، فوضعت يديها على تنورتها وبركت أولاً على ركبتيها ثم استلقت واضعة كفيها تحت ذقنها.

في هذا الوقت، سحب أندريو مان بضعة حجارة ملساء، ولكن ضخمة، ورصفها رصفاً عشوائياً على حافة الخندق.

ـ ليستلقِ كلنا على الأرض، اختبئ.

ـ هنا؟ ـ سأل زامورتسيف والشك لا يزال يراوده.

ـ نعم، ـ قال الأميركي وهو يكاد يهوي بجانب اليزيدية. ونزع قبعته الرهيبة فاختفت كما في يد ساحر.

الآن كان على أندريه أن يفعل بنفسه ما راح يأمر به لدقيقة خلت جَروس. ففكر بغيظ، حين كان يهبط باشمئزاز إلى الأسفل على الطين البارد والتراب المليء بالحجارة الصغيرة، معتقداً أن هذا الأميركي قد أفرط في إطلاق الأوامر، وأنه، على نقيضه هو وجَروس، يرتدي زياً رسمياً هو زي المعركة، وهو أكثر ملاءمة للتمرغ في وحول بلاد ما بين النهرين. ثم رأى كيف أن يد الأميركي التي امتدت فوق جَروس ضغطت على كتفه، فأحس على الفور تقريبا بطقطقة. إنها طقطقة الحصى المقززة للنفس تحت الحذاء العسكري الثقيل، وصوت ضرباته الخافت لدى اصطدامه بالحجارة الكبيرة، فكأن كل هذا راح يضغط على شيء ما في المعدة.

تطلع صوب أندريو فرأى أنه أخيراً ، أخرج من مكان ما في جيوب سرواله الواسعة مسدساً بدا لأندريه ضخماً كبندقية. وهو ما أدخل شيئا من الارتياح إلى نفسه.

كانت الخطوات، كما هو متوقع، تقترب شيئا فشيئاً. فالمطاردون كانوا يسيرون في المكان نفسه الذي كان قد جرى إليه كل من أندريه وأندريو وجَروس – أي في قاع الخندق، ولكن عندما رفع زامورتسيف رأسه قليلا، لاحظ من وراء صخرة (أدرك السبب الذي من أجله راح الأميركي يرصف الحجارة: حتى يمكن النظر من خلالها) أن أحد العراقيين كان يسير على خط مرتفع فوق الخندق. أكدت أن هذا كان في الواقع عراقياً كلمة عراقية بحتة قالها والمرء يدرك على الفور أنها لا يمكن أن تكون سورية:

ـ باوِع![70]

توقفت الخطوات. وتبين من خلال أصوات المطاردين أنهم بلغوا المكان الذي التقت فيه الجداول المكونة للخندق.

ـ باوِع، كانوا هنا.

ـ هم هنا في مكان ما قريب.

ـ يا خلَف، أذهب الى هناك.

ـ أمرك، سيَدي.

تفاقم الألم في معدة زامورتسيف أكثر. أيعقل أن يتم الآن العثور عليهم؟ وشعر مرة أخرى بيد الأميركي على ظهره، ورأى إذ أمال رأسه كيف كان ذاك يحرك بصمت شفتيه متسائلة : «ماذا يقولون؟»

«لا شيء ذا بال»، ـ رد أندريه باهتمام ، ولتأكيد ذلك حرك يده بغير اكتراث، وبعد ذلك، سأل بدوره: «لماذا لا تطلق النار عليهم؟» (وأشار بإصبعه إلى اهتزاز سبَطانة المسدس).

«ساعتئذ سوف يطلقون هم أيضا النار»، ـ أجاب أندريو مان.

٧٠ أنظر !

«أمر منطقي» ـ قرر زامورتسيف في قرارة نفسه. ومع ذلك، كان يجب أن يُنظر إلى أين ذهب خَلفُ ذاك الذي أرسله الضابط. راح أندريه يرفع رأسه ببطء مرة أخرى. في المقام الأول ظهر مجدداً في مجال الرؤية ذلك الجندي الذي كان يسير فوق مستوى الوهدة حيث كانوا منبطحين. فجأة جلس هذا ونادى الآخرين الذين راحوا يحركون مرة أخرى الحجارة تحت أقدامهم. ويبدو من خلال صوت ذاك الذي كان في الأعلى أنه كان يشعر بأن سيره هناك غير مريح. وسرعان ما بدأ ينحدر إلى الأسفل هو أيضاً.

«ماذا قال؟» ـ سأل أندريو مان بطريقته الصامتة نفسها.

«قال إنه رأى في البعيد عسكريين... military men»،

ـ كرر أندريه مرة أخري مصوراً بأصابعه رجلاً يمشي.

أشرق وجه الطيار وانفرجت أساريره، وأظهر، بإيماءة أيضا، أن كل شيء على ما يرام: «أوكي!»، وقد أظهر الـ «أوكي» لا بيده التي يحمل بها المسدس، بطبيعة الحال، بل باليد اليسرى. ثم نهض بعد أن دسّ المسدس بين الحجارة وأطلق النار منه. رف جفن زامورتسيف عن غير قصد، وعندما تناهت الى أنفاسه الرائحة اللاذعة للبارود المحترق، همس بتردد:

ـ أنت تريد قتلهم؟

ـ أنا لا أريد أن أقتل أحداً ، ـ قال أندريو مان ، وأطلق النار من المسدس مرة أخرى.

أخرج أندريه بحذر رأسه من وراء الصخر، ولكنه لم ير أحداً من أولئك الذين كانوا لتوهم يحركون الحصى في القاع.

ـ كل شيء على ما يرام، ـ قال لجَروس من دون أن يكون هو نفسه واثقاً تماما مما قاله.

ـ أين هم... هؤلاء الأشخاص؟ ـ سأل أندريه الأميركي متحيراً.

ـ Yellow dogs![71] ـ أجاب أندريو مان باحتقار متذكراً واحدة من

٧١ الكلاب الجبانة!

التعاويذ التقليدية التي تساعد المحاربين من شتى جيوش العالم على هزيمة العدو.

جندينا السوفياتي كان سيبصق على الأرض إضافة إلى ذلك. ـ قال زامورتسيف في نفسه وسأل برجاء:

ـ وهل يمكننا الآن النهوض؟

كان يشعر بالبرد وبوضع غير مريح من جراء الاستلقاء على بطنه على الأرض ، وهو في كنزته التي كان اشتراها، بالمناسبة، بسبعمائة ليرة.

أدار الأميركي رأسه قليلا وقرر:

ـ ممكن.

جلس زامورتسيف في البداية وهو ما يزال لا يصدق كثيراً أن الأمور مضت على خير بهذه السهولة. ولكن عندما نهض أندريو مان بكل قامته، وارتدى بايماءة جنرال قبعته الزرقاء، نهض أندريه هو الآخر.

ـ انهضي، يا جَروس... آه، يا حياتي! أنت أشبه بالموسيقى الكلاسيكية: إما هي هادئة هادئة، أكثر من اللزوم، وإما هي صاخبة .

ـ كيف حال سيدتنا هناك؟ ألم تصب بنوبة برد؟ ـ سأل الأميركي وراح يعرض مرة أخرى كم أنه يعتني بأسنانه.

أحس زامورتسيف بأن سمَاً كما في السابق حقِن في دمه. تذكر كيف أنهما كانا يتحادثان من خلال اليزيدية وهما مستلقيان، وكان هذا أصلاً أمراً غير سار – شيئا يشبه الثلاثي السويدي في تعاطي الجنس. ولكن جَروس كانت في تلك اللحظة تنفض عن تنورتها الغبار ، ولم تكن تنظر إلى أندريو، فيما لم يكن زامورتسيف، بطبيعة الحال، يتوقع أن يترجم لها ثرثرته السخيفة تلك.

ـ ها هم، هؤلاء الـmilitary men[72] ـ قال الأميركي وهو يومئ برأسه في اتجاه السهل البعيد الأخضر الضارب إلى الرمادي من حيث هرع صوبهم

٧٢ هؤلاء العسكريون

جنود باتت تُسمع أصواتهم وهم يتحدثون.

لم يكن السوريون طوال القامة مثل العراقيين، وكانوا يرتدون بدلات عسكرية واقية فضفاضة ومختلفة الألوان: بعضها أخضر مائل إلى البني، وبعضها عليه بقع شبه حمراء تصلح للتمويه فقط بين شتلات البندورة. كان عددهم ستة: خمسة جنود وضابطاً نحيفاً كغزّارة قصب، ولكنه متأنق يضع على عينيه نظارات مدخّنة. وكان شارباه الشقراوان يبرزان من تحتها منتفشَين كفرشاة أسنان عتيقة طالها البلى. وكان يجهد ليظهر بمظهر صاحب الشأن؛ أما الجنود، فكانوا، كما تقول الروايات، ينظرون إلى الثلاثي غير العادي «بفضول حيوي» أي فاغرين الأفواه.

بعد الـ «مرحبا» التقليدية أظهر الضابط ثلاثة أصابع كتلك التي ترقد عليها عادةً كرة الكريستال، وسأل: «شو صار؟»

زامورتسيف العارف بدقائق الأمور في كيفية تعامل السكان المحليين بعضهم مع بعض صافح الجميع بإباء، وأبرز بطاقته الزرقاء المرموقة، بطاقة «قوام السفارة الإضافي».

- آ، روسي! صديق! وأنت، يا مستر؟

وإذ رأى أندريو مان أن ممثل السلطة يخاطبه أشار بيده في تحية بشوشة قائلاً:

- هللو! مرحبا!

كان على زامورتسيف أن يأخذ على عاتقه مهمة سرد حكاية الأميركي الذي سقط من السماء، والـ «فولفو» التي انقلبت على ظهرها، والعراقيين الذين كأنهم ظهروا من العدم. وهو لا يعرف من أين أتوا إلى هنا؟

وفيما كان زامورتسيف يروي القصة راح الضابط يميل برأسه يمنة ويسرة متعاطفاً مع المتضررين وقائلا بصرامة الضابط: "... نعم.. نعم... وقد أعجب بأندريه زامورسكي وبأندريو مان، وأكثر من ذلك بنفسه،

وهـو الذي وقعـت عليه مهمة جلـل تتعلـق بإنقاذ حلفاء. أما بالنسـبة إلى العراقيين، فراح يفسر وجودهم في هذه الأصقاع بقوله:

ـ غير بعيد من هنا، على نهر دجلة، عبارة يجيء ويروح عليها الأكراد من بلدهم كردستان... وللعراقيين على الضفاف في أسفل مجرى النهر نقطة محصنة يطلقون منها النار على هؤلاء الأكراد. طبعاً عندما لا يتناولون طعام الغداء أو يخلدون إلى النوم. من هناك أرسلوا إلى هنا ليقبضوا على الطيار الذي تم إسقاط طائرته.

ثم أضاف بزهو:

ـ علي أن آخذكم إلى المركز، ـ وسأل بدافع من نداء الواجب ونداء الفضول، وهو ينظر شزراً إلى جَروس: ـ و... (من باب الاحتياط) السيدة، من تكون؟

على الرغم من أن زامورتسيف كان يدرك أنه سيتم طرح مثل هذا السؤال، بل كان مستعداً بماذا يجيب، وقد أخبر عموماً بكل شيء كما وقع فعلاً، فإن كلامه كان مقنعاً كأداء ممثل على خشبة مسرح، وهو ما أثار اشمئزازه حتى من ذاته.

ـ إنها لاجئة كردية من أكراد العراق، وأنا أساعدها في العثور على والدها. ولكن الآن يجب أن تؤخذ إلى الحسكة، إلى مخيم الهول... هناك مخيم للاجئين ؛لأن والدها لم نجده، وهناك في المخيم والدتها وشقيقاتها.

ـ آ... مفهوم.

الناس في بلدان الشرق فضوليون حتى النخاع، ولكن نادرا ما ترى شخصاً يصاب بالدهشة من شيء ما. وخاصة لما يحدث للآخرين: ما دام ثمة شيء ما يحدث لهم، فهذا يعني أنه ينبغي أن يحدث. يمكن للمرء أن يسمح لنفسه بأن يعرب عن صدمته إذا لم يُعِد الجار لجاره في الوقت المناسب النقود التي كان استدانها منه، ويمكنه أن يندهش كتعبير عن استيائه من صدام حين يدمر هذا دولة الكويت الشقيقة، ومن دولة الكويت الشقيقة حين تبطر هذه في أنانيتها من وفرة النعمة. ولكن

الاندهاش من القوانين غير المدرَكة المتحكمة بمصائر البشر، انطلاقاً من أكثر المتطلبات صرامة، هو عبث يشبه الدهشة في هبوب الريح وأن تسبح الغيوم في السماء.

ـ يلاّ، هيا اذهبوا، سنأخذ سيارتكم.

ـ لقد تعطلت.

ـ آ... إذاً نذهب رأسا إلى القيادة. لدينا وراء تلك التلة سيارة «لاند روفر». وسنرسل شخص ما ليأخذ سيارتكم.

ـ حسناً . ولكن أريد أولا أن آخذ بعض الأشياء منها.

ـ لذلك أقول: دعونا نذهب إلى السيارة. أين هي؟

جال أندريه بنظره عبر السهل الغادر، البادي وكأنه مسطح غير متعرج وآمن، ولكنه في الواقع محشو حشواً بالثقوب وبالعراقيين.

ـ هل تذكر أين الـ «فولفو»؟ ـ سأل أندريو.

ـ بالطبع. هناك.

ودل زامورتسيف الضابط على السيارة: ـ هناك.

ـ ممتاز. يلاّ، ـ أجاب الضابط. – هل لديك، بالمناسبة، سجائر؟

اكتشافه أن أيا من الرجلين الأجنبيين لا يدخن لم يفسد مزاجه. فأخرج من جيبه علبة من سجائر «الحمراء» بسعر ١٢ ليرة وسار إياباً وذهاباً مزهواً بنفسه، ومخترعاً بين الحين والحين موضوعاً جديداً لحديث مستمر. كان يحدّث حصراً أندريه لكونه يتقن العربية، وإن كان في هذا الوقت ينظر بفضول زائد إلى الأميركي.

ـ كان من الممكن أن تصبحوا «في خبر كانَ»، على فكرة. ـ قال هذا غامزاً أندريه، ومحولاً عينيه ناحية أندريو مان ـ «خبر كانَ»، مستر، يس.

ـ ماذا؟ ـ سأل أندريو.

ـ هذا التعبير، ـ أوضح أندريه وقد حرج عينيه إلى الخلف، ـ مأخوذ من قواعد اللغة العربية. ومعناه هو أن فعل «كان» يعني الماضي. وهذا معناه أننا ربما كنا أصبحنا في عالم الماضي، عالم الآخرة.

ـ واضح، ـ قال أندريو – من الممكن أن لا نكون الآن على قيد الحياة، أليس كذلك؟

ـ أن تكون في «خبر كان». – قال السوري مؤكداً.

عندما ظهر الجانب الزيتوني لسيارة الـ «فولفو»، سأل زامورتسيف الضابط:

ـ لعمرك ، هل تفهم في السيارات؟

ـ لا، ـ قال الضابط وأضاف متندراً: ـ في المسدسات فقط.

أخذ أندريه الحقيبة من السيارة وتأكد مرة أخرى من أن أحداً لم يفتحها. وأمرّ يده بحنوٍ على السقف اللماع لسيارته الـ «فولفو» وتنهد.

ـ حسنا، دعونا نذهب.

ـ هيا! ـ وافقه الضابط:.

ـ هيا، يا جروس. ـ قال أندريه لليزيدية ـ أرأيت كيف؟...

شعر بضيق حيالَ الفتاة ؛ لأنه لم يتمكن من أن يريها لا الجبال الأرجوانية ولا النهر الكبريتي، وراح يحاول أن يتذكر بأية لغة أخبرها عن كل هذا، ولكنه لم يتذكر. كان عزاؤه الوحيد أن الأماكن التي تحيط بهم كانت جميلة جدا: تلال ـ والحق يقال ـ كأنها من أيام التوراة، تدلّت فوقها السحب بلا حراك، وبدت ظلالها على المنحدرات الخفيفة الانحدار كأنها أختام سماوية. وكانت سحابة من بينها شديدة الانخفاض وممتلئة لدرجة بدت معها وكأنها على وشك أن تسقط على الرؤوس.

ـ جميل كل هذا، أليس كذلك؟ ـ قال لأندريو مان.

ـ ماذا؟ ـ لم يفهم الأميركي.

ـ أنظر... منظر طبيعي رائع، ـ قال أندريه وهو غير واثق من أن كلامه سيصل إلى القلب. وأراد أن يضيف أن أسرار الكون والخلق تتكشف في أماكن مثل هذه، ولكنه لم يفعل ذلك.

وأخيرا ، وصلوا إلى «لاند روفر» المخابرات ذي اللون «البيج» وهرعوا فيه مسرعين عبر المطبات بحيث راحت مخمّدات السيارة تئنّ ألماً. للحظة اكتنف الفزع زامورتسيف لأنه سيقفل عائداً، زد على ذلك بمثل هذه الطريقة «غير المأنوسة». على الرغم من أنه راح يفكر في معنى «الفزع». لقد كان من المفزع أن يسقط الطيار الأمريكي من السماء. ومن المفزع سماع قصص الطاووس. وربما كان أيضا عند جروس ما أفزعها ذات مرة. ثم فكر أن... لا، لم يفكر. كان يدرك ـ بالطبع ـ أن أموراً سوف تحدث بالتأكيد، ولكنه لأمر ما لم يكن ليحزن كثيرا في هذا الشأن. فربما مضت الأمور على ما يرام : كأن يبدي أن «فكره وقلبه مع الحزب»، أو أن يخترع شيئا ما ويعود إلى نمط العيش الطبيعي المعتاد لموظف سوفياتي في مؤسسات الخارج : قميص بيج مع طقم أزرق داكن، أو قميص أزرق مع طقم بيج...

ثم كان جلوس وانتظار في فناء مقر القيادة بحذاء سيارة الـ «زيل ـ ١٣٠» السوفياتية الصنع ذات اللون الأخضر الداكن المخصصة للمسؤولين الكبار في الدولة، والتي كان نصف جانبها الخلفي مطلياً باللون الأحمر – وهذا امتياز فقط للشرطة العسكرية. إن الشرق – كما يقال عند الروس ـ ليس فقط خيطاً رفيعاً قد ينقطع في لحظة ما، كما كان يقدر بترونيا، ولكنه أيضا خيط طويل، أو كما يقال بالدارجة ، «فتيلته طويلة». وكان ثمة أشخاص يرتدون الزي العسكري يهرعون صوب أندريه ورفيقيه من وقت لآخر من مبنى عتيق يكاد يتهدم، ليطرحوا أسئلة جوفاء ، وليطلبوا ثلاث مرات أن يكتب هؤلاء أسماءهم على ورقة وليأخذوا منه مفاتيح السيارة.

وعندما جلب أحدهم الشاي في أكواب صغيرة، وهو في سترة قذرة ممزقة، لبسها فوق سترة أخرى مماثلة، قال أندريه للأميركي:

ـ أندريو، أريد أن أقول لك عن... الفتاة الكردية (كاد يقول: فتاتنا). السوريون باتوا على علم بأنها لاجئة من العراق. وبأني جلبتها معي من مخيم للنازحين.

ـ شيء لا يصدق!

التفت، بالطبع، على الفور إلى جروس ليظهر مرة أخرى ابتسامة مذهلة وعوائد هوليودية:

ـ لقد صدِمتُ، سيدتي، تكونين إذاً حليفاً لنا!

ـ مهلك، أنا لست في وارد تسليتك. أنا أقصد شيئاً آخر تماماً. لقد أخذتها من المخيم، وعلي أن أعيدها إلى هناك. لا يمكن أن نتركها هنا، لا يمكننا تسليمها لأحد. علينا أن نعيدها. هكذا يلزم، أندريو.

ـ هل تعتقد أن هذا أمر ضروري؟

ـ نعم.

نظر أندريو مان إلى زامورتسيف حاملاً كلامه على محمل الجد.

ـ حسنا، سنفعل ذلك.

وأخيرا، استدعى كلاهما إما جندي وإما رقيب إلى مركز القيادة.

ـ والفتاة؟ ـ سأل زامورتسيف.

ـ لتبق هنا.

ـ انتظري هنا، ـ قال أندريه لجروس. ونظر شزراً إلى الجندي المفوض وأضاف: «ولكن لا تذهبي من هنا إلى أي مكان».

رفعت اليزيديّة عينيها بهدوء تجاهه ، وهو ما يعني إذا ما ترجم إلى لغة البشر العاديين: حسنا، حسنا.

من خلال الاستقبال الودي من قبل الرجل الذي كان رسم النسر على كل كتّافيّة يحملها ، كان واضحا أنه سبق له أن اتصل بالسلطات

المختصة وتلقى التعليمات اللازمة. وقد أجلس الضيفان على كرسيين مقعَرين من كثرة الجلوس فوقهما ، وقدم الخادم السابق مرة أخرى الشاي لهما.

ـ أرحب بكما في أرض سورية، ـ قال صاحب الغرفة ذات الجدران الخرسانية الرمادية اللون؛ وكانت الخزنة الحديدية الرثة، و، وصورة الرئيس يكسِبان هذه الغرفة العادية المتواضعة أبداً فخامة المكتب.

زامورتسيف قدّم نفسه وقدّم أندريو مان قائلا : إن الأميركي لا يتكلم العربية.

ـ أنت تعرف أصلاً تاريخنا؟

ـ طبعا، طبعا. كتب الملازم تقريرا مفصلا. الحمد للّه أن الأمور انتهت على خير. أنت نفسك اقتنعت بأن حدود سوريا حافظ الأسد هي حدود منيعة ومغلقة على الغرباء. وأميركا حليفتنا في هذه الحرب، والسوفيات أصدقاؤنا وأخوتنا، و نحن سوف نفعل كل شيء من أجل سلامتكما ـ أكد الضابط لنا رسميا مبدياً تفاخراً بثقافة سياسية رفيعة.

ـ ماذا قال؟ ـ سال أندريو مان. كان يتطلع مثل تلميذ إلى ما حوله، فكل شيء كان يثير اهتمامه.

ـ قال إنه معجب ببطولة الطيارين الأمريكان ـ لسبب ما لم يكن زامورتسيف يريد أن يروح هذا الأميركي يضحك هناك، بين أصحابه، على ما كان رآه وسمعه هنا في الجانب السوري، ذلك أن أندريه نفسه، ومعه جروس أيضا، كانا في تلك الفترة جزءاً من هذه الأماكن لا ينفصم عنها.

ـ شكرا لكم، أنا متأثر للغاية، ـ قال أندريو ، رداً على الإطراء الخادع بترجمة أندريه.

ـ وثائقكما الثبوتية بمعيتكما بالطبع. ـ قال السوري.

قدم أندريه له بطاقته الزرقاء وقال:

ـ بالطبع.

ـ والمستر؟

ـ أرجو تمكيني من الاتصال بالسفارة الأميركية، ـ قال أندريو.

ـ طبعـا، طبعـا. مرحبا بك في أرض سـوريا! – يبـدو أن مدير المكتب كان قد تلقى تعليمات باعتماد اللطف واللياقة.

ـ لا يمكن أن تكون لديه وثائق ثبوتية، فهو طيار عسكري، ـ شرح أندريـه زامورتسـيف لمحادثهما مضيفـاً. ـ ههنا كان اسمـه... وقد انتزعه ومزقـه إثر هبوطـه. تلك هـي القواعد المرعيـة. طياركم كان سـيفعل الشيء نفسه.

ـ طبعـا، طبعـا. أهـلاً بكما. الآن سـيتم إرسـال طائـرة هليكوبتر لنقلكما.

ـ وجروس؟ ـ سأل زامورتسيف بقلق وبفارغ صبر.

ـ ماذا؟

ـ أعني الفتاة.

ـ أية فتاة؟

ـ الفتاة التي معنا. اللاجئة.

راح السـوري يحدق في الأوراق أمامه، طبعـاً في التقرير إياه الذي قدمه الملازم ذو الشاربين.

ـ ليس هنا أي شيء حول موضوع الفتاة.

ـ غـير ممكـن! ـ قال أندريه مبديـاً القلق. ـ ومع ذلك، ليـس هذا مهماً الآن.

ـ لا تقلق، سـوف نعيّن من يهتم بوضعها. بالمناسـبة، كيف حصل أنها معكما؟

ـ شاءت أن تبحث عن والدها والدها، وأنا قررت مساعدتها.

ـ والدها؟

ـ نعم. لقد غادر المخيم، وأرادت العثور عليه.

ـ وهل وجدتماه؟

ـ وهل هذا ممكن؟! طالما لم يكن لديها أية فكرة إلى أين ذهب.

ـ بالطبع. مفهوم. ـ قال الضابط وقد كف عن استجواب أندريه في الموضوع، وكأنه انتابه شعور بالحراج من جراء البدعة الغريبة والخرقاء لهذا الأجنبي ـ عموماً، نحن نعلم ماذا نفعل بها. سيكون ثمة من يهتم بأمرها.

من الواضح أن الضابط أراد بهذه الكلمات أن يلمح إلى ما يتمتع به من مستوى رفيع من الكفاءة، وأن يهدئ من روع زامورتسيف، ولكنه لم يصل إلى الهدف المنشود.

ـ يعني ماذا تقصد بـ «من يهتم بأمرها»؟

ـ وفقا للإرشادات المقررة في مثل هذه الحالات.

ـ وما هي هذه الإرشادات؟

ـ إرشادات قانونية، ـ قال الضابط بلهجة الكلام الرسمي ـ وفقا لقوانين الجمهورية العربية السورية.

ـ لدي احترام كبير لقوانين الجمهورية العربية السورية، ـ قال زامورتسيف. ـ ولكن علينا أن نأخذ الفتاة إلى المخيم.

ـ هذا غير ممكن.

ـ هذا ممكن. إنها لاجئة.

ـ هنا لب المسألة. إنها تحت وصاية قضائية خاصة.

ـ سنصطحبها إلى المخيم. وهناك سوف تكون تحت الوصاية المطلوبة.

ساعتئذ استدعوا طائرة الهليكوبتر.

ـ ولكن المخيم في الحسكة!

ـ قرب الحسكة، ـ صحح له أندريه قوله وقد لاحظ أن السوري مطلع على حقيقة الأمور أفضل مما كان يعتقد في البداية.

ـ كيف ستأخذها إلى هذا المكان البعيد؟ هل لديك سيارة؟

ـ وهناك، في التقرير، ألم يكتبوا أن سيارتي تعطلت؟

تظاهر الضابط بأنه يقرأ التقرير.

ـ حسنا، – هتف متعجباً ـ أنت ترى... أن السيارة معطلة!

ـ ماذا في الأمر؟ ـ فرغ صبر أندريو مان – ما به يقرأ ويقرأ؟

ـ أتذكر؟ حين حدثتك عن الفتاة في الساحة... ـ devil girl[73]؟ الآن، حان الوقت لمساعدتي.

ـ مستر، لا أعرف ما اسمك، ـ قال الأميركي بصوت فيه صرامة وهو يلفظ الكلمات الإنجليزية منتقياً إياها بعناية: ـ إذا كنت تتحدث عن الفتاة (وأشار بإصبعه إلى ما وراء ظهره)، فإنه ينبغي أن يكون كل شيء في شأنها أوكي!

ـ ماذا يقول؟

ـ هو يصرّح نيابة عن حكومة الولايات المتحدة بأنه لن يطير إلى أي مكان حتى نعيد الفتاة إلى أهلها.

ـ نيابة عن حكومة الولايات المتحدة؟

ـ... شيء من هذا القبيل، ـ قال زامورتسيف بغير اهتمام.

ـ حسنا...، بالمناسبة، أيها السيد الطيار. هناك من ينتظرك. سفارتكم تعرف أنك هنا، ـ قال السوري وهو يشير الى أندريو مان، وكان زامورتسيف مضطراً إلى أن يترجم.

٧٣ بنت الشيطان .

لوحظ أن هذه الكلمات كانت بمثابة اختبار جدي للشعور بالواجب العسكري لدى أندريو. تطلع إلى زامورتسيف وهو في حيرة من أمره، وكان أندريه مضطراً لأن يظهر بمظهر مقدم برامج تلفزيوني وقح لأجل أن يجبره على التغلب على الضعف المشين.

ـ شكرا على الخبر السار، ولكن علينا أولا أن نحل مشكلة الفتاة، ـ قال الأميركي أخيراً، وترجم أندريه بسرعة ما قاله.

ـ يجب أن تفهما: المروحية قد انصرفت، وليست لديكما سيارة.

ـ إذاً خذونا بأنفسكم إلى الحسكة، ولتأت المروحية إلى هناك.ـ قال أندريه هذا ودفع أندريو مان بركبته، فقال الأخير للضابط على الفور، هذه المرة بمرح شديد:

ـ أكرر لك من جديد إننا بدون الفتاة لن نتحرك من هنا إلى أي مكان.

ـ عما هو يتحدث؟ ـ استفسر الضابط.

ـ عن الشيء نفسه تقريبا الذي قلته أنا.

ـ هذا مستحيل، غير ممكن.

ـ ممكن.

ـ إذا لم يكن كل شيء أوكي مع الفتاة، فإن الصحافة الأميركية سوف تشهر بكم في العالم كله.ـ قال أندريو مان واعداً ومتوعداً.

امتقع وجه السوري وراح يفكر ملياً في الأمر. كان زامورتسيف متفهماً إياه والوضعَ المحرج الذي بات فيه من غير ذنب له، حتى أنه شعر بالتعاطف معه. فالمسؤولون عنه قد أخطِروا بالأمر، وطائرة الهليكوبتر أقلعت ورحلت (وربما هي لم تقلع بعد، فنحن، لحسن الحظ، في بلاد الشرق وفهمكم كفاية)، والآن بات عليه أن يغير كل شيء، فبأي عذر يبرر هذا التطور المفاجئ في القصة؟ بوجود فتاة كردية غير معروف من أين أتت؟ إن في هذا لإهانةً له وإهانة للسلطة المسؤولة عنه، وإهانة للتاريخ، في خاتمة المطاف... ومع ذلك، فالمشكلة مشكلته هو، فليقدح زناد فكره

ويفعل شيئا.

ـ إذاً، أنتما ترفضان كلياً ونهائياً الذهاب على متن الهليكوبتر؟

ـ ما لم نرد الفتاة إلى المخيم. – صحح له أندريه قوله.

صمت السوري لحظة مترقباً على أمل أن يعود الأجنبيان الصعبُ إرضاؤهما إلى رشدِهما.

ـ ماذا الآن؟ ـ سأل أندريو مان، وقد أثار فضوله هذا الصمت الذي ساد فجأة. – هل حصلنا على ما نريد؟

ـ لنر ـ قال أندريه. ـ ولكن على أية حال، شكرا لدعمك.

بعد وقفة قصيرة، قدم مدير المكتب ورقة إلى أندريه.

ـ أكتب.

ـ ماذا؟

ـ بيان.

ـ عن ماذا؟

ـ عما قلتماه.

ـ على اسم من؟ على اسمك؟

فكر الضابط قليلاً.

ـ أكتب "إلى من يهمه الأمر".

أخذ أندريه القلم الممدود إليه وكتب:

« إلى من يهمه الأمر...»

ـ عفواً، ـ قال الضابط وخرج.

« نحن: الموظف في البعثة التجارية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية...»

ـ ماذا تكتب، يا أندريه؟ أنا لا أريد توقيع أي ورقة، خصوصاً باللغة العربية.

obeikandi.com

ـ لا تقلق، يا أندريو، أنا أفهم...

شطب أندريه كلمة «نحن» ووضع مكانها: «أنا الموقع أدناه...» في الحقيقة، ما شأن الأميركي هنا؟ إن هذه هي مشكلته هو، أندريه زامورتسيف، ومن المفروض أن يوقعها معه بالأحرى موليكوف وبترونيا. وكذلك النادل صاحب الضمير الحي في حانة «البطريق». ورجل المنظمة الحزبية الساهر على النظام والقانون... يكفي المرء أن يفكر وحسب في مسألة: أي أشخاص مختلفين هم هؤلاء المتوقفة عليهم حياتنا، ومن أية تفاهات سخيفة تتألف حياتنا هذه وتتكوّن! ..

"... أطلب من السلطات السورية (فكر، ثم أضاف، «المعنية»، وفكر مرة أخرى ليحل محلها «المختصة») الإذن بأن أعيد الى مخيم اللاجئين الواقع بالقرب من قرية الهول شرق الحسكة، اللاجئة الكردية... (ماذا عن الاسم؟ هي صارت إلى الأبد بالنسبة إليه جروس، على الرغم من أنه ليس متأكدا من أن اسمها جروس حقا. حسنا، ليبق هذا بينهما) الهاربة من الحرب في العراق حفاظاً على حياتها. وإن اللاجئة المشار إليها أعلاه... (كلمات: المشار إليها أعلاه» بدت له مكروهة – كأنه يتحدث عن شيء ما، عن ماركة، علامة تجارية. فغيّرها إلى «المذكورة أعلاه» ولكن لم يكن هذا التعبير بأفضل من ذاك)... والتي لا أعرف بالضبط ما اسمها، كانت موجودة معي من أجل البحث عن والدها الذي فر هو أيضا حفاظاً على حياته من ويلات... (لا، ليس الأمر هكذا طبعاً!)... توجهت بطلب مساعدتها في العثور على والدها الذي كان قد غادر المخيم قبل ذلك بيوم... وبسبب تعطل السيارة وظهور الطيار الأميركي (اللعنة، كم هي صعبة كتابة مثل هذه الأوراق الرسمية الغبية!) الذي كانت تبحث عنه فرقة كوماندوز من القوات العراقية مخترقة الحدود، ترتب الكف عن البحث عن والدها ، وبات من الضروري إعادتها إلى مخيم اللاجئين» (أف!).

فكر قليلاً فرأى أن أندريو مان كان وكأنه لا يعجبه محتوى البيان، وأن الضابط لن يعجبه هذا بالتأكيد، فأضاف:

«أما الطيار الأميركي المذكور، فهو لكونه قيد الخدمة العسكرية، وأيضا لأنه لا يعرف اللغة العربية، يتضامن بشكل غير رسمي مع ما سبق».

راح أندريو «المنضم» هذا ينظر بفضول واحترام، كيف كان يرسم زامورتسيف بعناية حروف العربية الشبيهة بالشُعَيريَة ويوقّع تحتها.

ـ ألا تخاف أن تعطيهم أوراقاً؟

ـ لمن تقصد؟

ـ للسوريين.

قال أندريه في نفسه: «آه، يا عزيزي أندريو، قد يكون الغريب أحيانا أقل ترويعا لك من القريب! أو أن الأمور عندكم ليست كذلك؟

ـ أنت لديك، كما أرى، التصورات نفسها عنهم، وعن الروس الذين تفترض أنهم جميعاً من ذوي اللحى.

ـ أنت أدرى. ربما أكون مخطئاً. ـ قالها وكأنها للمرة الأولى لم تكن على الطريقة الأميركية.

عاد الضابط حاملُ النسور على كتفيه وقرأ بسرعة ما كتبه أندريه في الـ «بيان».

ـ سيقلّونكم إلى حيث تطلبون. ـ قال بجفاء ـ السيارة بانتظاركم. وسيارتك الـ «فولفو» (هذا الكلام موجه فقط لأندريه) ستبقى معنا. يمكنك أن تأتي بطلبها في أي وقت أو إرسال ممثل عن السفارة.

شكره زامورتسيف بحرارة على مساعدته وحسن الضيافة، أما السوري فخفت حدّته بعض الشيء، وإلا فإنه ما كان ينبغي أن يكون سورياً.

ـ لا تنس أننا أنقذناكم!

ـ لن ننسى أبدا! نحن سنحدث الجميع عن هذا.

خرج أندريه والأميركي في إثر مرافقهما إلى الفناء حيث بقيت جروس، وحيث كان يقف على أهبة الاستعداد الـ«لاند روفر». بدأ الجندي المفوض يقول شيئا ما للسائق هامساً همساً سريعاً لم يسمع منه أندريه إلا لماماً كلمتي «شايف شلون ..؟»، ثم عرض بعد ذلك على الجميع دخول السيارة. وأزّ المحرك إيذاناً بالرحيل وامتدت يد السائق في الحال، طبعاً، إلى مفتاح الراديو. فقال أندريه متفاجئاً حتى هو نفسه:

ـ كارلوس ساينز.

ـ ماذا؟ ـ قال أندريو متسائلاً.

ـ لا شيء. تذكرت واحدا... من المشاركين في سباقات السيارات. الآن بالذات هناك... في مونتي كارلو «رالي سيارات».

لعله لا داعي لأن تُحكى لطيار باسل تلك القصة المؤثرة: كيف أن كارلوس ساينز هذا قد انطلق مؤخرا مع زامورتسيف في شوط سباق عبر الصحراء السورية، وكيف أن زامورتسيف كما لو أنه انطلق معه عبر تلال مونت كارلو. ومن غير المرجح أن تحدث أي شخص آخر، كم كان هذا رائعاً – أن تنهب الأرض مسرعاً في ليلة ليلاء في طلب شيء لا يسعك تفسيره، شيء لا وجود له على الإطلاق، ولكنه ملزم أن يكون موجوداً... كان زامورتسيف يريد أن يعرف إلام انتهى السباق: هل استطاع فرانسوا ديليكور اللحاق بكارلوس، ولكن الراديو كان مضبوطاً ليذيع بشكل دائم الأغاني البدوية التي لا نهاية لها:

«بين الرقة ودير الزور ... مرقت سيارة حمرا...هاللّه هاللّه

وهي سيارتك يا حبيب... وأنا عرفتها من اللوحة المعدنية...هاللّه هاللّه».

كانت تغني هذه الكلمات المطربة سميرة توفيق. وقد راحت الجوقة تردد: «هاللّه هاللّه»!..

ذهب الجندي المفوض في طلب الحصول على آخر التعليمات، ثم عاد وجلس، وهو يلهث، بجانب أندريه. وانطلقت سيارة الـ«لاند روفر» عبر الأسفلت.

في البداية، راح أندريو ينظر يمنة ويسرة ويطرح أحيانا بعض الأسئلة على سبيل الفضول المعرفي، وكان زامورتسيف يجيبه عن فضوله هذا. ولكن شدة النعاس أطبقت جفني كل من الأميركي والجندي المفوض، فيما أخذ أندريه يفكر في أنه سيكون شيئا جيداً أن يكتب كتاباً جميلاً ولطيفاً. وأراد للكتاب أن يبدأ بعبارة مثل: «في ذلك العام كنا نعيش في...». أليست هذه بداية لطيفة حقاً، تجعل هذا الكتاب دافئاً وقريباً إلى القلب. وراحت تدور في الدماغ لاحقاً عبارة: «في ذلك العام كنا نعيش في... في ذلك العام كنا نعيش في...»، ثم لم يرد بعد ذلك إلى البال شيء جيد، وفي نهاية المطاف يئس وترك التأليف، ثم نظر شزراً إلى جروس التي كانوا يقلّونها لتعود إلى قبيلتها، وفكر في ذاته معتبراً أن ما حصل ربما كان نحو الأفضل. كيف أن كل شيء في الطبيعة دقيق محكم وليس سهلاً البتة. لقد كانت تعيش في شقة موليكوف حرباء التقطها في مكان ما بين الأنقاض. حين كانت تلك الحرباء تعثر على الذباب قوتاً لها، كانت تعيش بشكل طبيعي. ثم أكلت بعد ذلك من شدة الجوع صرصوراً... فماتت. لا يمكن للمرء أن يتجاهل حقيقة أن للطبيعة أسرارها. نعم، من المستحيل إنكار ذلك. وهذا صحيح بقدر ما هو صحيح القول إن سيمفونية شوبرت التاسعة لا يمكن الاستماع بمتعة حقيقية إلا إلى الجزء الثاني منها.

بدا المخيم بائساً جداً من دون رتل السيارات ذاك، من دون الصحافيين، من دون المحافظ وهو في معطفه الأنيق، ومن دون الحاشية ترافقه. والفيتناميون الموعودون لم يظهروا بعد، كما بات واضحاً. وقد اتفق زامورتسيف مع الدليل على أن يوقف الـ «لاند روفر» في مكان ما عند طرف المخيم، وأن تُنزَل الفتاة بحيث لا يلحظها أحد، لكي لا تدفع الحشرية بأي كان إلى أن ينظر مَن الآتي ومن الرائح.

ـ حسنا، يا جروس، وداعاً. آسف أني لم أفهم ما قلتِه لي هناك في السيارة... حسناً، كفى! اذهبي.

استمعت اليزيديّة إلى هذه الكلمات من دون أن تبدي أي رد فعل، ثم قفزت بصمت عبر الباب غير المريح إلى خارج السيارة. وقفت بجوار السيارة، وأمالت رأسها ناظرة إلى الأميركي. فراح ذلك يكشف لها أسنانه اللامَاعة للمرة الأخيرة من خلال ابتسامته الأميركية المعهودة والمشهودة ولوح لها بيده.

ـ Good bye!. إلى اللقاء!

استدارت جروس ومشت نحو الخيَم، وكانت دوائر الغبار تتصاعد خلف تنورتها.

قال زامورتسيف في نفسه: «هل ستلقي، يا تُرى، نظرة إلى الوراء أم لا .. ولو لمرة واحدة؟»

ولكنه وجد نفسه فجأة وقد صاح قائلاً:

ـ هيا نذهب! لا داعي للانتظار، الوقت قصير! يلاّ! يلاّ!

ـ اصغ، ـ قال أندريو مان وقد شعر بأن ساعة الفراق مع سوريا تقترب لا محالة. ـ تعال نتبادل الساعات. للذكرى.

ـ ساعتي سويسرية.

أحس الأميركي بخيبة أمل واضحة.

ـ ظننتها سوفياتية... على أي حال، تعال نتبادلهما!

ـ تعال.

يا له من أمر مستغرب : ما إن اختفت جروس حتى صارا كأنهما أقرب لبعضهما البعض . ألا إنها حقا بنت الشيطان...

ـ ما بك؟ ـ سأل أندريو، ـ هل أنت بخير؟

ـ بكل خير، شكرا لك.

اطمأن الأميركي أخيراً. وضع قبضته على شفتيه وقال بصوت يشبه صوت الميكروفون:

- Aeroflot, maintain flight level thirty thousand feet.[74]

ابتسم زامورتسيف مبيناً أنه فهم النكتة.

- Roger. Willco.[75]

كانت الشمس قد بدأت تميل نحو الأصيل، وبدأت الريح هبوبها. وراح أندريه، وقد اتكأ على جدار السيارة البارد، ينظر كيف تقطع الطريق من طرفها إلى طرفها تارة مسرعة وتارة هاجعة أكياس الورق والنايلون الملقاة دون رقيب أو حسيب، وفكر: نحن لم نتعلم حتى اللحظة كيف يفهم بعضنا بعضاً كما يجب – روساً وأميركيين، ذكوراً وإناثاً... وليس واضحا كيف لكل هذا أن يكون. ولربما كان الأمر أسهل مع الأميركيين مما هو مع النساء.

راح يتذكر «ميمي»، وكيف أنها كانت أحيانا تجلس بتنورتها الطويلة وكنزتها السوداء على متكأ الكنبة، متوكئة على كفها، وناظرة في البعيد البعيد، إلى حيث لا يستطيع أحد، إلى مكان لا يبلغه أي إنسان. فيضحي وجهها وكأنه منقطع عن الدنيا وفخور إلى حد يبدو معه لمسه في تلك اللحظة أشبه بلمس رخام لا يبلى. ربما كان الآلاف من

الرسامين يبحثون، يحدوهم الحنين إلى هذه اللحظة التي تصنعها المرأة، لأجل إجبار العالم على أن يختنق من جراء قرب ما هو غير قريب إدراكه. واللحظة هذه هي هنا، جالسة في منزل زامورتسيف على متكإ الكنبة، وبعد ثانية ستستيقظ من حلم اليقظة وتذهب إلى المطبخ لتلقي في القدر المعكرونة.

ولعل أسعد فترة في حياة الرجل عندما يظن أنه يفهم النساء.

آه، أيها الكائن الذي يجهد ليهزم الآخر، ثم ليصبح بعد ذلك بمثابة السجين الأبدي للمهزوم إياه، ولا يكسب حريته إلا إذا فشل في ذلك.

٧٤ أيروفلوت، حافظ على مستوى الطيران على علو ثلاثين ألف قدم.
٧٥ فهمتك. حسناً.

أيهـا اللاعب الحذر الذي يحسـب ألف حسـاب، وفي اللحظة الحاسمة، وبإلهـام من قوة خارقة غير مفهومـة، يضحي قادراً فجأة على القيام بنقلات جنونية فعلاً.

أيهـا المهرّج الحزين الذي يحاول جاهـداً بتصرفاته الغريبة التغلب على دراما الحياة.

أيتها المرأة!

أيتها الأغنية!

دمشق، ١٩٩٣ ـ ١٩٩٥

****

obeikandl.com

إصدارات دار نشر أنباء روسيا

أنباء روسيا
Russia News
russiannewsar.com

www.russiannewsar.com

والمؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم

www.a_rfcs.org

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعى

obeikan.com

كُتب علمية وأدبية

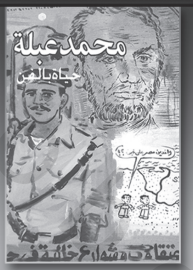

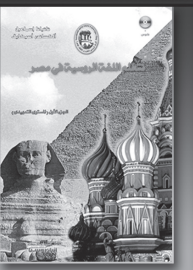

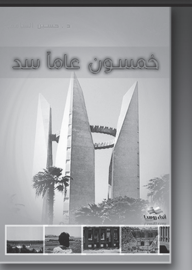

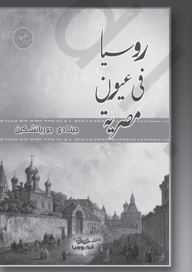

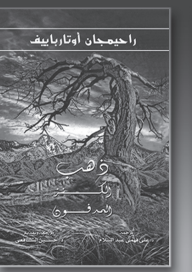

كُتب علمية وأدبية

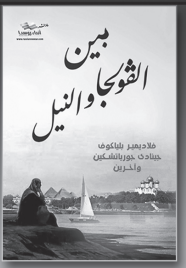

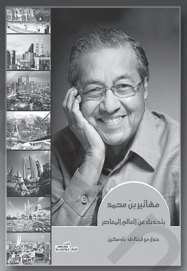

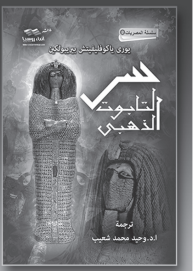

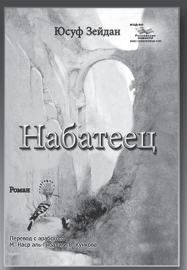

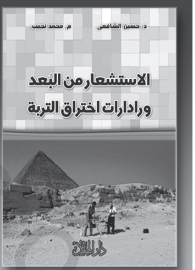

مجلات دورية

Moscow News
أنباء موسكو
9 مايو .. روسيا تحتفل بعيد النصر
RUSSIA NEWS
أنباء روسيا
OSCE
موسكو
863
عاماً
50
سنة
سد عالي
عيد النصر
9
مايو
الشرق العربي
يمكن أن يغير العالم
نتائج انتخابات
مجلس الدوما السادسة
SOCHI
2014
سوتشي
وزير الخارجية الروسي
سيرجي لافروف
فلاديمير بوتين
يعود من جديد

مجلات دورية

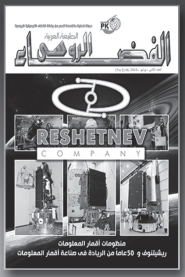

أنباء روسيا
روسيا ترحب بوزير الدفاع و وزير الخارجية المصريين خلال زيارتهما إلى موسكو
RUSSIA NEWS
بوتين يخاطب الشعب الأمريكي:
دعوة للحذر
الشعب المصري
يقرر مصيره..
وزيرا الخارجية والدفاع الروسيان في زيارة لمصر
مصر وروسيا تحتفيان بذكرى الشيخ
محمد عياد الطنطاوي
في مسقط راسه
بوتين يختتم زيارة ناجحة إلى القاهرة
بوجدانوف.. يجري حالياً التنسيق بين موسكو والقاهرة لتحديد موعد زيارة الرئيس بوتين إلى مصر
تداعيات زيارة السيسي إلى روسيا
مصر تغزو الفضاء لأول مرة بدعم روسى
الفضاء الروسي
الطبعة العربية
RESHETNEV
COMPANY
منظومات أقمار المعلومات
ريشيتنوف و 50عاماً من الريادة في صناعة أقمار المعلومات
عدد خاص
روسيا تطلق برنامجاً فضائياً ضخماً بتكلفة أكثر من 64 مليار دولار
ريشيتنوف
50 عاماً من الريادة فى صناعة أقمار ومنظومات المعلومات
آسيا وإفريقيا اليوم
الطبعة العربية
العلاقات الروسية المصرية:
روسيا تعود إلى إفريقيا
الدولة الإسلامية
خطر حقيقي
روسيا ومصر: الهدف التعاون الإستراتيجي
مشكلة الموارد المائية
السياسة المائية في حوض النيل
الغاز الطبيعي في إفريقيا
اكتشافات فريدة وآفاق جديدة
كازاخستان والفضاء
أخبار أوزبكستان
أربع وعشرون عاماً من إستقلال أوزبكستان

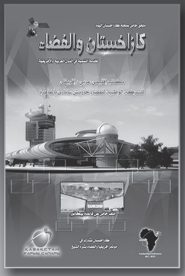

دار نشر أنباء روسيا

www.russiannewsar.com

المؤسسة المصرية الروسية
للثقافة والعلوم

www.a-rfcs.org

obeikandl.com

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعى